

العين الغائبة

(الجبرتي الحملة الفرنسية على مصر)

الدكتور
عمر جاسم محمد

ZAHRAN
زهران للنشر
PUBLISHERS

العين الغائبة

(الجبرتي والحملة الفرنسية على مصر)

العين الغائبة

(الجبرتي والحملة الفرنسية على مصر)

تأليف

عمر جاسم محمد

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

محمد ، عمر جاسم

العين الغائبة (الجبرتي والحملة الفرنسية على مصر) / عمر جاسم محمد .- عمان: دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

(   ) ص.

ر.أ

الواصفات:

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

Copyright ®

All Rights Reserved

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي وجه أو بأي طريقة إلكترونية كانت أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل وبخلاف ذلك إلا بموافقة الناشر على هذا الكتاب مقدماً.

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٣٣١٢٨٩ - ٦ - ٩٦٢+، ص.ب ١١٧٠ عمان ١١٩٤١ الأردن

E-mail : Zahran.publishers@gmail.com

الإهداء

الى روح ادوارد سعيد ...

الفهرست

المقدمة

كانت الحضارة الإسلامية عبر التاريخ في علاقة مستمرة مع الحضارات المجاورة،اليونان والرومان غربا،وفارس والهند شرقا،قبل الإسلام وبعده،بل إن إبداعات الحضارة الإسلامية هي نتيجة لهذا التفاعل بين الداخل والخارج،بين الموروث والوافد،بين النقل والعقل،بين علوم العرب وعلوم العجم،بين علوم الغايات وعلوم الوسائل،أو بلغة العصر بين الأنا والآخر.

ظلت العلاقة الجدلية بين الانا و الاخر مثار بحث وتنقيب مستمرين، على الرغم من اختلاف طرائق البحث بين " العربي " المتمثل بـالأنا، و " الغربي " المتمثل بـالآخر، فقد نشأت عن ذلك حركة واسعة النطاق -خصوصا في الغرب الأوربي الناهض والطامح إلى التوسع والسيطرة، إثر سلسلة الحروب الصليبية Crusades وعصر النهضة Renaissance، متعديا حدود الدفاع عن النفس-أطلق عليها اسم (الاستشراق).

Orientalism و الذي – حسب ادوارد سعيد – كان يعني : طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوربية الغربية،فالشرق ليس لصيقا بأوربا وحسب،بل كذلك موضع أعظم مستعمرات أوربا،وأغناها،وأقدمها،ومصدر حضاراتها ولغاتها،ومنافسها الثقافي،وأحد صورها الأكثر عمقا وتكرار حدوث للآخر، وإضافة، فقد ساعد الشرق على تحديد أوربا أو (الغرب) بوصفه صورتها، و فكرتها، و شخصيتها، وتجربتها، المقابلة.

من هنا كانت التساؤلات حول الحملة الفرنسية على مصر مثار تحليل و بحث طويلين لأهمية هذه الحملة التلاقي في الشرق و الغرب، وليس هذا فحسب، بل لفهم صورة ذلك الغرب الذي ظل طويلا غائب عن الفهم الشرقي بكليته، فجاء البحث فيما كتبه المؤرخ المصري الازهري عبد الرحمن الجبرتي في كتابه عجائب الاثار في التراجم و الاخبار، وتتطلب الامر بحثا و جهدا مضنين للوصول الى نتائج وإجابات للأسئلة .

لذا كان سعينا من خلال دراسة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ الاول للحملة الفرنسية على مصر الى ادراك ماهية الاحتلال من خلال مؤرخ عربي – مسلم، من طبقة العلماء، والذي كتب بطريقة تختلف كليا عما كتبه الاخرون عن الاحتلال، فكانت لديه اليات جد خاصة في رصد الفرنسيين و التدوين لتلك الحقبة، وقد مثل وجهة نظر النخبة المثقفة في مصر، وليس فقط دراسة الحملة الفرنسية بوصفها احتلال و قوة استعمارية فرضت هيمنتها على مصر، بل بما حملته معها من ادوات حضارية، تلك الادوات التي جعلت صورة الاخر الغربي صعبة المنال، فهو بين الباعث الجديد للنمو و الازدهار، وبين المدمر القاتل الذي يغتصب ارضا رغما عن اهلها . تلك الازدواجية التي تميزت بها الحملة الفرنسية، والتي جعلت من نظرة المؤرخ الجبرتي تمتاز تحتمل التناقضات الكثيرة .

وبرغم ما كتب عن الحملة الفرنسية الا ان الحدث في حد ذاته مازال يثير اشكاليات كثيرة، متعددة و متجددة، وثمة سمة اخرى تُطّبع بها تلك الغزوة الاستعمارية، وهي ان الافكار و النظريات التي انتجت في تفسيرها، تفوق، في واقع الامر، ماتم اختباره ودراسته على مستوى الوقائع التاريخية المشكلة لمضمون الحدث ككل، واذا كان ذلك يتسبب في خلق صعوبات جمة لكل من يتصدى لدراسة الحملة الفرنسية ويتحرى عدم الانسياق وراء تلك الافكار و الاطر النظرية، الا انه يجب الاعتراف بان الانتاج الفكري و النظري قد أثر بشكل كبير على تفسير الحملة و ما تبعها.

ان المجال يظل باستمرار مفتوحا للعديد من الدراسات، لاسيما وان الارشيفات الفرنسية تحظى بدرجة كبيرة من الثراء في المعلومات التي ربما لم تتوافر، بهذا الزخم غير العادي لغيره من الاحداث المناظرة له، فضلا عن الببليوجرافيا المطولة التي ترصد اكثر من ٣٦٣ شهادة تاريخية للمشاركين من الضباط و الجنود وحتى المدنيين الذين شاركوا في الاحداث او اولئك الذين كانوا شهودا عليها، ان فحص هذه الاصول الوثائقية والمصادر المتعددة باستخدام ادوات منهجية ومعرفية ككل دون القفز الى الاستنتاجات-انما يسمح باستكشاف زوايا جديدة في الصورة التي تم تكوينها عن الحملة حتى لو ادى ذلك الى نقد العديد من النتائج الراهنة التي تحظى منذ فترة بعيدة بالأهمية و الاعتراف.

و الحقيقة، ان الجانب الاكثر اهمية لفهم الحملة الفرنسية، لا ينبع من الاثار الوثائقية للحملة الفرنسية، فوجهة النظر الفرنسية معروفة نتيجة لذلك الزخم الوثائقي رغم تعدد التفسيرات، ولكن وجهة النظر الاكثر اهمية بالنسبة لنا، هي الوثائق التي رصدت الحملة الفرنسية و التي تمثلت بكتاب عجائب الاثار للجبرتي، و الحال ان شخصيته وهو شاهد مباشر و فاعل في الاحداث، قد جعلت من كتابه المصدر الذي لا بديل له [والذي يكاد يكون الوحيد غالبا في واقع الامر] للتعرف على الجوانب العملية للحملة.

وقد اعتمدنا منهجا اكثر عمقا لفهم النصوص التي تركها الجبرتي، بدءا بشخصية الجبرتي و تكوينه الفكري و الاجتماعي، وارتباط الموروث الديني و الاجتماعي في تكوين الرؤى و صياغة شخصية الاخر من منظوره باستناده الى تراكمية معرفية واثر ذلك في دمج التحليلات النقدية التي اخرجت الفرنسيين و المصريين على حد سواء في كتابه .

لقد كنا على مقربة جد بالغة من النص، متعاملين مع النص بتشريحه وتحليله وفق الأحداث ووفق ارتباطه بمراحل تاريخية سابقة، فغالبا ما وضع الجبرتي نصوصه بطريقة اختلفت كليا عمن سبقه، فهو يضع نصا يريد منه التدليل على الكثير من الاحداث مستخدما طريقة تجعل من النص متشعبا رغم بساطة بنيته .

كما حاولنا اثبات رؤى الجبرتي و تصوراته من خلال ربطنا النص بالقوى المسيطرة في وقت كتابة النص لاسيما بعد ان استطعنا ان نثبت الفترة التي كتب بها الجبرتي عجائبه، فآراءه واثبات تاريخها اقترن بتصوراته وطريقة طرحه للحدث تأييدا كان ام مضادا

ان الجبرتي مثل رؤية خاصة في عملية الاستغراب و النظرة الى الاخر، فتجاوز النظر الى المحتلين على انهم محتلين، رغم انه لم ينسى ذلك، ولكن في الوقت ذاته استطاع ان يكون رؤيته عن الفرنسيين بطريقة جد حيادية و منصفة، وكان الجبرتي يعقد المقارنات و المقاربات الذهنية بين الفرنسيين و بين ما قد عاشه من انظمة، وهي نظام المماليك و

العثمانيون، الذين اعتبرهم بعيدين جدا عن العدل و الحرية التي كان ينشدها الجبرتي، ولقد امتلك الجبرتي عقلية متفتحة و متقدة في عملية رصده للفرنسيين و العثمانيين على حد سواء .

وقد استغرق الامر منا الرحلة الى مصر، الى البلد ذاته الذي جرت فيه احداث الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، بحثا عن المصادر و المراجع الاصيلة، في القاهرة و الاسكندرية، متنقلا بين المكتبات و الجامعات المصرية و مؤسسات حفظ الوثائق مثل دار الكتب و الوثائق القومية في القاهرة، و المراكز العلمية مثل مركز البحوث و الدراسات الامريكية، والجامعة الامريكية في القاهرة، بعد الاستعانة بمن ساعدني للموافقة على دخول مراكز بحثية بالقاهرة، مما اتاح لي الدخول و الاطلاع على عدد كبير من المصادر و النصوص الاصلية للمدونات التاريخية عن الحملة الفرنسية، و التي لا تتوفر في العراق . بالإضافة الى الكثير من المصادر و المراجع التي تم شرائها من اسواق الكتب في القاهرة .

وقد كانت اهمية تلك المؤلفات و الوثائق تنبع من الرغبة بالوصول الى النصوص الاصلية و الطبعات الاولى للمؤلفات، وجاء كتاب عجائب الاثار في التراجم و الاخبار و مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس و كتاب مدة الفرنسيس في مصر للجبرتي في المرتبة الاولى، اذ حصلنا على كل الطبعات بالاضافة الى مخطوطات تلك الكتب، اضافة الى النسخة المترجمة الى الانكليزية من كتاب عجائب الاثار وكتاب تاريخ مدة الفرنسيس في مصر .

وقد جاءت الدراسة على ثلاثة فصول و تمهيد سبقها، اذ كان التمهيد يشكل تفسير الجذور الاولى للحملة الفرنسية و اصولها الفكرية التي انبثقت من خلال كتب الرحالة اذ كان ينبغي علينا فهم الرؤية المستبقة للفرنسي حين دخوله مصر، ثم اليات التخيل، وكيف تكونت تلك الصورة و ماهي ابعادها، و ما هي المرجعية الفكرية و المفاهيمية التي استندت عليها محفزات تلك الصورة الذهنية، ثم ماهي الموروثات النصية

التي اعتمدت عليها تلك الاخيلة الفرنسية في تكوين الرؤى والصور عن الاخر الذي ظل مجهولا حتى دخول الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨.

وكان الفصل الاول الذي انقسم الى ثلاثة مباحث **[مصادر الجبرتي عن الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١)" دراسة نقدية في معرفة المؤرخ "]**، اذ بحثنا في الجذور و الخلفيات الفكرية والاجتماعية للمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٥ م) ؛ لفهم شخصيته من حيث هو مؤرخ و رجل دين و مواطن مصري، و من ثم بيئته التي عاشها، من خلال ثلاث محاور، الاول : والده حسن الجبرتي الذي ترك اكبر الاثر، وأسلوب حياته، وثمة جانب اخر -وهو الأهم الاشارة بالبحث في مؤلفاته وتاريخ الكتابة وبواعثها، لان ادراك تاريخ الكتابة عنده ؛ يوضح شخصيته وآرائه، حين نعرف لمن كتب، وكيف كتب و متى كتب، وبالضرورة سنثبت شهاداته ومصادرها وطرائق تجميعها، وبالتالي فان ذلك سيعطي عن الجبرتي صورة ذات ملامح واضحة وأبعاد دقيقة.

و لان الجبرتي اعتبر نقطة تحول في الكتابة التاريخية في مصر في القرن الثامن عشر، لذا وجدنا ان البحث في جزئيات عميقة مكنونة داخل مؤلفاته تبدأ بدراسة اليات البحث عند الجبرتي، ورؤيته للحدث، و قصديته في الكتابة .

و يمثل الفصل الثاني**[الجبرتي و الفرنسيين "دراسة تحليلية في رؤية الجبرتي للفرنسيين في مصر"]** من هذه الدراسة الجانب التطبيقي لرؤى الجبرتي التي كونها عن عصره، استنادا الى تكوينه المعرفي، ليعطي هذا الفصل عرضا مفصلا عن الاندماجات الفكرية و التصورات النقدية التي طرحها الجبرتي في كتابه عجائب الاثار، لذا ثمة اهمية بالغة و ارتباط جد وثيق بين الفصل الاول و الفصل الثاني، من حيث هو تطبيق عملي لنظريات الجبرتي الفكرية والتاريخية و السياسية و الاجتماعية .

ويعطي هذا الفصل الملامح التكوينية التي ثبتها الجبرتي عن الحملة الفرنسية و التي تمثلت في انطباعه الاول و الصدمة الفكرية التي تعرض لها الجبرتي، لا سيما بعد خطاب نابليون الذي وضع الجبرتي في صراع فكري عنيف من نوعه مع ما لديه من موروث

فكري تاريخاني ووضع قيمه ومعرفته على المحك، وتحول خطير للانتقال من عصر الى عصر اخر، اذ خاطب نابليون اماني الجبرتي في منشوره الاول، وهذا ما تضمنه المبحث الاول، الذي ركز على الصدمة الاولى للحملة ومن ثم اعطاء الانطباع عن التحديث الذي شهدته مصر وعجز العقل المصري عن انتاج بنيوية تحديثية اصيلة .

لقد درجنا على توصيف نظام الحكم الفرنسي في مصر، واليات الحكم وخصائصه، اذ اشتمل المبحث الثاني على تبيان النظام الديمقراطي ونقل التجربة الفرنسية الى مصر من خلال النظام الاداري و السياسي لحكم "مصر نابليون".

اما المبحث الثالث فكان لتوضيح الانجازات الفرنسية على كافة الاصعدة في مصر، والتي احدثت التغييرات البنيوية ليس في البناء الحضاري فحسب، بل حتى – فيما بعد – بالفكر المصري الحديث، الذي ظهرت بوادره في فترة محمد علي ومايليها .

ان لكل مرحلة تاريخية اثار تفوق تلك الافعال التي حدثت، وقد يكون بعضها قصير المدى فتزول بزوال المؤثر، وقد تستمر الاثار على المدى البعيد و تلك هي الاكثر خطورة، اذ انها تقوم بفعل التحويل الفكري العقلي داخل اللاوعي و اللاشعور الذي تتركه تلك المؤثرات . فقد مثلت الحملة الفرنسية وعيا تاريخيا بكل المقاييس مخلفة اثارا جد عميقة على المجتمع و البنية العقلية المصرية، ولا نكاد نجافي الحقيقة اذا قلنا بان للحملة الفرنسية على العقل المصري اثارا جد عميقة بلغت اعادة تشكيل بنية العقل المصري و فكره، و انتجت – فيما بعد – رؤى و افكار مثلت ذلك التأثير الفرنسي، في الفن و الادب و التاريخ و حتى الجغرافيا و السينما و المسرح و التعليم، والى اليوم .

لذلك جاء الفصل الثالث[**المصريون في ظل الحملة الفرنسية" دراسة نقدية في وصف الجبرتي للتحولات التاريخية و الفكرية** "] ليظهر تلك المؤثرات و طريقة استيعابها من قبل المصريين، ثم تحولها الى فكر و بنى عقلية داخل المجتمع المصري . فكان المبحث الاول عن الحكم و الادارة الذي مثلته منذ زمن بعيد طبقة العلماء، ليظهر الاثر الذي تركته الحملة الفرنسية في هذه الطبقة التي تزعمت الفكر المصري منذ زمن بعيد .

وكان المبحث الثاني في الاثر الذي تركته الحملة على المجتمع المصري، ذلك الاثر الذي اظهر طبقات اجتماعية جديدة لم تكن تحلم ان تطفو على السطح لولا مجيء الحملة الفرنسية، لاسيما الطبقات الطائفية و الدينية، ثم التراتبية الاجتماعية التي مكنت طبقات لم يكن لها شأن يذكر من ان تكون طبقات ذات اثر ووعي و ادراك لما هي عليه .

و خلص المبحث الثالث الى التباين بين الانظمة الثلاث التي عاشتها مصر بين حكم العثمانيين و المماليك وثم الفرنسيين وعودة العثمانيين اليها، تلك الصيغ التي صيرت من كينونة المجتمع في عدة انحناءات على الرسم البياني للعقل المصري .

وتمثلت الخاتمة بالاستنتاجات التي توصل اليها الباحث من خلال الدراسة، والتي اعطت صورة مكتملة عن الحدث من خلال رؤية المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي و التي اعطت ملامح مكتملة من حيث هي مرتبطة بالواقع المصري انذاك، ومرتبطة برؤية الاخر الذي شكل الى يومنا الحالي عبئا على التكوين الفكري العربي .

تمهيد

نـــابـــليـــون و الجـــبـــرتـــــي

(اثر الموروث النصّي في تكوين صورة الآخر)

ان فهم الصيغة المتكاملة للحدث التاريخي الضخم بتراكماته الفكرية و النصّية، الذي اشتمل على موروثات نصية فائقة الضخامة من حيث تكوين الرؤية عن الاخر، و من اجل رسم صورة ذهنية دقيقة لذلك الحدث، لا بد من بداية تمهيدية، تقاس فيها صورتي الاطراف، طرف اسلامي ينتابه الشك فيما حوله، ويتطلع دائما الى التغيير، ويمتلك قابلية للتحليل المنطقي القائم على اسس نفسية تستند الى موروث فكري عاشه الجبرتي مع نفسه في معترك يتيح له الاستدلال المنطقي، اذ كان شخصية فاعلة في الحدث، وشاهد مباشر، اصبحت كتاباته المصدر الذي لا بديل له، رغم انه يطرح العديد من المشكلات، فهو ارستقراطي قاهري، واسع الثراء، ينتمي الى وسط العلماء ويرتبط عبر اواصر وثيقة بالفئة المملوكية المغلقة على نفسها، والتي كانت تحكم البلد، فهو يمتلك مفهوما جد شخصي لتاريخ بلاده، ورؤية جد خاصة للمجتمع الذي عاشه.

وقبل كل ما مضى، ينبغي علينا فهم الرؤية المستبقة للفرنسي حين دخوله مصر، ثم اليات التخيل، وكيف تكونت تلك الصورة و ماهي ابعادها، وماهي المرجعية الفكرية و المفاهيمية التي استندت عليها محفزات تلك الصورة الذهنية، ثم ماهي الموروثات النصية التي اعتمدت عليها تلك الاخيلة الفرنسية في تكوين الرؤى والصور عن الاخر الذي ظل مجهولا حتى دخول الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨.

ولان الحدث يشتمل على قطبين اولهما الفرنسيين ونابليون، و ثمة قابلية هنا للتفريق بين الفرنسيين من حيث هم شعب، وبين نابليون من حيث هو صيغة للحدث التاريخي، لان نابليون وحده استند على موروث جد نفسي و تخيلي عن الشرق، وانبثقت

منه احلامه ورغباته التي قادته للتطلع الى الشرق، وعقليته التي تكونت بصعوبة و تعقيد لا يضاهى، والقطب الاخر هو الجبرتي و مصر، وتماما ينطبق عليه ما انطبق على نابليون، فكانت له ادواته في تحديد زاوية الرؤية للفرنسي من منطلقاته هو، وكأنه يقارن ويناظر بين تخيلات فكرية عاشها هو، وتلك المخيلة التي تمتع بها، وامتاز بقدرته على وضع الصور ومن ثم تحريرها وتحليلها في مخيلته ليخرج بذهنيته عن الواقع الذي يعيشه بصيغة نصية، و من ثم قدرته على فهم الاحداث ثم انعكاساتها على واقعه، هنا فقط يمكن ان تتحدد الصورة وأبعادها الدقيقة، في ضوء حقيقة ان الجبرتي كان له دافع، مثلما كان لنابليون، وراء الرصد ولم يكن مجرد مدون للحدث، فقد انطلق تدوينه من رؤية فكرية و سياسية خاصة به .

وبدءا من هذا النص الغريب الذي كتبه ليبنتز(1) وقدمه الى لويس الرابع عشر، الذي يقول : " المؤكد ان مصر كانت السبب الذي ادى بالمسيحيين الى فقد الاراضي المقدسة، كما كانت المنقذ للمحمديين(2)، الذين لولا امتلاكهم لها لاختفوا من على وجه الارض". يبين هذا النص مدى تجذر الصورة الذهنية عن الشرق ببعدها الديني، واندماجها

---

(١) ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦ م)، فيلسوف الماني مثالي و موضوعي و أول رئيس لأكاديمية برلين للعلوم، واحد مبتكري حساب التفاضل، كان جيولوجيا و بيولوجيا و مؤرخا وهو في تفسيره للواقع سعى الى توحيد المبدأ الالي و نظرية الذرات الروحية "المونادّ" التي عرضها في كتابه "علم الذرات الروحية" و هو مؤسس الجدل المثالي الالماني، وقد وصل من خلال اللاهوت الى تقرير الرابطة التي لاتنفصم بين المادة و الحركة، ولعل من ابرز كتبه كتابه المعروف بعنوان "مقالات جديدة في الفهم الانساني" . سترومبرج، رونالد، تاريخ الفكر الاوربي الحديث ١٦٠١-١٩٧٧م، ترجمة : احمد الشيباني، ط٣، دار القارىء العربي، (القاهرة : ١٩٩٤)، ص ٧٥٥.

(٢) ينسب المسيحيون في فترة العصور الوسطى و مابعدها اتباع النبي محمد (ﷺ) الى اسمه، و اعتقد بعض المسيحيين أيضا أن المسلمين يعبدون محمدا كما عبد المسيحيون المسيح. وهذا ما سبب انتشار اسم محمديين بدل مسلمين في الغرب ولا يذكرونهم بالمسلمين، استنادا الى وجهة نظرهم التي رسموها عن الاسلام ونبيه، و الاجدر قول (المسلمين)، لان الاسلام لا ينسب الى الشخوص، بل هو دين الله سبحانه.

اندماجا كليا في البعد الديني، لدرجة تفسير كل ما هو اسلامي بـ (محمدي)، والحقيقة ان عملية التفريق تلك، جاءت نتيجة سوء الفهم الذي تولد عن عدم المعرفة بالشرق جيدا، وتكوين الاساطير والصور الخرافية عن الشرق وعن صعوبة اقتحامه لان فيه الوحوش التي لاتقهر، ومرد ذلك كله الى الكينونة الغربية في عدم معرفة الشرق، لكن في الوقت نفسه، يقدم ليبنتز صورة اكثر وضوحا وقسوة، اذ يقترح على الملك لويس الرابع عشر غزو مصر، ويقول " هذا هو اضخم مشروع يمكن تصوره و الاكثر سهولة في تنفيذه، وان مصر من بين جميع بقاع العالم هي الافضل موقعا من اجل السيطرة على الدنيا و على البحار"[٣].

كانت فرنسا هي البلد الوحيد الذي اقام اعتبارا من عام ١٥٣٥ م علاقات مع سليمان القانوني[٤]، بينما كانت الامبراطورية العثمانية لاتزال تثير رعب القوى المسيحية الاخرى، ومنذ ابرام معاهدة الامتيازات الاجنبية [٥] استعادت المعادلة (الغرب / الاسلام

(3) Stoddart , T.L. , "An Account Of the " Consilium Written By Leibnitz : Under The Auspices Of the Elector of Mayenc and Presented to Louis XIV " Foreign and Commonwealth office collection , University Of Manchester (England : 1850) , P.6.

(٤) سليمان القانوني (١٤٩٥-١٥٦٦م)سليمان بن سليم الأول عاشر سلاطين آل عثمان، تولى العرش إثر وفاة والده سليم الأول عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، وكان عمره آنذاك ٢٦ سنة، وقد امتدت مدة حكمه ٤٦ سنة، والدته يهودية تدعى أولغا Hulga ، ولقبها سليم حفصة، زوّجته والدته من الفتاة اليهودية البولونية روكسلانه، وبعدما انجبت له ولداً سماها "خُرّمْ. كلو، اندريه، سليمان القانوني، ترجمة : البشير بن سلامة، ط١، دار الجيل، (بيروت:١٩٩١)، ص ١٤.

(٥) كانت الامتيازات الأجنبية Lés capitulations تعني من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر النظام القانوني والتجاري والاقتصادي والدولي الذي كان نافذاً في السلطنة العثمانية في عهد انحطاطها وتخلفها، وقويت فيه شوكة الدول الأجنبية ورعاياها في جميع أرجاء السلطنة العثمانية. أمّا قبل

/ مصر) اهميتها مرة اخرى، كما لو كانت فرنسا -في رغبتها لنسيان ذكريات القديس لويس [٦] المؤلمة- قد ارادت اقامة تبادلات تجارية ضخمة مع مصر، ولما كان مفتاح القدس

ذلك فقد كانت الامتيازات الأجنبية وجهاً من وجوه التسامح الديني والتعايش الطائفي اللذين كانا يقضيان باحترام المعتقدات والشعائر الدينية لغير المسلمين المقيمين في ديار السلطنة العثمانية.إن معاهدة الصداقة المعقودة عام ١٥٣٥ بين الباب العالي La Sublime Porte وفرنسة كانت أول ما سُميَ بالامتيازات الأجنبية في عهد السلطنة العثمانية. وكانت تتألف من ١٧ مادة منها ما يتعلق بالإقامة ومنها ما يتعلق بالتجارة ومنها ما يتعلق بممارسة الشعائر الدينية والمعتقدات المسيحية. وتضيف تلك المصادر أن الدول الأجنبية الأخرى بادرت إلى عقد معاهداتها مع الباب العالي وذلك على التفصيل التالي: إنكلترة عام ١٥٨٣، هولندة عام ١٦١٣، النمسة عام ١٧١٨، السويد عام ١٧٣٧، مملكة الصقليين عام ١٧٤٠، توسكانة عام ١٧٤٧، الدنمارك عام ١٧٥٦، بروسية عام ١٧٦١، إسبانية عام ١٧٨٢، روسية عام ١٧٨٣، الولايات المتحدة عام ١٨٣٠، وبلجيكة عام ١٨٣٨ وأخيراً اليونان عام ١٨٥٥. وقيل إن جمهورية البندقية سبقت فرنسة في عقد معاهدتها مع الباب العالي عام ١٤٥٥ وإنها كانت معاهدة نموذجية في سلسلة تلك الامتيازات التي نصت على منح الأجانب حريات مختلفة. الكيالي، عبد الوهاب، موسوعة السياسة، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، (بيروت : ١٩٧٩)، ج ١/ ص ٣٠٩-٣١٠.

(٦) لويس التاسع (Louis IX) أو لويس القديس (Saint Louis) هو ملك فرنسا(١٢٢٦-١٢٧٠م)وابن لويس الثامن.وُضع أثناء فترة ولايته الأولى (١٢٢٦-١٢٣٦ م) تحت وصاية والدته بلانش من قشتالة(Blanche de Castille) ، فقامت بالقضاء على ثورة كبار أصحاب الأراضي والمنضوين تحت لواء مملكة فرنسا، ثم أنهت الحروب الدينية ضد الألبيين - (albigeois) جماعة من الغلاة الدينيين، نسبة إلى مدينة ألبي في جنوب فرنسا - عندما وقعت اتفاقية باريس(١٢٣٤م) وأخيرا زوجت ابنها من مارغريت دو بروفانس.(Marguerite de Provence) أستلم لويس التاسع مقاليد الحكم بعد أن بلغ سن الرشد، فقام بهزيمة أحد الخارجين عليه وهو كونت لامارش (comte de la Marche)في موقعتين (١٢٤٢ م)، رغم أستعانة الأخير بالإنجليز في تمرده، وأنتهت هذه المواجهات بتوقيع معاهدة باريس عام ١٢٥٩ م= = والتي ضمن الملك بموجبها عدة مناطق في الشمال :نورمنديا، أنجو، مين، وبواتو.قام بعدها بقيادة الحملة الصليبية عام ١٢٤٩ م، حتى يحرر بيت المقدس من أيدي سلاطين مصر، كانت وجهته الأولى دمياط في مصر، إلا أنه هزم ثم أسر في أولى مواجهاته في المنصورة عام ١٢٥٠ م بعد أن افتدى نفسه من الأسر، استقر في الشام لمدة أربع سنوات ١٢٥٠-١٢٥٤

موجود منذ فترة قصيرة في القاهرة، فقد اصبحت الاسكندرية وكالة تجارية اجنبية انبأت عن العمليات التجارية الكبرى المستقبلية، وبعد عصر الحجاج بدأ عصر القناصل و معهم مشروعات غزو جديدة، وسريعا ما تم الوكالات التجارية الفرنسية في الاسكندرية و رشيد، وتدريجيا التفت الجاليات الغربية الصغيرة العدد حول فرنسا في البداية ثم فتحت القنصليات الخاصة بها بعد ذلك، وتمثل الدور الرئيسي لهذه القنصليات في حماية رعاياها والحفاظ على تجارتهم، وكان من البديهي ان يتوافر في العاملين بها صفات التجار قبل خضوعهم للقواعد والتقاليد الدبلوماسية التي تحدهم في دور القناصل(٧).

ومصر مركز القارة القديمة(افريقيا)، ولا يقدم هذا البلد سوى الذكريات العظيمة، فهي ارض الفنون و المعارف، وموطيء لاقدام عمالقة الفكر والفلسفة و السياسة، وصروحها الحضارية قد شيدت في زمن كانت فيه اوربا تخوض حروبا بربرية، في حين كانت مصر تتمتع -لزمن طويل- بالسيادة التجارية فاصبحت محط انظار واهتمام الامراء العظام الذين يتحكمون بمصائر الامم، ولم يحدث مرة ان امة من الامم حشدت لنفسها قوة

م، ليعود بعدها إلى فرنسا حيث قام بإعادة تنظيم أجهزة الدولة ووطد دعائم السلطة الملكية، كما أرسى قواعد أولى المؤسسات البرلمانية.

ديورانت، ول، قصة الحضارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:٢٠٠١)، المجلد الثامن، الجزء ١٥، ص ٣٨٧.

(٧) ذهني، الهام محمود علي، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر و السابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩١)، ص ٣٠ ؛ هريدي، صلاح احمد، الجاليات الاوربية في الاسكندرية في العصر العثماني دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية ٩٢٣-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م، (الاسكندرية : ١٩٨٨)، ص ١٥ ؛ ريمون، اندريه، الحرفيون و التجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة : احمد ابراهيم و باتسي جمال الدين، ط١، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٥)، ج٢/ ص٦٧٣.

ذات شأو في الغرب او في اسيا، دون ان تقودها هذه القوة باتجاه مصر، التي اعتبرتها هذه القوى بوجه من الوجوه نصيبها الطبيعي (٨).

و لاجل فهم الموروث النصي الذي نتج عن المشاهدات العينية التي تركت – فيما بعد – اثرا واضحا في تكّون الصورة في الاخيلة الفرنسية، تلك الموروثات التي ظلت و ما تزال صورة نمطية–رغم الاندماج الحضاري– يشوبها الكثير من الغموض، لا سيما تلك التي كانت تنطلق من ايدولوجيا مستبقة تنبعث منها جذور العلاقات بين كل ماهو مسلم و مسيحي، ومن اجل تجاوز هذا الصراع القديم، سنتعامل معه من حيث هو موروث تاريخي نصي، ثم اثره على تصورات الفرنسيين تجاه مصر.

شهد القرن السادس عشر اتصالات اوربية جديدة بالشرق، بعد القطيعة التي حصلت اثر انتهاء الحروب الصليبية، في محاولة لدراسته واستكناه بواطنه، وكانت اولى تلك المحاولات هي المطبعة العربية التي امر البابا جوليوس الثاني بتأسيسها في ايطاليا، ونشرت اول كتاب باللغة العربية عام ١٥١٤م، وفي القرن ذاته ظهرت اولى الكتابات الهامة عن مصر باللغة الفرنسية سجلها الرحالة الفرنسيون الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة، وتم تداول هذه الكتابات من قصر الى قصر، وبقي البعض منها مخطوطا حتى تم طبعه، و تمثل هذه الكتابات وثائق تاريخية مهمة لاثرها في تكون الصورة النمطية عن الشرق، وقد اعتبر الفرنسيون ان اكتشاف مصر و الشرق مغامرة محببة اليهم، لان الشرق كان بعيدا عنهم بعد النجوم كما صورته بعض الكتابات الاوربية (٩).

---

(8) Fourier , Joseph , Perface Historique ,Description de L' Egypte , Imprimer Imperial , (Paris : 1809) , Vol.1.P.1.

(٩) عبد الكريم، احمد عزت، دراسات في تاريخ العرب الحديث، (القاهرة : ١٩٧٠)، ص ١٥ ؛ ذهني، مصر، ص ١٥ ؛

Corre , Jean Marle , Voyagurs Et Ecrivains Francaisen Egypte , (Le Cairo:1922) , P.5

وتميزت الرحلات الاستكشافية للرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن السادس عشر، بانها كانت تظم في معظمها رجال الدين الذين حرصوا عل تأدية فريضة الحج الى بلاد الشام(القدس)، فضلا عن زيارة الاماكن المقدسة المسيحية في مصر. يضاف الى ذلك انهم قد كلفوا بمهام سياسية، كنقل الرسائل من القادة الاوربيون الى الدولة العثمانية، او التجسس او غيرها، وكان البعض منهم عالما طبيعيا والجغرافي والشاعر و الاديب، وقد زار هؤلاء مصر ابتداء من عهد لويس الثاني عشر حتى هنري الثالث ورحلاتهم جميعا تمت بعد ان اصبحت مصر ولاية عثمانية عام ١٥١٧م (١٠).

و في عام ١٧٦٩ م، وهو العام الذي ولد فيه نابليون بونابرت، حدث تحول وانتقال من الشعور بالتهديد التركي على الغرب المسيحي الذي يرجع الى ثلاثة قرون، الى ولع بحضارة الاسلام، وظهر الاهتمام بشخصية النبي (ﷺ)، فدفع فولتير (١١) كل مفكري عصره في هذا الامر بدورهم.

وقد تحولت صورة النبي(ﷺ) تحولا كبيرا بعد دراسة المستشرقين لها وتفسيرها وتعميمها، فلم يعد بعد هذا((الافاق))و((الكذاب))(١٢)، الذي وصفه منظروا و مصنفوا

---

(١٠) للتفصيل اكثر حول الرحالة الفرنسيين في مصر، ينظر رجاءا : ذهني، مصر، ص ص ٤٩-٦٧ ؛ Meinardus , Otto F, A , Monks and Monasteries of The Egyptian Deserts , AUC , (Cairo : 1989) P.P.37-52.

(١١) فرانسوا ماري أرويه المعروف باسم (Voltaire) من مواليد ٢١ نوفمبر ١٦٩٤، توفي في ٣٠مايو ١٧٧٨، و هو كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير، ذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة، ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، وكان كاتبا غزير الانتاج، قام بكتابة اعمال في كل الاشكال الادبية، فقد كتب المسرحيات والشعر والروايات والمقالات، والاعمال التاريخية والعلمية و اكثر من عشرين الفا من الخطابات وكذلك اكثر من الفين من الكتب و المنشورات، وكان مدافعا صريحا عن الاصلاح الاجتماعي .طرابيشي، معجم الفلاسفة، ط١،دار الطليعة للطباعة والنشر،(بيروت:١٩٨٧)، ص ٤٣٤ -٤٣٥.

(١٢) بهذه الصفات كان المتعصبون المسيحيون يصفون النبي (ﷺ)، وهي دليل على عدم ادراكهم لشخصية النبي ووعيهم بالاخر،وانما تلك التصورات انبعثت عن ابعاد ذهنية عدائية لدينهم، فنظروا

نخب العصور الوسطى، وانتهت تلك الصورة التي جاء بها، اذا انه تحول من رجل ليس معه الا القليل الى نشر دين عظيم و بناء امبراطورية عظيمة(١٣).

و لا تزال صورة النبي في ذهنية الغرب -رغم تغيرها- تلك الشخصية شخصية الافاق و الكذاب، ولكن بدلا من ان تكون للشخص قليل الذكاء، والغشاش الذي كان يقدم فيما قبل، اصبح الامر يتعلق الان بعقلية راقية، تتبع خطة معدة سلفا، تهدف الى تحول جذري لضمان سيطرة العرب على العالم، ومزج الديانات فيما بينها،انها شخصية مستعدة لبلوغ غاياتها واستخدام كل الوسائل الممكنة، فهو فوق كل القواعد الاخيلة – بوجهة نظرهم– وقد اصبح جذابا وساحرا، ولكن ظل في الوقت ذاته "شيطانيا" والحق ان هذه الاسطورة الغربية عن النبي(ﷺ)، تم بصورة خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتحول الى شبح يلح على الضمير الغربي و العبقرية التي تعلو على كل الإخلاق (١٤).وهناك جانب خاص بالنبي (ﷺ) كان يجذب الانتباه و يثير الاعجاب بمواهبه "كمشرع"

للدين الاسلامي بوصفه ممثلا لسلطة الكنيسة، ولعل توجيههم لتلك الهجمات على الاسلام والنبي، جاء من رغبتهم بطرح الاسلام كنموذج بديل عن تهجمهم على سلطة الكنيسة، ولكن الصورة تختلف عند دانتي اليغيري في (الكوميديا الالهية)، اذ نرى الرسول(ﷺ) وكرمه الله مما وصفوا، "يمزق بيديه صدره من الكوع حتى منتصف جسده لانه صنع دينا مزيفا"، كما يزعمون.اليغيري، دانتي، الكوميديا الالهية، ترجمة : حسن عثمان، دار المعارف، (القاهرة : ١٩٦٩)، ج ٤/ ص ١٧٨.

(13) Laurens , Henry , Les Origines Intellecuetles de L'Expidition D'Egypte , L'Orientlisme Islamisant En France , (Paris : 1987) , P.22.

(14) Laurens , Les Origines , P.25.

(١٥) أقدم معرفة (موثقة) للمسيحيين عن النبي محمد تعود للمصادر البيزنطية التي كتبت بعد مدة وجيزة من وفاة الرسول سنة ٦٣٢ .ففي *تعليمات يعقوب المعمد حديثا* Doctrina Jacobi nuper baptizatiوهو حوار بين يهودي تحول للمسيحية وعدد من اليهود، كتب أحد المشاركين أن شقيقه كتب له قائلا إن نبيا مخادعا ظهر وسط الشرقيين" وكتب آخر عن الرسول "هو مخادع. فهل آتى الأنبياء بسيف وعربة حرب؟... لن تكتشفوا أي شيء حقيقي عن هذا النبي المذكور إلا سفك الدم البشري." ورغم أن محمدا لم يذكر باسمه فوجوده معروف على ما يبدو. ويبدو أيضا أن كلا من اليهود والمسيحيين نظرا إليه

ففي ذلك الوقت كانت الثورة الفرنسية على وشك الاندلاع و كانت اوربا تبحث عن سبل سياسية واجتماعية جديدة للسماح للشعوب الوصول بصورة جماعية الى " العصور الحديثة " واقتبس المفكرون و فلاسفة عصر التنوير من مثل هذه الامثلة التاريخية، وكذلك الحال بالنسبة للعملية التي تثبت ان الشعوب القاهرة تنتهي على الاغلب بان يقهرها من قهرته، مثلما حدث بالنسبة للغزوات الالمانية في اوربا و المغولية في ديار الاسلام(١٦).

و قدر تعلق الامر بالاثر الذي تركته كتابات فولتير (١٧) على نابليون، فرغم ان فولتير قد اشار الى ان العرب الذين لم يريدوا من العلوم سوى القرآن، فقد حاولو اظهار ان عبقريتهم تمتد الى كل المجالات، ولكن نابليون فهمها على استكناه لمخيلة العرب المهيمنين ببناء الحضارة ونشر العلوم و المعارف وجعل ذلك وسيلة للوصول الى الاهداف المرجوة، وبقيادته لجيش من العلماء - فيما بعد - حاول نابليون عبثا تقليد شخصية النبي

نظرة سلبية. وهناك مصادر أخرى معاصرة، مثل كتابات البطريرك سوفرونيوس Sophronius تبين جهلهم بظهور نبي بين العرب أو بدينهم، بل نشير فقط الى أن هجمات العرب (المسلمين) كانت عقابا على ذنوب المسيحيين.وقد سمع الغرب عن النبي وعرفوا عنه منذ وقت ترجمة أعمال يوحنا الدمشقي الجدلية، الذي صاغ عبارة مهينة هي "النبي الكاذب ."وكانت "دائما تقريبا تستخدم لغرض الإهانة ." Kaegi , Walter Emil, Jr., "Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest", Church History, Vol. 38, No. 2 (Jun., 1969), p. 139–149,;

قباني، رنا، اساطير اوربا عن الشرق : لفق تسد، ط٤، دار طلاس، (دمشق:١٩٩٤)، ص ٣٥-٣٩.

(١٦) يوسف، احمد، بونابرت في الشرق الاسلامي (القاهر المقهور)، ترجمة : امل الصبان، ط١،المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٥)، ص ٧٤-٧٥.

(١٧) من ابرز اعمال فولتير : الرسائل الفلسفية ١٧٣٤ م، موت قيصر ١٧٣٤ م، مسرحية (محمد) ١٧٤٢، وبهذه المسرحية صور فولتير النبي محمد (ﷺ) على انه يخطف النساء ويحملهن على دخول الاسلام، كما شكك بلقاءه بجبريل عليه السلام، لكنه في الوقت ذاته طرح شخصيته بشكل مغاير عما كانت عليه في العصور الوسطى، اذ وضح ان شخصيته شخصية عاقلة ذكية، تهدف الى بناء بنية تحتية للبلاد التي يدخل فيها، وانه اهتم ببناء الحضارة. طرابيشي، معجم، ص ٤٣٦.

محمد (ﷺ)، ولكن الشخصية التي رسمها فولتير، وهنا فان عربي الغزوات الاولى و العرب"الغازين" يتصرفون وكانهم بناة امبراطوريات اوربيون، فبعد الغزو مباشرة تحين مرحلة الاستغلال التي تقوم اساسا على انشاء بنية تحتية للنقل، وان عربي الغزوات الاولى يشبه في سمات كثيرة الاوربي الغازي، وهذا التماثل لا يقتصر فقط على الممارسة العلمية فحسب، بل ايضا على البحث العلمي، تلك هي الطريقة التي فهم فيها نابليون ما كتبه فولتير (١٨).

و في الواقع سيطر مفهوم " الاستبداد المستنير الشرقي " خلال القرن الثامن عشر على كتابات مونتسكيو(١٩) وارائه منذ نشره في عام ١٧٤٨ م لمؤلفه (روح القوانين)، ورغم تلك الكتابات عن محمد(ﷺ) فان كتابات فولتير هي التي اثارت ولع القراء، واثرت عليهم، ومرد ذلك الى ان شهرة المؤلف وتعدد اصداراته هي التي روجّت "الاعمال عن محمد" حتى وان لم تكن مطابقة للصورة الجديدة عن الاسلام ورسوله، وفي الوقع يتحدث فولتير عن الرسول كما لو كان يتحدث عن شخصية ميكافيللية – وهي شخصية نابليون فيما بعد –، وهناك كاتبان لا يقلان اهمية عن فولتير، انطلقا من مفهومه ذلك، وجعلا من "محمد" وديانته قوتهما الضاربة، واكتسبا بفضله شهرة واسعة، هما سافاري Savary، و فولني Volney، ويعكس كلاهما تناقضات صورة فولتير، وقد لعبا دورا حاسما في نقل المساجلة الفلسفية الخالصة نحو تنفيذ مشروع غزو مصر (٢٠).وهكذا فان اعجاب نابليون بمحمد(ﷺ) نشأ اساسا من تأثير كتابات فولتير و فولني وسافاري كما سيمر بنا.

(1 8) Laurens , Les Origines , P.25.

(١٩) Montesquieu مونتسكيو : كاتب اخلاقي و مفكر و فيلسوف فرنسي، ولد في ١٨ كانون الثاني ١٦٨٩، درس القانون وتخرج محاميا عام ١٧٠٨، اهتم بشؤون السياسة و المغامرات الغرامية والأخلاق و علوم المعارف والعادات، وكتب (روح القوانين) الذي صدر عام ١٧٤٨ . طرابيشي، معجم، ص ٦٠١-٦٠٢.

(٢٠) يوسف، بونابرت، ص ٧٦ ؛ ذهني، مصر، ص ٦٣ ؛ هوبزباوم، اريك، عصر الثورة اوربا ١٧٨٩-١٨٤٨، ترجمة : فايز الصباغ، ط٢، مؤسسة ترجمان، (بيروت : ٢٠٠٨)، ص ١٧٤.

كانت لجميع المشاريع الاستشراقية قبل نابليون خصيصة مميزة هي أنه لم يكن ثمة إلا القليل مما يمكن القيام به مسبقا من أجل نجاح المشروع،فلقد تعلم السابقون ما تعلموه حول الشرق بعد أن وصلوا إليه،وكانوا يجابهون الشرق بأكمله،ولم يستطيعوا إلا بعد زمن،وبعد درجة عالية من الارتجال،أن يشذبوا الشرق إلى إقليم أصغر،لكن نابليون بالمقابل،لم يكن يهدف إلى ما هو أقل من أخذ مصر بأكملها،وكانت تجهيزاته السابقة للحملة ضخمة ومحكمة بصورة لا مثيل لها،،ورغم ذلك،فقد كانت التجهيزات خططية إلى درجة التعصب مبنية على تخطيط متقن وكانت، نصية، اذ اعتمدت على موروث نصي كبير،ويبدو أن أشياء ثلاثة كانت،في بال نابليون وهو يعد العدة في ايطاليا عام ١٧٩٧ لتحركه العسكري التالي.أولا،والى جانب قوة انكلترا التي كانت لاتزال تهدده،لم تترك له انتصاراته العسكرية،التي توجتها معاهدة كامبوفورميو(٢١)، مكانا آخر يتجه إليه لتحقيق مجد آخر عدا الشرق، و فضلا عن هذا فقد كان تاليران (٢٢)،قبل ذلك بوقت قصير قد أشار إلى المزايا التي تجتنى من المستعمرات الجديدة في الظروف الحاضرة.وقد قاده هذا المفهوم،جنبا إلى جنب مع الاحتمال الجذاب لإيقاع الأذى ببريطانيا،باتجاه الشرق،ثانيا،كان

---

(٢١) Traite De Campo Formio معاهدة كامبو فورميو، معاهدة وقعت في ١٨ اكتوبر ١٧٩٧ للصلح بين نابليون بونابرت و الكونت فيليب موبنزل بوصفهم ممثلين عن الجمهورية الفرنسية الاولى و الملكية النمساوية، كانت المعاهدة ختام سلسلة انتصارات حملات نابليون في ايطاليا و انهيار التحالف الاول، ونهاية المرحلة الاولى من الحروب الثورية الفرنسية.جرانت، تمبرلي، أ.ج، هارولد، اوربا في القرنين التاسع عشر و العشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة : بهاء فهمي، ط٦، مؤسسة سجل العرب، (القاهرة : ٢٠٠١)، ص ٣٢.

(٢٢) Talleyrand , Ch.M.De شارل موريس دي تاليران (١٧٥٤-١٨٣٨ م)، سياسي ورجل دولة فرنسي، اصيب بعاهة في قدمه و هو صغير، اصبح قسيسا ولكنه انحرف، انتخب سنة ١٧٩٠ رئيسا للجمعية الوطنية، اجاد خدمة النظم المختلفة، في عام ١٧٩٧ اصبح وزير العلاقات الخارجية، قربه نابليون وانعم عليه بلقب امير، ولكنه وهو يخدم الامبراطور كان يتآمر عليه، ساعد لويس الثامن عشر على تولي الحكم، مثل فرنسا في مؤتمر فيينا، وعند عودة الملكية اصبح سفير فرنسا بلندن (١٨٣٠-١٨٣٤ م)، وهو نموذج تاريخي للذكاء و الانتهازية . الكيالي، موسوعة ج١ / ص٦٧١ .

نابليون قد انجذب إلى الشرق منذ صباه،وتحتوي مخطوطات شبابه،مثلا،على تلخيص قام به لكتاب مارينيي(تاريخ العرب)؛وجلي من كتاباته وأحاديثه انه كان مفعما،بالذكريات والأمجاد التي كانت قد ارتبطت بالاسكندر المقدوني بشكل عام،وبمصر بشكل خاص[٢٣].

ومن ثم فان فكرة فتح مصر من جديد و كأنه اسكندر جديد،قد طرحت نفسها عليه،مدعمة الآن بالفائدة الإضافية المتمثلة في اكتساب مستعمرة إسلامية جديدة على حساب انكلترا.

ثالثا ، اعتبر نابليون مصر مشروعا ممكنا بالضبط لأنه عرف مصر تكتيكيا،واستراتيجيا،وتاريخيا،وكذلك نصّيا،وما يقصد به نصّيا هنا هو كون مصر شيئا قرأ المرء عنه وخبره عبر كتابات ثقات أوربيين محدثين وكلاسيكيين،وموضع الدلالة في هذا كله هو أن مصر بالنسبة لنابليون كانت مشروعا اكتسب وجودا حقيقيا في ذهنه،ثم في تجهيزاته لفتحها،من خلال تجارب تنتمي إلى مملكة الأفكار والأساطير المستنبطة من النصوص،لا من الواقع التجريبي،ولذلك صارت الخطط التي وضعها لمصر الأولى في سلسلة طويلة من المواجهات الأوربية مع الشرق سخّرت فيها معرفة المستشرق الخابرة لأغراض استعمارية بصورة مباشرة،ذلك أنه في اللحظة الحاسمة التي كان فيها على المستشرق أن يقر ما إذا كان ولائه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح،اختار المستشرق الغرب دائما،منذ زمن نابليون وحتى اللحظة الحاضرة،أما فيما يخص نابليون نفسه فإنه رأى الشرق كما كان قد رُمِّز في البدء،أولا في النصوص الكلاسيكية ثم من قبل

---

(٢٣) سعيد، ادوارد، الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء، ترجمة : كمال ابو ديب، ط١، مؤسسة الابحاث العربية، (بيروت : ١٩٨١)، ص ١٠٦ ؛

Thiry , Jean , Bonaparte En Egypte December 1797–24 Aout 1799 , Berger – Lerraut , (Paris :1973) , P.9 ; Strathern , Paul , Napoleon Egypt , A Bontam Book , (New York : 2008) , P.18.

الخبراء الاستشراقيين الذين بدت رؤياهم مبنية على النصوص الكلاسيكية،بديلا مفيدا للمواجهة الفعلية مع الشرق الحقيقي[٢٤].

وإدراج نابليون لعدد كبير من المختصين في حملته المصرية من الشهرة بحيث لا يتطلب تفصيلا،وكانت فكرته أن يؤسس نوعا من سجل حي للمحفوظات عن حملته،في صورة دراسات حول الموضوعات الممكنة،يقوم بها أعضاء معهد مصر الذي أنشأه،غير أن ما قد يكون أقل شهرة هو اعتماء نابليون السابق على الحملة على دراسات كونت دو فولني،وهو رحالة فرنسي نشر كتابه رحلة إلى مصر وسورية في مجلدين عام ١٧٨٧،لقد رأى في فولني عالما مهمته دائما هي أن يسجل الحالة الوجودية للأشياء التي يراها،وكانت آراء فولني في الإسلام بوصفه دينا ونظاما من المؤسسات السياسية عدائية،عداء شرائعيا،ومع ذلك فقد وجد نابليون هذا العمل،وكتاب فولني الآخر((نظرات في الحرب الراهنة للأتراك ١٧٨٨))ذوي أهمية خاصة،فقد كان فولني في الحساب الأخير،فرنسيا حكيما قد عاين الشرق الأدنى بوصفه مكانا يحتمل أن تتحقق الطموحات الفرنسية الاستعمارية فيه،وكان ما أفاده نابليون من عمل فولني هو تعداد العقبات التي لابد أن تواجهها أي حملة فرنسية في الشرق،في سلم تصاعدي تبعا لدرجة الصعوبة[٢٥].

و يشير نابليون صراحة في تأملاته الى فولني حول الحملة المصرية حين كان في جزيرة القديسة هيلانة قائلا: ان فولني رأى ان ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق، وان اية قوة فرنسية لا بد ان تحارب – لذلك – ثلاثة حروب : الاولى ضد انكلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة وهي اكثرها صعوبة، ضد المسلمين، ولقد كان تقدير فولني تقدير داهية متمرس ويصعب جدا ان يخطيء، اذ كان واضحا

(٢٤) سعيد، الاستشراق، ص ١٠٧ ؛ يوسف، بونابرت، ص ٨٨ ؛ سوليه، روبير، مصر ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩٩)، ص ٢٥.

(2 5) Volney , Constantin Francois , Voyage En Egypte Et Syrie , Bossange , (Paris:1821) , Vol.2 , P.241 ;

سعيد، الاستشراق، ص ١١١ ؛ يوسف، بونابرت، ص ٩٨.

لنابليون كما سيكون لكل من يقرأ فولني، ان رحلته ونظراته كانا نصين ناجعين لاستخدام اي اوربي يود ان يحظى بالنجاح في الشرق، وبكلمات اخرى، فقد شكل عمل فولني دليلا كتابيا لتخفيف حدة الصدمة الانسانية التي ربما شعر بها الاوربي لحظة تجربته المباشرة للشرق .

ويبدو ان اطروحة فولني كانت التالية : اقرأ الكتابين، وبدلا من ان تصاب بحس الخيبة بالشرق، فانك ستشد الشرق اليك [٢٦].

لقد فهم نابليون فولني فهما حرفيا تقريبا، لكن بطريقة تميز بها من حيث الرهافة و اللطافة، ومنذ الظهور الاول لجيش فرنسا على الافق المصري، بذل نابليون ما في وسعه من جهد لاقناع المسلمين بـ(اننا نحن المسلمون الحقيقيون)، ومتسلحا بفريق من المستشرقين، جالسا في سفينة القيادة المسماة (الشرق) واستغل عداء المصريين للمماليك والجاذبية التي حملتها الفكرة الثورية الفرنسية عن تساوي الفرص امام الجميع، ليشن ضد الاسلام حربا فريدة في وقتها و انتقائها، وكان ما ترك اعمق الاثر في نفس الجبرتي، اعتماد نابليون على الباحثين ليديروا اتصالاته مع السكان المحليين، ولقد حاول نابليون في كل وقت ومكان ان يبرهن انه كان يحارب من اجل الاسلام، وقد ترجم ما قاله الى عربية قرآنية، تماما كما كان قواد الجيش الفرنسي قد حثوا جنودهم على تذكر الحساسية الاسلامية دائما[٢٧].

(2 6) Bonaperte , Napoleon , Compagens D'Egypte Et De Syrie 1798–1801 , Memoires Poarserviva L'Histoire D Napoleon , Comou , (Paris:1843),Vol.1 , P.211 ; O'Mara , Barry Edward , Napoleon At St, Helena , Scribner and Welford , (New York : 1889) , Vol.1 , P.17 ; جبور، جان، النظرة الى الاخر في الخطاب الغربي، ط ١، دار النهار، (بيروت : ٢٠٠١)، ص ٦٨.

(2 7) Cole , Juan , Napoleon's Egypt : Invading the Middle East , First Publish , AUC , (Cairo : 2008) , P.16 ; Cherfils , Christian , Bonaparte Et

هكذا يمكن رسم الصورة المصرية (الشرق) في مخيلة نابليون و الفرنسيين بطريقة من الدقة بمكان ترصد التحولات الكبيرة التي شهدتها الصورة النمطية، حتى اصبحت بشكل مستقر في ذهنية نابليون، فبعد ان كان الاسلام وحشا غيبيا في تخيلات الاوربيين لا سيما ما قبل الحروب الصليبية، وتلك الاساطير التي ظهرت حول عدم امكانية هزيمة جيش من المسلمين، نرى الصورة تبدلت وتحولت اثناء الحروب الصليبية وما بعدها، ثم ما فتئت تلك الصورة تتغير لا سيما بعد الحملات النصية التي مثلها الرحالة الذين استكشفوا الشرق عن قرب، وبدأت الصورة تأخذ شكلا اكثر خطورة مما كانت عليه، فبعد ان كانت صورة قائمة على التخلف و الهمجية، اصبحت وبفضل فولتير، قائمة على الذكاء المتقن، ولكنها في الوقت ذاته عدائية، وقد ادرك نابليون من كل ذلك انه ينبغي عليه ان يحسن انشاء المعادلة، فاختار ان يكون(مسلما)على ان يكون عدوا لهم[٢٨].

وفيما يخص نظرة العرب للآخر-الغرب-،فان المسألة تأخذ أبعادا أخرى،فالشرق بوصفه حيزا فكريا وحضاريا،يتقاطع عمليا وفعليا مع الموروث الاستشراقي الغربي،باستثناء مسألة التنصيص التي قام بها الغرب الاستشراقي، وهي الدراسات التي لا تبتعد عن الموروث الحضاري العربي،وربما سنستطيع الوصول إلى طريقة لتصحيح نظرة الغرب عن الشرق،أو على الأقل،معرفة كيف يفكر الآخر الغربي بالأنا العربي،إذا ما فهمنا أولا كيف ننظر نحن(الأنا العربي)إلى (الآخر الغربي)،إن الانوية المرتفعة عند العرب،كانت ومازالت عقبة في طريق التفاهم الحضاري بين الشرق والغرب،وهذا لايعني بالضرورة تواضع الأنا الغربي.

L'Islam D'apres Les Document Francais Arabs , A.Pedone , (Paris : 1914) , P.23 ;

هيرولد، ج. كريستوفر، بونابرت في مصر، ترجمة : فؤاد انـدراوس، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، (القاهرة : ١٩٨٨)، ص ٢١.

(٢٨) زاهر، محمد اسماعيل، ازمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملـة الامريكيـة، كتـب عربيـة، (بيروت : ٢٠٠٦)، ص ٤٨.

إن الميل العربي إلى موضوع الهوية أو الذاتية امتد،بشكل ما في اختيار((قريب))أي في اختيار آخرية تداخلية،إن صح التعبير،على أن اقتران الذات بالآخر يشير إلى جدلية بينهما تناولتها الأدبيات المعروفة في العلوم الاجتماعية والنفسية،وبديهي فأن صورة الآخر ليست هي الآخر تماما،بل هي صورة في المخيال و الخطاب،الصورة ليست الواقع،حتى وان كان الصراع حولها من رهانات الواقع.ولأنها كذلك فهي اختراع،والانا التي لايوجد الآخر بدونها هو اختراع تاريخي،لاحق،لارتباطه باكتشاف الوعي بالذات[٢٩].

على أن اختراع الآخر يرتبط عند البعض بسياق الاكتشافات الغربية وبما وفرته سطوة شروط الخطاب حول الاختلاف الثقافي،ولما كان الخطاب حول الآخر هو خطاب حول الاختلاف،فإن التساؤل فيه ضروري حول الأنا أيضا،ذلك أن هذا الخطاب لا يقيم علاقة بين حدين متقابلين،وإنما علاقة بين آخر وأنا متكلمة عن هذا الآخر[٣٠].

ويصبح المعطى هو انه لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب،ومن دون هذه القاعدة،يضمحل الآخر ويصبح عدما،مندمجا تمام الاندماج،بحيث يصبح الأنا،كل الحملات التي تخاض ضد الآخر ترمي إلى التشبه والتماثل،ولا يوجد آخر من دون الوعي بوجوده،فالعرب لم يصدموا بالآخر الغربي إلا بعد الحملة الفرنسية،ومذ ذاك خرجوا من سباتهم العثماني،فأعجبوا بهذا الآخر ثم تقارنوا به وقارعوه وقاتلوه[٣١].

إن صورة الآخر تحيل على الواقع الذي بنيت فيه:عندما كان المجتمع في قوته وكانت ثقافته في ندها لم يكن الآخر مشكلة،ولا((جحيما))،وعندما فقد المجتمع قوته ومناعته واهتزت ثقافته،فانكمشت،دفاعا عن الذات،أصبح الآخر المهدد لها عدوا لا ترى غيره،وإذا كانت هذه النظرة لا تجد صعوبة في إيجاد ما يفسرها أو يبررها،فأن الصعوبة

(٢٩) لبيب، الطاهر، صورة الاخر، العربي ناظرا و منظورا اليه، ط ١ مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت : ١٩٩٩)، ص ٢٥.

(٣٠) حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر و التوزيع، (القاهرة : ١٩٩١)، ص ٤٢٨.

(٣١) لبيب، صوزة، ص ٢٧.

كبيرة في أن تجد لها أصولا ونماذج في التراث الفكري العربي المتقدم،ومن هذه الوجهة،تحتاج الاخبار فيما خلا النصوص التاريخية حول بنية العقل العربي إلى إعادة نظر جدي،أن النموذجين المتباعدين زمنيا-وكذلك فكريا-وهذا أهم،ينتميان إلى هذا العقل في علاقته بالتاريخ،وهو مايعني-افتراضا-أن مجتمعا عربيا تكون له القوة والمناعة ويكون في التعدد،مع إمكانية التعبير الحر عنه،يمكن أن يفك حصار مخياله وأن يتسع،في ثقافته،مجال الآخرية لغير الغرب وبغير العدو[٣٢].

و من هنا تختلف اليات رصد الصورة الفرنسية في المخيلة العربية (المصرية) اختلافا كبيرا، و قد استندت اوربا على الموروث النصي الذي خلفه الرحالة والمستشرقون بسنين طويلة سبقت الحملة على مصر، ولان العلاقة كانت الى فترة متأخرة قائمة على ما هو اسلامي و مسيحي، وان اوربا مثلت القوى التي حاربت الاسلام، وبالمقابل فان المشرق مثل عدوا للغرب، لهذا نجد ان الوعي الجمعي لكلا الفريقين ظهر في الكتابات الاوربية اكثر عمقا مما كان عليه في الشرق، ولا تعطي الكتابات العربية صورة واضحة عن الغرب، بسبب اثر الوعي الجمعي التراكمي الذي خلفه الموروث الديني على رفض كل ما هو مناقض للاسلام رفضا جماعيا، وان الغرب غالبا عدو يجب محاربته .

ورغم ذلك احتفظ العرب بصورة نمطية عن الغرب تمثلت بـ مصطلح (الفرنجة) واستعملوه بمعنيين، عام يشمل كل سكان اوربا خارج الدولة البيزنطية، ومعنى خاص على اغلب منطقة شمال الاندلس، ويظهر ان الكتّاب المسلمين، كانوا على دراية بمواطن الفرنجة(جزء من فرنسا حاليا) الذي اقاموا فيه، ثم اتسع نفذوهم مع اتساع الامبراطوريتين اللتين اقامهما الفرنجة (الميروفنجية والكارولنجية) واستمرارها زهاء خمسة قرون (٤٨١-٩٨٣م) لكن بقي موطنهم ومركزهم (فرنسا حاليا)، وعرف المسلمون في الشرق الفرنجة اكبر قوة سياسية مهيمنة على وسط و جنوب اوربا، لذا تم تعميم المصطلح على كل

(٣٢) بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر، ط ١٠، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت : ٢٠٠٨)، ص٣٤٤.

الاوربيين تقريبا عدا البيزنطيين، وهو تصوير واقعي كان يقر به حتى الاوربيون انفسهم، لذا عندما غزا الفرنجة بلاد الشام (٤٩٠هـ/١٠٩٩م) لم يكن من الصعب تمييزهم عن الاقوام الاوربية المعروفة مثل الروم و الصقالبة والبلغار، لان عملية التمايز بين الاقوام جغرافيا ظاهرة موجودة في المصادر العربية - الاسلامية(٣٣).

ومن هنا، لم تتعدى صورة الافرنج لدى المؤرخين المسلمين، تعريفا جغرافيا مناطقيا، لاسيما الجبرتي الذي كانت معرفته بالفرنسيين تستند على الموروث التاريخي الاسلامي، فكان كتابه عجائب الاثار زاخرا بمصطلح (الفرنجة، الافرنج)، وقد ورد المصطلح مئات المرات في مواطن مختلفة من كتابه في الفترة التي ارخ لها قبل الحملة الفرنسية، ويتضح من ذلك ان معرفته كانت تقتصر على ما قرأه من موروث تاريخي سابق (٣٤).

لكن الصورة تبدأ بالتغير عند الجبرتي، فيظهر مصطلح الفرنساوية في الفترة القريبة لما قبل الحملة الفرنسية، لا سيما و هو يذكر ان والده (حسن الجبرتي) (٣٥)،كان يدرس عنده طلاب فرنسيون جاءوا اليه سنة (١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م)، في نفس الفترة التي تميزت بالاهتمام الفرنسي بالحصول على المخطوطات العربية، فضلا عن النشاط المتزايد للاستشراق الفرنسي، فقد تأسست في فرنسا مدرسة فتيان اللغة (L'Ecole Des Jeunes De Langues) والتي تخرج منها عدد من اكابر المترجمين الملمين باللغتين

(٣٣) الخوند، مسعود، المعجم التاريخي للبلدان و الدول، ط١، مؤسسة الخدمات الطباعية، (الكلس : ١٩٨٥)، ص٣٢٣ ؛ السمعاني، ابي سعيد عبد الكريم بن منصور، الانساب، دار الكتب العلمية، (بيروت:١٩٩٨)، ج٣/ ص١١٤ ؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، (بيروت : ١٩٧٧)، ج٣/ ٩٧-١٠٠.

(٣٤) الجبرتي، عجائب الاثار في التراجم و الاخبار، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب و الوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠٠٩)، ج١/ ص ٤-١٢ . وللاطلاع على كلمة الفرنجة كما وردت عند الجبرتي، ينظر رجاءا ج١/ ص ص ٥٤-١٢٠.

(٣٥) سيأتي ذكر حسن الجبرتي بالتفصيل في الفصل الاول، المبحث الاول .

العربية و التركية في الفترة (١٧٢١-١٧٦١م)، وكانوا من الذين رافقوا حملة نابليون الى مصر [٣٦].

كما يشار الى ان الجبرتي قد عرّف الفرنسيين بـ (طائفة الفرنسيس) بوصفهم جماعة تنتمي الى حيز مكاني و تاريخي و ديني، ولعل هذا المصطلح اكثر دقة، وبهذا يكون قد خصصهم بعد ان كانوا مفهوماً عاماً، وهذا ما يؤكد ان معرفة الجبرتي بالفرنسيين مرت بمراحل قبل ان يتعرف عليهم بصورة مباشرة، ومر المفهوم لديه بتعاقبية، حتى ولد ذلك لديه صدمة فكرية بعد ان قابلهم شخصيا، وكأنه كان ينتظرهم ليتعرف عليهم اكثر، وتميز الجبرتي -بعد ذلك- بحس الرصد المنظم للفرنسيين، ومهما يكن الحال لا يمكن توصيف صورة الفرنسيين بمخيلة الجبرتي قبل الحملة بشكل دقيق، اولا لقلة الشواهد التاريخية على ذلك، وثانيا وهذا هو الاهم، ان معرفته بهم كانت بمفهوم عام وليس خاص، بحكم الموروث النصي التاريخي الذي استندت اليه مخيلة الجبرتي [٣٧].

و هكذا فان الصورة لم تكتمل عند الجبرتي حتى مجيء الفرنسيين، او لنقل حتى بدء حكم محمد علي، اذ بدأ حينها بمزج التصورات و اخراجها بصيغتها النهائية، فإشاراته إلى عدالة الفرنسيين قد غطت المرحلة الاخيرة من حياته، ويثير اشكالية كبيرة وهي (صيغة الحكم العادل)، وهل يجب ان يقترن الدين بذلك ليكون عدلا، فهؤلاء الفرنسيين يحكمون العقل والحرية ولا يتدينون بدين، مقارنة بالحكم العثماني-الاسلامي الذي ارتبط بالظلم و الاضطهاد و ارتبط معهما بالتخلف[٣٨].

و هنا حاول الجبرتي أن يتعرف على النظام الفرنسي من خلال رؤيته - الدينية،الاجتماعية، السياسية - الثاقبة وترقبه للأحداث،فقد وضع نفسه في

(٣٦) المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، (الكويت : ١٩٩٢)، ص ١٥-٢٤ ؛ الجبرتي، عجائب، ج١ / ص ١٧٥ ؛ ذهني، مصر، ص ٣٠-٣٧ ؛ هريدي، الجالية، ص ١٥-٢٤.

(٣٧) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٢٦.

(٣٨) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ٣٧-٣٨ .

إطار(الاستغراب)،محاولا ذلك من خلال التسامي على الذات والتغاضي عما يفعله المحتل الفرنسي لاكتشافه،والفرق بين الجبرتي والمستشرقين هو أن الآخر الغربي قد جاء إلى الأنا العربي،وهذه ميزة لم تكن لتتوفر للمستشرقين،وهذه بالنسبة لمؤرخ مثل الجبرتي من الصعوبة بمكان انه استطاع أن يكتنه الفرنسيين خارج الإطار العسكري الذي تمثل به الفرنسيون.وبهذا يكون قد مرّ بصراع عنيف من نوعه قبل ان يخرج الفرنسيين وتندمج افعالهم بمخيلته، وهذا ما اضاف ذلك الى الصراع عنصرا جديدا، جعله في حركة دائمة من التساؤل والبحث عن العقل و الحرية، قوام الحكم العادل لدى الجبرتي، وظل ينشد ذلك حتى اغتاله محمد علي في عام ١٨٢١ [٣٩].

وهذا التغير الموضوعي في نظرة و موقف الجبرتي هو نتيجة لازمة نفسية اصابت المؤرخ وهي نتيجة للصدمة في مواجهة الثقافة التي مثلها نابليون في مصر، واظهرت بالتالي الجبرتي كؤرخ ناضج.

(٣٩) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٤٧-٨٧ ؛ حنفي، مقدمة، ص ٦٥٢.

الفصل الاول

مصادر الجبرتي عن الحملة الفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١)

"دراسة نقدية في معرفة المؤرخ"

في هذا الفصل من الدراسة، نبحث في الجذور و الخلفيات الفكرية والاجتماعية للمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٥ م) ؛ لفهم شخصيته من حيث هو مؤرخ و رجل دين و مواطن مصري، و من ثم بيئته التي عاشها، من خلال ثلاث محاور، الاول : والده حسن الجبرتي الذي ترك اكبر الاثر، وأسلوب حياته، وثمة جانب اخر -وهو الأهم الاشارة بالبحث في مؤلفاته وتاريخ الكتابة وبواعثها، لان ادراك تاريخ الكتابة عنده ؛ يوضح شخصيته وآرائه، حين نعرف لمن كتب، وكيف كتب و متى كتب، وبالضرورة سنثبت شهاداته ومصادرها وطرائق تجميعها، وبالتالي فان ذلك سيعطي عن الجبرتي صورة ذات ملامح واضحة وأبعاد دقيقة.

ان الكتابات عن الجبرتي بلغت الكثير على مستوى المؤرخين المصريين و الاوربيين، لكن ما نبحث فيه في هذه الدراسة، هو ليس العودة من حيث بدأوا، بل سنبدأ من حيث انتهوا، وهي اليات البحث عند الجبرتي، ورؤيته للحدث، و قصدية[٤٠] الجبرتي في الكتابة، لان الجبرتي اعتبر نقطة تحول في تاريخ الكتابة في مصر في القرن الثامن عشر.

(٤٠) القصد : الارادة المتوجهة نحو الفعل، ولغة : هو النية، فيقال نوى الشيء أي قصده، والنية استقرار القلب على امر مطلوب، ويحفل الوجوديون و الظواهريون بالقصد و لا تهمهم النية، والقصد عندهم هو اتجاه الذهن نحو موضع معين والتفكير فيه، و القصدية Intentionality من مصطلحات الظاهراتية، أي ان كل فكر هو فكر في شيء و يقصد الى شيء ـ وهو الشعور الفعال الذي يصنع موضوعه في الادراك . الحفني، عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، (القاهرة : ٢٠٠٠)، ص ٦٨٤ .

المبحث الاول

عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٥ م)

"دراسة نقدية في تكوينه المعرفي"

ان عملية فهم كينونة الجبرتي المعرفية، تنطلق من فهم و استيعاب شخصية والده الذي ترك اكبر الاثر في تكوين شخصيته، اذ يمثل والده حلقة الوصل مع اسلاف الجبرتي،وهو المفتاح الذي جعل الجبرتي مؤرخا[٤١]،لاسيما وان الجبرتي يصف اباه بأنه"عمدة الانام و فيلسوف الاسلام"[٤٢]، وربما تكون هذه مبالغة كبيرة من الجبرتي، لكن ما تركه الجبرتي من صفحات طويلة في ادراج المعارف التي كان يتقنها حسن الجبرتي، تجعل الامر مقبولا الى حد ما، فحسن الجبرتي لم يكن مجرد عالم فلكي، بل هو فقيه له سلسلة طويلة من الشيوخ ممن اخذ عنهم العلم، فضلا عن سلسلة من التلاميذ، وعلاقات جد كثيرة و متشعبة، وثمة علاقات متأصلة داخلية و خارجية، وليس ثمة علاقات اقل مما كانت عليه مع المماليك، خاصة منهم علي بك الكبير (١٧٥٥-١٧٧٤ م)، مما حدا به ان يكون عالما ذا سلطة و نفوذ و ثروة[٤٣].

ينحدر حسن الجبرتي الذي ولد في (١١١٠ هـ /١٦٩٨م) من اصول حبشية وتحديدا اقليم الجبرت في الحبشة [٤٤]، حيث تركها جدهم السابع عبد الرحمن الجبرتي

(4 1) Ayalon , David , "The Historian Al-Jabarti and His Background " , BSOAS , Vol.23 , No.2 , 1960 , P.238.

(٤٢) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٨٥.

(٤٣) الجبرتي، عجائب، ج١/ الصفحات ١٧٥-٥٥١ ؛ ج٢/ الصفحات ٦-١٥.

(٤٤) تقع جبرت بالقرب من ميناء زيلع الواقع قرب مدخل البحر الاحمر من الجنوب الشرقي له، وقد حكمت هذه المنطقة من قبل نجاشي الحبشة، ويشار الى ان عائلة الجبرتي كانت متزمتة دينيا، مثلها مثل

متجها الى مكة المكرمة، ثم انتقل الى القاهرة، فاستقر فيها وانظم الى الجامع الازهر، وأسس فيه رواق الجبرتية (٤٥)،في (١ محرم ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م)(٤٦) ،وتزوج و انجب ولدا ورثه على الرواق، وتمتعت عائلة الجبرتي بشجرة مصاهرات كثيرة ومتشعبة مع عوائل

العوائل التي سكنت الجبرت، وان اكثرهم رحلوا الى مكة المكرمة مشيا على الاقدام، وكانوا على المذهب الحنفي في الغالب، وان تسمية (الجبرتي) لفظة مشتقة من اللغة الامهرية الحبشية والتي تعني عبد الله او خادم الله، اطلقها الاحباش على مسلمي بلادهم، و المناطق المجاورة لها عموما . Ullendorfe , E , "Djabart" , EI2 , Vol.II,P.355 ; Trimingham , J.S. , Islam In Ethiopia ,(Oxford:1952) , P. ؛ حسن، ابراهيم محمد، المسلمون في الحبشة في القرن العاشر الهجري، ط١، عين للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية، (القاهرة:٢٠٠٩)، ص ٤٢ ؛ البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين في اسماء المؤلفين و اثار المصنفين، مكتبة المثنى، (بغداد : ١٩٥١)، المجلد الاول / ص ٣٠٠ ؛ دائرة المعارف الاسلامية، تعريب : زكي خورشيد و اخرون، (القاهرة : ١٩٦٩)، المجلد السادس / ص ٢٧٨، مادة : جبرت .

(٤٥)الرواق :يطلق الرواق على سقيفة للدراسة في مسجد أو معبد أو غيرهما كما يطلق على ركن في ندوة أو منظمة للتلاقي والتشاور.كل ذلك من معاني الرواق اللغوية. أما الرواق كمصطلح مساجدي فإنه يعني الأجنحة التي تحاذي جنبات صحن المسجد أي أنها بناء يضاف إلى جوانب المسجد مما يلي صحنه، وعادة يكون ذلك البناء تحت قباب مرفوعة على أعمدة عالية أو أسقف ممتدة، وقد تشمل بهذا العموم أجزاء مما يسمى (بيت الصلاة) أو الحرم الداخلي للمسجد.وقد لجأ المسلمون إلى بناء الرواقات عند إرادة توسعة المساجد وإضافة مساحات زائدة إليها، مع رغبتهم في إيجاد الظروف المناسبة لبعض الخدمات والأنشطة التي يقوم بها المسجد أو يحتضنها.

الفيروز ابادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، (بيروت:١٩٧٠)، ص ٩٨.

(4 6) Mukhtar , Mohamed Haji , "Arabic Sources On Somalia" ASA , Vol.14,1987,P.14 , Lane , Manners and Customs of Modern Egyptian , Pub.1 , Lirresd Franc , (Cairo:1836) , P.218.

ذات شأن سياسي وديني، وكانت في الغالب تابعة لسلطة المماليك(٤٧). بالتالي تحولت جميع الاملاك و الاوقاف التي خلفها الجبرتية الى حسن الجبرتي و اصبح المالك الوحيد دون منازع على تلك الاموال و الثروات الطائلة (٤٨).

ويبدو جليا ان الجد السابع لعائلة الجبرتي حين دخل مصر، والذي تنتهي معرفة المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي به (٤٩)، كان حريصا على ان يصاهر عوائل ذات شأو ليضمن لنفسه منزلة اجتماعية مرموقة، لاسيما وانه اصبح شيخا على رواق الجبرتية، فكانت تلك المصاهرة هي الخطوة الجدية في دخول عائلة الجبرتي الى طبقة النخبة، وتطورت العائلة لاحقا في سلمها الاجتماعي لتتخذ شكلا اكثر قوة و نفوذا بعد المصاهرات مع عوائل تابعة لسلطة المماليك (٥٠).

و ذلك يعني ان حسن الجبرتي قد عاش في بيئة اجتماعية انعكست فيها السلطتين الدينية و الدنيوية، مما جعل سلطة المعرفة ذات اثر اكبر، و امكن لحسن الجبرتي ان يوفر لنفسه مجالا حيويا قادرا على ان يعطيه قدرة على الفعل في المجتمع، مما انعكس بدوره ان يكون متعدد المواهب والصفات، قادرا على ان يتمتع برغد العيش دون الحاجة الى العمل الشاق الذي كان يمارسه معظم المصريين انذاك، وان يكون من نخبة النخبة (٥١).

---

(٤٧) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦٠٤-٦٠٩ . قام الباحث باعداد شجرة عائلة الجبرتي استنادا الى كتاب عجائب الاثار في التراجم و الاخبار . تنظر رجاءا في الملاحق، ص .

(٤٨) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦١٨ ؛ Ayalon , "The Historian" , P.14 .

(٤٩) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦٢٠ .

(٥٠) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦١٩-٦٢٩.

(٥١) لمعرفة تفاصيل اوفى عن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر، يرجى الاطلاع على :

Ayalon , " Notes On The Transformation Of The Mamluk Society In Egypt Under The Ottomans" JESHO , Vol.3 , No.2 , (Aug:1960) , P.P.12-17 ; Holt , P.M. , Studies In The History Of The Near east , First Publish ,

واستطاع حسن الجبرتي ان يدخل في مجال رجال الدولة الذين كانت لهم كلمة ذات اثر بين العلماء وأرباب السلطة من كبار رجال الدولة، لدرجة وصل فيها اهتمامه انه لم يعرف احتياجات اهله وبيته الا بعد موت جدته (٥٢)،و كان يتنقل بين البيوت و المساكن التي ورثها، ويمضي فيها اياما تبعا لحالته النفسية والمزاجية، هذا فضلا عن انه اشتغل بالتجارة، وعمل في السلطة بعد ان تزوج من بنت الامير المملوكي علي اغا باش متفرقة الذي كان يحكم قلاع الطور(٥٣) و السويس(٥٤) و المويلح(٥٥) بالطوري، وبعد موته تقلد حسن الجبرتي منصبه فترة من الزمن، ثم تزوج من بيت مجد وثروة في بولاق، ولهم املاك وعقارات واوقاف، وقد كان حسن الجبرتي مولعا بالنساء، فقد تزوج كثيرا وكانت زوجته

Frank Cass , (London : 1973) , P.P.158-164 ; Tucker , Judith , E. Women In Nineteenth Century Egypt , AUC , (Cairo:1986) , P.P.16-53 ; عيسى، احمد عبد العزيز، الصراع على البيوتات المملوكية في مصر (١٢١٣-١٧٩٨)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الاسكندرية، كلية الاداب، ٢٠٠١، ص ص ٨٩-١٣٧ ؛ الخشاب، اسماعيل بن سعد، اخبار اهل القرن الثاني عشر، تحقيق : عبد العزيز جمال الدين و عماد ابو غازي، العربي للنشر و التوزيع، (القاهرة : ١٩٩٠)، ص ص ٢٣-٥٠ .

(٥٢) الجبرتي، عجائب، ج١/ص ٦١٨ ؛ المجلة التاريخية المصرية، سجل مبايعات الباب سنة ١١٦٢ سلسلة ٢٣٩، المادة ٤٧٣، القاهرة، ١٩٦٠/ ١٩٦٢، المجلد ٩-١٠، ص ٧٦ .

(٥٣) الطور أو طور سيناء المصرية هي عاصمة محافظة جنوب سيناء وتقع على بعد ٢٦٥ كيلومتر من نفق الشهيد أحمد حمدي على خليج السويس، من المدن ذات الشهرة التاريخية العظيمة ويوجد بها مناطق حمام موسى ورأس رايه. رمزي، محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد المصريين الى سنة ١٩٤٥، مطبعة دار الكتب، (القاهرة : ١٩٥٥)، ق ٢، ص٢٦٥..

(٥٤)السويس أكبر مدينة مصرية على البحر الأحمر وتقع على الطرف الشمالي لخليج السويس .أُطلق اسمها على قناة السويس التي تربط البحر المتوسط والبحر الأحمر.كانت تسمى قديما القلزم تقع شرق دلتا نهر النيل، غرب خليج السويس، على المدخل الجنوبي لقناة السويس. يحدها شمالاً الإسماعيلية، وجنوباً البحر الأحمر، وشرقاً جنوبي سيناء، وغرباً القاهرة والجيزة. رمزي، القاموس، ق ٢ / ص ١٦٢.

(٥٥) قرية فيها مركز و ميناء على خليج العقبة بمنطقة ظبا في امارة تبوك . الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، دار اليمامة،(الرياض:د.ت)، ق ٣ / ص ١٤٤٢.

تقدم له الكثير من الجواري، ولعل ذلك عائد الى مدى الرفاهية التي كان يعيشها، او لعل زوجته كانت تخشاه كثيرا فتحصل على رضاه بتقديم الجواري له (٥٦).

وذكر المستشرق الفرنسي بريس دافين ان حسن الجبرتي كان يملك الكثير من السراري و الجواري، حتى ان زوجته كان تقدم له عدد من الجواري كتعبير منها على احترامه، و يؤكد ذلك عبد الرحمن الجبرتي ويقول ان والده كانت له ثلاثة مساكن احدها بالقرب من الازهر، والاخر في الابزازية بشاطيء النيل، ومنزل زوجته القديمة تجاه جامع مرزه، وفي كل منزل زوجة و جواري وخدم، فكان يتنقل مع اصحابه وتلامذته، وكان يقتني المماليك و العبيد و الجواري البيض و الحبوش و السود، ومات له من الاولاد ما يقارب الاربعون، ذكورا واناثا ماتوا كلهم دون البلوغ، ولم يعش منهم سوى عبد الرحمن الجبرتي (٥٧).

وطبقا لم ذكرنا، يتبين لنا مدى الرفاهية التي عاشتها طبقة العلماء في مصر، اذ تمتعوا بمكانة اجتماعية تعدت مكانة رجال السلطة، ويدعمهم في ذلك العلاقات مع السلطة التي حرصوا على توطيدها، ليضمنوا بذلك ثبات مكانتهم و تطويرها، ولم يكن هذا الامر من الغرابة بمكان، فثمة مجتمع قائم على مكانة متميزة للعلماء في نفوس عامة المجتمع، ونتيجة لذلك سعت السلطة الى كسب مودة العلماء، خاصة وانهم ظلوا المنبر الدعائي الاول والاخير في المجتمع، كما ان نمو وتزايد عدد العائلات الارستقراطية العلمية داخل المجتمع القاهري ؛ أدى الى تزايد و تراكم الثروة و المكانة الاجتماعية للعديد من العائلات العلمية خاصة في ظل عدم مصادرة السلطة لثرواتهم، فقد كان العلماء محصنين

---

(٥٦) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦١٢ - ٦١٤ .

(٥٧) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٦٢٣ ؛ دافين، بريس، مذكرات بريس دافين (١٨٠٧-١٨٧٩) ـ ترجمة : انور لوقا، (القاهرة : د/ت)، ص ٤٢.

ضد مصادرة اموالهم، مما ادى الى تأسيس طبقة نخبوية ارستقراطية ليس فقط في المجتمع المصري، بل ايضا طبقة داخل طبقة العلماء مثل عائلة الجبرتي(٥٨).

ان ذلك يدفعنا الى الاعتقاد بان عائلة الجبرتي قد حرصت على تنمية الثروة من خلال المصاهرة مع العائلات المشهورة بالمجد والثروة، وكانت هذه المصاهرات منذ جدهم السابع الذي دخل مصر، وبلغ الامر ان عقد زواج احد اسلافه قد "حرر وسطر بالذهب و عليه لوحة مموهة بالذهب" (٥٩)، مما يعني ان هذا الحرص كان احد الاسس التي استندت عليها العائلة في تكوين ثروتها والشهرة، لدعم مكانتهم الاجتماعية وتطويرها وربطها بالسلطة، ويرى الباحث ان ثمة نسبة كبيرة تتحملها طبقة العلماء في تكون الطبقات الاجتماعية، و ازدياد الطبقات بطردية، فيزداد الفقير فقرا، ويزداد الغني غنى، اذ دعم ذلك الحرص من العلماء على الحصول على مكانة مرفهة الى ان يتمتع من هم دونهم بالضرورة بتزايد نمو ثرواتهم، لان العلماء يعطون المبرر في ذلك، لاسيما رجال السلطة وعلمائها (٦٠).

اما عن العلاقات التي كونها حسن الجبرتي، فقد ارتبط بقوة مع المماليك، فضلا عن قوة علاقته بأقرانه من العلماء، وكانت له عنده حظوة و مكانة كبيرة، حتى ان بعضهم وصفه انه صاحب اسرار لشخصيته القوية التي فرض بها احترامه على الاخرين (٦١)، وربطته علاقة مع الوالي العثماني احمد باشا (١٧٤٩-١٧٥١ م)، وبلغ الامر ان

---

(٥٨) حامد، رؤوف عباس، ثقافة النخبة و ثقافة العامة في مصر في العصر العثماني، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (القاهرة : ٢٠٠٨)، ص ١٠١ ؛

Bjorneboe , Lars , In Search Of The True Political Of The "Ulama" , AAthus University Press , (United Kingdom : 2007) , P.23.

(٥٩) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٦٢٣.

(6 0) Bjorneboe , In Search , P.24.

(٦١) امتازت مصر في فترة القرن الثاني عشر بتأثير الخرافات و الاساطير على المجتمع . الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦٢٤.

الاخير لما طلب من حسن الجبرتي الحضور الى مجلسه وامر احدهم بتبليغه، قيل له يجب ان ترسل له مكاتبة بذلك لمكانته العالية، وكان يلتقي به يومين في الاسبوع (٦٢)، ويبدو ان حسن الجبرتي لم يكن مجرد فقيه، فقد حفظ سمعة مصر كمركز للعلم في نظر الوالي احمد باشا،كما كانت لحسن الجبرتي مراسلات مع السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٣ م) (٦٣)، الذي كان له اهتمام خاص في الرياضيات و التنجيم، و ارسل له كتبا من خزانته الخاصة (٦٤)، فضلا عن علاقاته مع كبار رجال الدول في اسطنبول، و ارسل له حكام تونس و الجزائر كتبا من مكتباتهم الخاصة(٦٥) .

و لم تكن علاقته مع المماليك بأقل منها مع العثمانيين، فاعتبر شخصا ذا حظوة لدى العثمانيين، عندما قرر علي بك الكبير(٦٦) تقديم شكوى ضد حاكم سوريا عثمان

(٦٢) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٦٢٤. ؛ شيبوب، خليل، عبد الرحمن الجبرتي، ط٢، دار المعارف، (القاهرة:١٩٥٤)، ص ٢٠.

(٦٣)السلطان مصطفى بن السلطان أحمد الثالث(١٧٥٧-١٧٧٣م) احد السلاطين العثمانيين، تولى الحكم عام ١٧٥٧ . وفى عهده قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية، وفيها انتصرت الدولة العثمانية فى بداية الحرب، ثم لقيت الدولة العثمانية بعض الهزائم، واستولت روسيا على بعض المدن العثمانية. كما قامت روسيا بالتحالف مع علي بك الكبير حاكم مصر ضد الدولة العثمانية، حيث حاربت الدولة العثمانية، وتغلبت عليها عن طريق "محمد بك أبو الدهب". وكذلك شجعت روسيا رعايا الدولة من العثمانيين النصارى على الثورة، فثار نصارى شبه جزيرة" المورة "وساعدهم الأسطول الروسي، ولكنه هزم. قازان، نزار، سلاطين بني عثمان بين قتال الاخوة وفتنة الانكشارية، ط١، دار الفكر اللبناني، (بيروت:١٩٩٢)، ص ٧٩.

(٦٤) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٨٣ ؛ ج٢/ ص٢٥-٣١.

(٦٥) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٨٤ ؛ ج٢ / ص ١٧-١٨.

(٦٦)علي بيك الكبير هو من أعلام التاريخ المصري الحديث الذي يُشاد به لنجاحه في استعادة استقلال مصر من الحكم العثماني لمدة أربعة عشر عاما. وُلد علي بيك في منطقة الكوبان شمال القفقاس عام ١٧٢٧ م،و حضر إلى مصر وأصبح كاشفا (حاكما إداريا) ثم اميرا للحج عام ١٧٥٠ م. أصبح رئيسا لديوان الباشا والي مصر ثُم تولى منصب شيخ البلد عام ١٧٦٣ م وعرف منذ ذلك الوقت بعلي بيك

بك العظم، واستخدام الشكوى كذريعة للهجوم على سوريا، فطلب من حسن الجبرتي ان يحرر رسالة و يرفعها الى الباب العالي لتأييده، لاعتقاده ان حسن الجبرتي سيلقى القبول لدى العثمانيين(٦٧)، فاختار حسن الجبرتي اثنين من اصحابه و هم عبد الرحمن العريشي شيخ رواق الشوام في الازهر، ومحمد افندي البردلي (٦٨).

كما ربطته علاقة متينة مع عثمان بك ذو الفقار المملوكي (١٧٢٩-١٧٧٦ م)، ورافقه الى مكة ثلاث مرات، وكتب له رسالة عن مناسك الحج، وقرأ عليه عدد من المصنفات منها مقامات الحريري(٦٩)، وبلغت شهرة حسن الجبرتي ابعد من ذلك، فكان له طلاب اصبح قسم منهم علماء مشهورين، كما درس عنده عدد من الفرنسيين في عام ١٧٤٦ م، وربما كانت معرفة عبد الرحمن الجبرتي بالفرنسيين بدأت منهم، و ربما كانوا من المستشرقين الذين رافقوا حملة نابليون، او انهم ارسلوا لجمع الاخبار عن مصر كجزء من

الكبير وبعد وفاته عادت مصر الى السلطة العثمانية. أبزاخ،فيصل حبطوش خوت: أعلام الشراكسة، مؤسسة خوست للإعلان، عمان، (عمان : ٢٠٠٧)، ص ١٢-٣٢.

(6 7) Liringston , John , "The Rise Of Shaykh Al-Balad "Ali Bey Al-Kabir m A Study In The Accuracy Of The Chronicle Of Al-Jabarti" , BSOAS , Vol.33 , No.2 , 1970 , P.358 ;.الجبرتي، عجائب، ج٢/ ص٢٥٤

(٦٨) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٢٥٤، ٣٠٥ ؛ ج٢/ ص٨-١٤ ؛ نوار، عبد العزيز سليمان، عبد الرحمن الجبرتي و علماء زمانه، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (القاهرة:١٩٧٦)، ص ٤٠٤.

(٦٩) للتفصيل اكثر، ينظر رجاءا : الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٠١-٣٢٤ ؛ ج٢/ ص٦١٩.

التخطيط المسبق للحملة الفرنسية(٧٠)، كما ان علاقاته تعدت الى اقاربه، فقد كان اثنين من ابناء خاله جلساء لعثمان بك ذو الفقار(٧١) .

و كان حسن الجبرتي يتقن اللغة الفارسية و التركية، حتى اعتقد البعض في زمانه انه تركيا او فارسيا لشدة اتقانه اللغة، وربطته علاقة مع شخص كان والده يهوديا وهو المنشيء الكبير الذي اعتاد على زيارته،ودرس علم الرياضيات و الهندسة و الجبر و الفلك(٧٢)، وكانت له خبرة كبيرة في التقويم وفن الخط والنقش والنحت، وكانت له اثار معمارية عديدة نصبت في الجامع الازهر و جامع الاشرفية (٧٣)،و جامع قوصون(٧٤)، ومشهد الامام الشافعي، وبلغ من كثرة اشتغاله بالنحت ان تعلم خدمه تلك الحرفة(٧٥) .

(٧٠) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٢١٩، ٦١٩ ؛ Al-Sayyid , Afaf Lutfi (Marsot) , "The Political And Economic Foundation Of The "Ulama In 18Th Century " , JESHO , Vol.16 , No.13 , Dec.1973 , P.132.

(٧١) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣١٢ ؛ ج٢/ ص١٨-٢٠ ؛ Livingston m "Ali Bey Al-Kabir And The Jews" , JMWS , Vol.7 , No.2 , May 1971, P.224.

(٧٢) ألف حسن الجبرتي رسالة في علم الفلك بعنوان : "رسالة في الاسطحة" وهي في الاصل مخطوطة محفوظة لدى الباحث متكونة من اربعة صفحات، كما الف رسالة اخرى في علم الفلك محفوظة في المكتبة المركزية، جامعة الموصل، على ميكروفلم تحت رقم ٢٧٦/٤٠٩٦ . الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٩٦ ؛ ج٢/ ص٣١-٣٢ .

(٧٣)جامع الاشرفية، بناه الملك الاشرف برسباي في عام ١٤٢٥م،و هو الموجود في سوق العطارين بالقاهرة بالقرب من الموسكي عند منعطف الغورية . مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٨)، ج٢/ ص١١٠.

(٧٤) بناه خارج باب زويلة الأمير الكبير سيف الدين قوصون الساقي الناصري سنة ٧٣٠هـ- ١٣٣٠م، وافتتحه للصلاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ولم يبق من مسجد قوصون الأصلي سوى الباب الشمالي والعديد من الشبابيك الجصية والزخارف والكتابات التي تسجل تاريخ بناء المسجد واسم المنشئ.وعلى الكتف الأيسر الباب مزولة عليها اسم صانعها احمد الحريري وتاريخ صنعها ١٣٨٣م وقد جدد المسجد واعيد بناء صحنه واروقته سنة ١٨٩٣ في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني، والصحن

كما اشتهر حسن الجبرتي في معرفته المتقنة لموازين القبان، وكان له العديد من الطلاب من بلدان كثيرة في العلم و الحرف، ورغم كل تلك العلوم العقلية التي كان يمارسها فلم تؤثر على حماسه الديني(٧٦)، فقيل عنه "لم نسمع ولم نرَ من توغل في علم الحكمة والفلسفة وزاد ايمانه الا هو" (٧٧)، وكان بودنا ان نسرد قائمة بشيوخه و طلابه، وسنكتفي بذكر الصفحات التي وردت فيها سلسلة الشيوخ و الطلاب (٧٨).

و يبدو فيما يخص علاقته المتينة بالعثمانيين، ان انتمائه للمذهب الحنفي كان له اثر كبير في ذلك، فالدولة العثمانية كانت على المذهب الحنفي، كما انه قد استلم كتابا في الفقه الحنفي كان قد ارسله اليه السلطان مصطفى الثالث، وتعامل معه كشخص بذاته دون رسميات، وبالمقابل فقد سعى حسن الجبرتي ان يقوي علاقته ويحافظ على مكانته لدى العثمانيين و المماليك على حد سواء(٧٩).

الحالي مغطى بقبة من الخشب. وذكر علي مبارك في الخطط أن جزء كبيراً من جامع قوصون أخذ عند فتح شارع محمد علي ويشمل الساقية والمئذنة. وقد وضع علي مبارك خطة تجديد المسجد وإعادة بناء ما تهدم منه عندما كان وزيراً للأوقاف، ولم تتم أعمال التجديد إلا في سنة ١٨٩٣. والمسجد قائم حاليا بشارع محمد علي بالقلعة ويتبع منطقة آثار جنوب القاهرة بقسم الخليفة.عبد الوهاب، حسن : تاريخ المساجد الاثرية في القاهرة،دار الكتب المصرية، (القاهرة:١٩٤٦). ص ١٣٩-١٤٢؛ . مبارك: الخطط ج ٣ ص ٢٥٤ ج ٥ ص ٨٨.

(٧٥) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص ٦٢١.

(76) Ayalon , "The Historian" , P.239 ;

سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية و المعربة، (القاهرة:١٩٢٨)، ج١/ ص٤٦٣.

(٧٧) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٣٩٦.

(٧٨) لمعرفة تفاصيل اوفى عن شيوخ و تلاميذ حسن الجبرتي، يرجى الاطلاع على : الجبرتي، عجائب، ج١/ الصفحات : ١٧٥-٥٥١.

(٧٩) حامد، ثقافة، ص ١١٦ ؛ Cuno , Kenneth M. , The Pasha's Peasants land , Society and Economy in Lower Egypt 1740-1868 , First Publish , AUC , (Cairo:1994) , P.25.

اما عن علم التاريخ، فرغم الدراسات و الاهتمامات العلمية الواسعة، فلا يظهر علم التاريخ بين العلوم التي تلقاها حسن الجبرتي عن شيوخه و لا بين مؤلفاته و رسائله، سوى مكتبة ضخمة كعدد قليل من العلماء، فقد امتلك مكتبة احتوت على كتب و مصنفات في سائر العلوم، وكانت من بينها كتب نادرة(٨٠)، وبهذا يكون حسن الجبرتي قد اختلف عن ابنه عبد الرحمن الجبرتي في مجال الاهتمام بالتاريخ، ويرى الباحث انه ربما كان لاهتمام عبد الرحمن الجبرتي بالتاريخ جاء كنتيجة لعدم اشتغال والده به، ورغبة منه ان يأتي بما لم يأتِ به اباه .

ومهما يكن من امر، فان حسن الجبرتي قد ترك في ابنه عبد الرحمن اكبر الاثر في تكوين شخصيته التاريخية و الاجتماعية، ولكن هنالك بعض الاختلافات بين الشخصيتين من حيث العلاقة مع السلطة، فقد كان عبد الرحمن الجبرتي ناقما على السلطة بمظاهرها و سوء استخدامها، ولكنه في الوقت نفسه كان يمثل طبقة النخبة التي امتازت بسعة و رغد العيش والنقمة على عامة الناس(٨١) .

و الخلاصة مما ورد انفا، ان عبد الرحمن الجبرتي، كان قد حصل على موقع متميز وضعه في قمة الهرم لكتابة التاريخ، اذ عاش في بيئة سمحت له ان يكون شاهدا فاعلا على الاحداث، مما دعا ان يكون كاتبا من زاوية تلقى الضوء الاقوى على الاحداث، لاسيما وان مكانته المتميزة، ومكانة عائلته، قد جعلته يحيط علما بشريحة مهمة من السكان المحليين و الوافدين، وعلاقات والده المتشعبة وفرت له المادة التاريخية عن ارباب السلطة في مصر، وان سعة افق والده، واشتغاله بمواضيع بعيدة عن الدين احيانا، جعلت ثمة جانبا مهما من

---

(٨٠) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٦٢١-٦٢٢.

(٨١) حامد، ثقافة، ص ١٢٩ ؛ Ayalon , "The Historian" , P.240 ; Gran , Peter , Islamic Roots Of The Capitalism Egypt 1760–1840 , First Publish , AUC , (Cairo:1999) , P.39.

تكوين عقلية عبد الرحمن الجبرتي، ووسعت مجال اهتمامه وسعة افقه، مما اغنى و نوع سرده التاريخي(٨٢).

ان الحكمة في ذكر حياة حسن الجبرتي بتفصيل دقيق، كانت ضرورية لفهم جذور عبد الرحمن الجبرتي البيئية و التكوينية على مستوى عائلته و والده بالخصوص، لاننا لم نستطع البدء بدراسة شخصية عبد الرحمن الجبرتي دون توضيح تلك الجذور، حيث نبدأ بعملية تفسير شخصية الجبرتي.

ولد عبد الرحمن الجبرتي في (١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م)، ومات في (١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م) على وجه التقريب، وعلى ذلك فالجبرتي عاش النصف الثاني من القرن الثامن عشر و الربع الاول من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي شهدت انحلال النظام العثماني – المملوكي، و محاولات المماليك التمرد على السلطة العثمانية، وكانت بداية الاضطراب الصراع بين العصبيات المملوكية من اجل الانفراد بالسلطة(٨٣)، ورغم ذلك فان شخصية الجبرتي قد امتازت بالكثير من التناقضات و الاستفهامات (٨٤).

كانت البيئة التي خرج منها الجبرتي، بيئة مقفرة تميزت بتدني الكتابة التاريخية في مصر، وافتقرت الى التدليل و روح النقد و التحليل، وانتشار السجع المفرط و زخارف

(8 2) Ayalon, "The Historian", P.241;

بركات، علي، رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، ط١،الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:١٩٩٧)، ص ١١.

(8 3) Lewis, Bernard, "Some reflections On The Decline Of The Ottoman Empire", SI, 1918 .Vol.IX, P.112;

الزبيدي، محمد حسين، "مذهب الجبرتي في كتابة التاريخ من خلال كتابه عجائب الاثار في التراجم و الاخبار" مجلة المؤرخ العربي، ١٩٧٧، العدد ١ / ص ١٣٤ ؛ عيسى، الصراع، ص ٨٩-١٣٧.

(8 4) Ayalon, "The Historian", P.217.

البلاغة على حساب المعنى و المضمون (٨٥)، وحدث بون شاسع بين فترة المماليك و العثمانيين في الكتابة التاريخية، ومن اجل اظهار هذا التباين في فترة سلطنة المماليك (١٢٥٠-١٥١٧ م) التي امتازت بوفرة مصادرها التاريخية الغنية و الدقيقة و المفصلة الى حد مقبول ؛ لا يمكن مضاهاة مصادرها كما و نوعا بالفترة العثمانية (١٥١٧ - ١٨١١ م) التي امتازت بندرة مصادرها التاريخية المدونة من قبل السكان المحليين المعاصرين، وربما يعود ذلك لتدني المستوى الثقافي و التخلف الذي شهدته كل البلاد التي دخلها العثمانيون تقريبا، فقد كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية، ورغم مظاهر التطور في العاصمة العثمانية الا ان ذلك التطور لم ينعكس على ولاياتها الاخرى، وهذا ما جعل تلك الفترة غامضة في ضوء الحقيقة التي تقول ان اول ٧٠ سنة او اكثر من فترة الحكم العثماني في مصر كانت تفتقر الى المصادر التاريخية وتمتاز بالغموض، فالمختصرات التاريخية لابن ابي السرور البكري و الاسحاقي(٨٦)،لم تحتوي على اكثر من مجرد سرد مختصر للاحداث، اعطت نظرة موجزة عما حدث في مصر في فترة الحكم العثماني، مما جعل اطار المعرفة بمصر في كتابات لاقيمة لها مقابل طبيعة الكتابة التي بدأها الجبرتي، رغم ان عملية انتقال مصر من سلطة المماليك الى شكلها العثماني مجهولة باستثناء السنوات الاولى القليلة (١٥١٧-١٥٢٢ م) التي وصفها ابن اياس (٨٧).

(٨٥) الشلق، احمد زكريا، من الحوليات الى التاريخ العلمي، نهظة الكتابة التاريخية في مصر، ط١، دار الكتب و الوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠١١)، ص ٢٣.

(8 6) Shaw , Stanford J. , "Al-Bakri" , EI2 , Vol.I , P.965 ;

نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العرب المعاصر مصر و العراق، دار النهضة للطباعة و النشر،(بيروت:١٩٧٣)، ص ٣٦-٣٧.

(8 7) Ayalon , Studies , P.277 ; Briner , W.M. , "IBN IYAS" EI2 , Vol.III , P.813-814 ;

ابن اياس، محمد بن احمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، مطبعة لجنة التأليف و النشر، (القاهرة:١٩٦٠)، ج٤/ ص١٢.

و كانت المرحلة المتقدمة قد اصبحت بعد ذلك الانتقال، اذ اصبحت الصورة واضحة نوعا ما عن التاريخ و المجتمع المصري، الذي صورته الاعمال التاريخية التي قام بها سكان مصر المحليين، فضلا عن انواع اخرى مهمة من المصادر، مثل الارشيفات العثمانية، وباهمية اقل الرحالة الاوربيون والتي بمجملها لاتغني عن المصادر التي دونها السكان المحليون (٨٨).

لعل ابرز سبب في ذلك التدني، يكمن في حقيقة ان مصر كانت الى وقت الغزو العثماني مركزا لاكبر و اعظم امبراطورية، ثم تحولت الى مجرد ولاية صغيرة في امبراطورية كبيرة، فضلا عن النقل الجماعي للاعمال التاريخية من القاهرة الى اسطنبول، ولايزال عدد منها هناك، لاسيما وان تلك الاعمال متوفرة بنسخ معدودة، ولايعني ذلك انتقال مؤرخين مصريين الى العاصمة العثمانية، فالكتابة التاريخية من القرن السادس عشر الى بدايات القرن التاسع عشر كانت اغنى جدا مما هي عليه في الكتابة التاريخية المصرية في الفترة ذاتها (٨٩).

و هنا يبرز الجبرتي كمجدد للكتابة التاريخية المصرية، اذ عاش في عصر انتقال و تحول، ليمثل نقلة جديدة، او لنقل تحولا عن ذلك الميراث، وليس فقط الكتابة التاريخية، وانما البنية الفكرية وروح النقد، وبث في الكتابة التاريخية روحا جديدة، ولكن في الوقت نفسه لم تنقطع صلته تماما بذلك الميراث، لكنها ولدت من رحمه وتميزت بالتحديث دون قطيعة مع الماضي، وهنا ياتي دور التاريخ كعنصر للاعتبار و التطوير المستقبلي، وليس لمجرد الاطلاع على سير الغابرين، اذ عمل الجبرتي على اخذ العبرة من ذلك التراث، ثم عملية اسقاطها على واقعه للخروج بنتيجة جديدة واستشراف للحاضر و المستقبل (٩٠).

(8 8) Ayalon , “The Historian” , P.279.

(8 9) Lewis , “Some” , P.117.

(٩٠) الشلق، من الحوليات، ص٢٣.

كان الجبرتي مؤرخا على نحوين : فهو اولا مؤرخ حولي او مسجل للحوادث، يستند على منهج جد مدهش في دقته و اهتمامه بالتفصيلات، وهو كذلك دارس فاحص محلل للاحداث، وواضح ان في شخصية الجبرتي تمازج غريب، فمن شخصيته ماهو ديني يسند الاحداث دوما الى تفسير ديني جبري، وثمة جوانب اخرى من شخصيته تمثلت بالتفاخر و التطلع الحر، ويظهر احيانا باستعلائية وشكية امتاز بها حين كان يدون الاحداث، لا سيما في وصفه للعامة، وكان دوما يبحث عن السبب، ولا يسلم بالحدث دون الاستبصار عن جذور القضية (٩١).

ان في شخصيته ما يظهر تميزه في عصره، فهو ليس مجرد مؤرخ هاو، او سارد ينقل الاخبار دونما تمحيص او نقد وتحليل، وقد قال عنه المستشرق ادوارد وليم لين :"أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي يستحق بشكل خاص ان يذكر ككاتب ممتاز لتاريخ الاحداث التي جرت في مصر منذ بدء القرن الثاني عشر للهجرة " (٩٢)، وقال عنه المستشرق اليهودي ديفيد ايلون :"أنه برز كعملاق بين الاقزام في تاريخ مصر العثمانية، وان مقارنته مع مؤرخي العصر العثماني فيه اجحاف كبير له، لان تاريخه تعدى حدود البلد، وتلك الحقبة، وبلغ ان اصبح مؤرخا للعالم الاسلامي لم يسبق له مثيل في زمانه،وانه المؤرخ الاعظم للعالم العربي في العصر الحديث" (٩٣)، وقال عنه توينبي :"الجبرتي المؤرخ المصري الجليل يوضع بلا شك على قائمة المرشحين المصنفين برتبة امتياز كمؤرخين رائدين في المجتمع المدني الحديث" (٩٤) . وقد نقل عنه هيورث بكثافة في بحوثه عن الادب و التعليم في

---

(٩١) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص٢٢٤ ؛ الشلق، من الحوليات، ص ٢٤ ؛

Poonwala , Ismail K. , "The Evellution Of Al–Gabarti's Historical Thinking As Reflected In Muzhir And 'Aga'ib" , Arabica , Brill , 1968 . T.15 , Fasc. 39 , P.276.

(9 2) Lane , Manners , P.222.

(9 3) Ayalon , "The Historian" , P.218 .

(9 4) Toynbee , A.J. , Civilization On Trial , (New York : 1949) , P.76.

مصر في القرن الثامن عشر (٩٥)،وذكره المستشرق هاملتون جب :أنه عالما يستحق الثناء و التقدير" (٩٦). وبوفاته انتهى التاريخ العثماني وبدأ التدوين لتاريخ مصر بمعزل عن الدولة العثمانية، وبدأت القومية تأخذ اتجاهات جديدة (٩٧).

ولعل شهادات المؤرخين و المستشرقين عنه لم يكن مبالغا فيها، فلطالما وجدنا بين يومياته الافكار التي يظن انها التي يجب ان يعمل بها لصلاح ينشده، وفضائل يبتغيها، وان نقطة الانطلاق النقدي المحكم هي وعي المرء بما هو حقا، فقد عرف الجبرتي نفسه جيدا، وعرف زمانه و اهله باتقان، فالبعد الشخصي عنده كان نتاجا للعملية التاريخية التي اودعت فيه اثارا واضحة، وبالتالي اراد ان يضع النظريات الفكرية موضع التطبيق، من خلال تجاربه الشخصية و الموروث الذي اكتنزه عبر مراحل سابقة، وذلك ما جعل من تكوينه المعرفي معقدا جدا، فالجبرتي لا يظهر واضحا بشكل كبير فيما يكتب، وانما يودع تجربته لمن يفهمها حقا، ذلك التعقيد و التناقض يدعو للاعتقاد بان ما كتبه الجبرتي لم يكن موجها الى عصره، وانما الى الاجيال اللاحقة، اذ يمكن استخراج الكم الهائل من الافكار التي تنطبق على واقعنا الحالي مما كتبه، فقد وضع بين ايدينا نطاقا مفتوحا لفهم التصورات الحقيقة وراء التدهور الذي حل بالعصر الحالي، لا سيما انه لم يكن مجرد مؤرخ، وربما يندرج ضمن قائمة المصلحين الاوائل في العالم العربي بمعزل عن الاصلاح العثماني، فقد

(9 5) Heyworth , Dunnes , "Arabic Literature In Egypt In The Eighteenth Century " , BSOAS , Vol. IX , No.3, 1938 , P.75.

(٩٦) جب، بوون، هاملتون و هارولد، المجتمع الاسلامي و الغرب، ترجمة : احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر، (القاهرة : ١٩٧١)، ج٢/ ص١٥١.

(9 7) Di-Capua , Yova , "Jabarti Of The 20Th Century" The National Epic Of "Abd Al-Rahman Al-Jabarti And Other Egyptian Historians " , IJMES , P.430.

وضع القواعد و الاسس لنظام عادل يتساوى فيه الافراد، ذلك النظام الذي تمثله ثنائية الجبرتي (العدل و الحرية) [٩٨].

ربما يكون ذلك التمازج الفريد في تكوينه المعرفي، وبيئته الفكرية، عائداً الى انه لم يكن مجرد مصري عاش زمن المماليك وعاصر النخبة العلمية، و الارستقراطية، بل كان دوما حين يبحث فيما يكتبه يستنطق التاريخ ويحاكي زمانه استنادا على الوقائع التاريخية، لاسيما انه وضع العلماء كحجر اساس لصلاح او فساد المجتمع، فلم يتأثر بأنه من عائلة نخبوية سلطوية فقد اجتمعت في عائلته المعرفة و السلطة و الإنشاء لكنه ظل على افكاره وتحرره العقلي، حتى وان كان ما يبحث عنه يتعارض و مصلحة السلطة [٩٩].

وجدير بالذكر ان علاقات الجبرتي المتنوعة مع الكثير من الاشخاص من الشام و دول المغرب العربي، فضلا عن المسيحيين، لاسيما الاقباط، قد أسهمت في تنوع ثقافته المعرفية، و اعطت للجبرتي سعة افق وشمولية ودقة في التركيب المعرفي لديه، وشكل ذلك تراكما معرفيا جعله يدرك اهمية العقل في فهم الاحداث، وأكثر ما اثاره حين أرخ للفرنسيين، انهم كانوا يحكمون العقل، رغم انهم لا يتدينون بدين، على عكس العثمانيين و المماليك الذين جعلوا الدين وسيلة لفرض سلطتهم على الشعوب [١٠٠].ويشار الى ان معرفة الجبرتي بالتاريخ الاسلامي كانت محدودة ولم تربطه مع مؤرخين مسلمين مشهورين علاقات، وفي والوقت ذاته كانت لديه علاقات مع القبط، وخاصة احد اشهر القبط

---

(٩٨) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ١١٢-٤٣٠ ؛ العدوي، ابراهيم احمد، الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى و العصر الحديث كما صوره الجبرتي، الجمعية المصرية التاريخية،(القاهرة:١٩٧٤)، ص ٧٤ .

(9 9) Al-Jabarti And Moreh , Shmuel , Aja'b Al-Athar Fi 'Al-taragim Wa Al-Akhbar , Wi.Vol.37,Issue.2 , 1997 , P.235.

(1 0 0) Al-jabarti , 'Aj'ib Al-Athar Fi 'Al-taragim Wa Al-Akhbar , Edited And Translated By: Thomas Phlipp and Moshe Perlman , First Publish , Franz Steiner Vevlag , (Stuttgart :1994) , Vol.III , P.372.

(جرجس الجوهري) الذي ترجم له في كتابه عجائب الاثار وتحدث عنه كثيرا في كتابه،كما انه يذكر الاحباش بصفحات طويلة من كتابه (١٠١).

و ثمة عنصر اخر لا يقل اهمية عما سبق، فقد شهد الجبرتي ثلاثة انظمة (١٠٢)، اتسمت بخصائص و سمات تباينت في واقعها الاجتماع، وفي ظواهرها الاقتصادية و السياسية، وكان لديه متسع من الفضاء الفكري ليعقد المقارنات و المقاربات الذهنية، ويرسم انطباعه و تصوراته النهائية، عن شكل الحكم العادل، وشكل الدولة، و اهمية العقل و الحرية في بناء دول ديمقراطية ذات اسس رصينة، لينعم الناس بامتيازات و حقوق قائمة على اساس العدل و المساواة، وكان معالجا دقيقا يستند على خاصية التحدي و الاستجابة في تسجيله لردود الافعال داخل المجتمع، و اصبح يرصد التدخلات الاجنبية و الدولية وما يترتب عليها من نتائج، ويستشرف مستقبل البلد السياسي، فكانت ذهنيته حافلة بالتحليل و النقد المنطقي و السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي، ولم يحصر نفسه في زوايا وثنايا بيئته (١٠٣).

(1 0 1) Ayalon , "Al-Djabarti" , EI2 , Vol.II , P.356 ;

ريمون، المصريون، ص ٥٧-٥٨ ؛ للمزيد عن الاقباط و جرجس الجوهري ينظر رجاءا : الجبرتي، ج٣/ الصفحات ٢٩-٦٠٦.

(١٠٢) المقصود بها : عهد حكام المماليك فقد عاصر وجودهم من عام ١٧٥٤-١٧٩٨، و من ثم العثمانيون ١٧٩٨-١٨٠١، واخيرا عاش زهاء العقدين من الزمن في فترة محمد علي ١٨٠٥-١٨٢٢.

(١٠٣) على سبيل المثال، ينظر : التحالف البريطاني - العثماني ضد الوجود الفرنسي، الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٢٢٤ ؛ عفيفي، محمد عفيفي عبد الخالق، الاقباط في العصر العثماني ١٥١٧-١٧٩٨، (القاهرة : ١٩٨٤)، ص ٨٩ ؛

Verdery , Richard N. , 'Abd Al-Rahman Al-jabarti As A source For Mohammed Ali Early Years In Egypt 1801-1821 , Master Thesis , Unpublished , Princeton University , 1967 , P.34.

و في اطار المناخ الفكري و الفلسفي الذي كان يسود عصره، نظر الجبرتي الى الظواهر التاريخية بجبرية تحكم الخط العام، تحقق الارادة العليا، ولاشك ان فهمه هذا كان قبل مجيء الحملة الفرنسية، لانه قد استند على الفهم العام لثقافة الازهر الدينية، فضلا عن الفهم المجتمعي الذي كانت تحكمه الاساطير و الخرافات، نتيجة للتدهور العقلي الفلسفي الذي كان سائدا في عصره، لكنه حين يفسر اسباب انهزام جيش المماليك امام الفرنسيين، يحدد في ذلك العوامل العسكرية و التخطيط و الاستعداد للحرب (١٠٤).

و لكن في الوقت ذاته اعاد الجبرتي النظر في تلك الفلسفة نتيجة ما عاصره من مراحل، وصاغ تاريخه استنادا الى ما عايشه من تدهور، وفزع من الانقلاب الحاد الذي نتجت عنه تحولات خطيرة، واختفاء الكثير من المفاهيم السليمة التي كان ينشدها الجبرتي، واصبح الانحلال متغلغلا في المؤسستين الدينية و السياسية، والتي مثلت اهم عناصر الدولة، ففسر ذلك التدهور و الانحلال طبقا لنظريته بتدهور العدل و الحرية، وهو ما تمثل بانهيار العلماء، خلفاء الله في الارض (١٠٥).

و قد يكون هذا عاملا لاتخاذ الجبرتي منهجا في ابراز انحراف العلماء، فقد مثل ذلك الحرص جزءا كبيرا من تفسيره للظاهرة المرتبطة باختلال النظام في عصره نتيجة اختلال العدل لعدم قيام العلماء بدورهم، وهو يرصد في قمة حديثه عن العلماء – كخلفاء– انه كشف عن العوامل التي تؤدي الى انهيار العلماء وهي : حب المال، والجاه، و الرئاسة، والمنصب، والحسد، والحقد، وحدد بذلك اسس الانهيار لدى العلماء، عاكسا فيه ان المجتمع وصل الى (قمة الانحدار) اذ بلغ الهرم من جهتيه مرحلة الانهيار، وقد وصف انحدار المجتمع كنتيجة حتمية لانهيار طبقة العلماء (١٠٦).

(١٠٤) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص١٢ ؛ عبد الغني، مصطفى، الجبرتي و الغرب رؤية حضارية مقارنة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:١٩٩٥)، ص ٧ .

(١٠٥) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص٢١ ؛ الزبيدي، مذهب، ص ١٣٣.

(١٠٦) الجبرتي، ج٣/ ص٣٣ .

وربما يرى الذوق العصري ان الجبرتي مبالغ في تزمته، وان علماء الازهر كانوا علميين وواقعيين تجاه عصرهم، لكن تشدد الجبرتي ليس صفة اخلاقية يحكم بمقتضاها على حفنة من الاشخاص، انما يحكم بها على مسار التاريخ، ولهذا انهار التاريخ بانهيارهم، ذلك ما يدعونا الى القول بأننا يجب ان نعيد تصوراتنا عن العلماء وعن مدى مسؤوليتهم و دورهم في تمكين الخضوع و الاستبداد و التخلف الذي ولد الاستعمار، وعن مدى قابلية الشعوب العربية لان تستعمر من قبل قوى اجنبية، و توضيح السبب الحقيقي وراء عناء تلك الدول الغازية للوصول الى بلداننا، فقد كان العلماء المنبر الدعائي الاول في العالم العربي الاسلامي، و المسؤول الاول عن الشعوب في تنظيمه وتوجيهها نحو التقدم والازدهار، لكن نرى ان الازهر في فترة الحملة الفرنسية، مثل خلاف ذلك، فقد كان علماء الازهر في تحالفهم مع نابليون بصور شتى، قد اعطوا مبررا لان يكون الشعب خاضعا (١٠٧).

(1 0 7) Bjornboe , In Search , P.42 ;

حامد، ثقافة، ص ١٤٩.

المبحث الثاني

دراســــة نقــديــة في مؤلفــات الجبــرتــي

لا يمكن فهم العملية التاريخية التي انبثق منها تفكير الجبرتي السياسي والاجتماعي، الا من خلال معرفة متى وكيف كتب الجبرتي مؤلفاته، ولمن كتبها، لان ذلك سيكشف الحقائق والدوافع في ما ورائية النص، والكشف عن افكاره التي دونها عن الحملة الفرنسية، وعن الفترة المضطربة من تاريخ مصر، ابان حكم محمد علي، وخلاصة رؤيته التاريخية عن تلك الحقبة، وقد تعددت الاراء حول تلك الفترة، وعن الرؤية الحقيقية الكامنة وراء ما كتبه الجبرتي.

وان محاولتنا هنا هي - ليست فقط - الكشف عن المكنونات الفكرية للجبرتي فحسب، بل معرفة الغرب الذي أنشأ قواعده العميقة في الشرق، ليلد لنا الاستعمار بجميع اشكاله، ولنكشف ايضا عن جانب من مسؤولية العرب انفسهم في اعطاء المبررات للاخر الغربي، وعن الرؤية التي بناها العرب عن الغرب، ومدى تأثير وجودهم في تكوين الصورة النمطية عن الغرب، والعكس من ذلك، وعن التحولات التي طرأت على تلك الرؤية والصور المتكررة فيها، وعن الالية التي طرح بها العرب الغرب المحتل، و التحقيق في فرضية ان الاستعمار ليس سيئا كله، وهل حقا الاستعمار كله هكذا، ام ان له جوانب انسانية بشكل ما .

والمسألة ليست مشروعاً سهلاً، فوجهة نظر المحتلين معروفة جيدا بفضل ثراء الارشيفات، وكثرة الشهادات الصادرة عن المشاركين في الحملة، وقياسا الى هذه الوفرة الطاغية، فان وجهة النظر المصرية لم يفصلها سوى عبد الرحمن الجبرتي، خلافا لما كتبه نيقولا الترك الذي قدم وجهة نظر ورؤية خارجية للاحداث، بحكم كونه سوريا ومسيحيا في ان واحد، الذي كلفه الامير بشير زعيم الدروز فأوفده الى مصر لاستقصاء الاخبار عن

الحملة، وبقي فيها ثلاث سنوات، ثم هناك كتاب اخر بعيد تماما عن الحدث، بما كتبه لطف الله بن احمد جحاف، الذي تناول فيه الحملة الفرنسية بوجهة نظر بعيدة كليا عما كتبه الجبرتي، هذا فضلا عن رواية اخرى للحدث، مثلت وجهة النظر العثمانية، وهي مخطوطة ضيا نامة التي كتبها عزت حسن افندي الدارندلي، بتكليف رسمي من الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا، ومما يفقد الكتاب اهميته انه كتب بعد عام ١٨٠١ م، فضلا عن انه اخذ بشكل كبير جدا عن ما كتبه الجبرتي في (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) مما يجعل الكتاب مرة اخرى لا قيمة له امام ما كتبه الجبرتي [١٠٨] .

ان ذلك كله يجعل عمل الجبرتي محتاجاً الى تفسير بعيد النظر، فقد قادته الظروف الى تحرير ثلاث روايات متعاقبة للاحداث التي عاشها، فقد جرى تحرير اولها (تاريخ مدة الفرنسيس بمصر) منذ عام ١٧٩٨، وهو لايتناول غير الاشهر الاولى من تموز الى كانون الاول ١٧٩٨، وكان موجها الى قراء عثمانيين بعد تحرير مصر[١٠٩]، والثاني (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) يغطي مجمل فترة الاحتلال وبما انه قد كتبه في كانون

---

(١٠٨) ريمون، المصريون، ص ٥ ؛

Turc , Nicolas , Chronique D'egypte 1798-1801 , Editee ET Tradyite Par : Gaston Wiet , Imprie De L'Institut Francais D'archeologie Orientale , (Le Caire : 1950) , P.6؛

جحاف، لطف الله بن احمد، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، تحقيق : سيد مصطفى سالم، (القاهرة : ١٩٧٤)، ص ٤٦ ؛ الدراندلي، عزت حسن افندي، الحملة الفرنسية على مصر، مخطوطة ضيا نامة، تحقيق : جمال سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩٩)، ص ٣٦-٣٧.

(١٠٩) الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، تحقيق : ش. موريه، (ليدن : ١٩٧٥)، وتمت ترجمته الى اللغة الانكليزية، Al-Jabarti's Chronicle of the First seven Months of the French Occupation of Egypt , (Tarikh Mudat Al-Faransis Bi-Misr , Edited By : S.Moreh , Brill L (Leden:1975) وهي نسخة وحيدة محفوظة في ليدن و قد حصلنا من مكتبة الجامعة الامريكية في القاهرة .

الاول ١٨٠١ بعد التحرير، واهداه الى الصدر الاعظم يوسف باشا، فقد رمى بالضرورة الى تبرئة الجبرتي واقرانه من تهمة التعاون مع الفرنسيين والتي كان بالامكان توجيهها اليهم[١١٠]. وفي عمله الاخير، (عجائب الاثار في التراجم والاخبار) والذي يغطي مجمل تاريخ مصر من عام ١٥١٧ الى عام ١٨٢١، حيث جرى انجاز المجلد الثالث المكرس للفترة من عام ١٧٩٨ الى عام ١٨٠٦، بعد ذلك ببضع سنوات، في عام ١٨٠٦ يقدم الجبرتي رؤيته النهائية لفترة الاحتلال[١١١].

---

(١١٠) استند الباحث على نسخ عديدة من كتاب مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، و جميع هذه النسخ حصل عليها الباحث بعد جهد و بحث طويلين في مكتبات القاهرة و الاسكندرية بمصر في عام ٢٠١١.، بالإضافة الى مخطوطة الكتاب التي حصلنا عليها،لذا وجب تفصيلها لتوضيح الامر للقارئ لتعدد النسخ والطبعات المستخدمة، وهي كالاتي :

١- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، مخطوطة محفوظة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، برقم : ٥٢٤١٣١ .

٢- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق : حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، ط ١، لجنة البيان العربي، (القاهرة : ١٩٦٩) . في مجلد واحد .

٣- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرزاق عيسى و عماد احمد هلال، ط١، العربي للنشر والتوزيع، (القاهرة : ١٩٩٨) في مجلدين .

٤- مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق : احمد زكي عطية و اخرون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،(القاهرة : ١٩٦١)، في جزئين . =

= ومن اجل تسهيل الامر على القاريء، اعطينا رقما لكل طبعة حسب تسلسلها اعلاه، باستثناء المخطوطة، فقد رقمناها بالحرف (خ) .

(١١١) استند الباحث على نسخ عديدة من عجائب الاثار في التراجم والاخبار، بالاضافة الى مخطوطة الكتاب التي حصل عليها الباحث، وتفصيلها كالأتي :

١- عجائب الاثار في التراجم والاخبار، مخطوطة محفوظة في دار الكتب والوثائق القومية، تحت رقم ٢٢٨٧/ تاريخ، القاهرة .

٢- عجائب الاثار في التراجم والاخبار، الطبعة الاولى للكتاب، (الجزء الثالث) طبع سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م،مطبعة جريدة مصر بالاسكندرية.

وهذه النصوص الثلاثة تنطوي على اختلافات جد مهمة، بحكم اختلاف الجهات الموجهة اليها، وبحكم تقدم رؤى الجبرتي، وخاصة على ضوء الاحداث التي وقعت بعد عام ١٨٠١، ويحتوي كتاب (المدة و المظهر) على انتقادات جد قوية للفرنسيين، بينما يتميزان باعتدال اكبر في التحدث عن العثمانيين، اما في عجائب الاثار، فان الجبرتي يعبر عن وجهة نظر اكثر رصانة في الفرنسيين واكثر انتقادا للعثمانيين، حيث يعكس المؤرخ المظهر الذي المناسب بوصفه شاهدا على ما حدث للاجيال القادمة، فمن نواح كثيرة يبدو الجبرتي يعبر في عجائب الاثار بكل بساطة عما يعتقده، بعد تفكير ناضج، وبعد ان تباعد الى حد ما عن الاحداث، وربما اتخذ لنفسه فرصة ليعتزل فيها عن الناس ليكتب ثمرة تصوراته الفكرية عبر السنوات التي مضت، مثبتا بذلك رؤاه وفكره بكل رصانة وموثوقية(١١٢).

٣- نسخة طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٧هـ، في ٤ اجزاء .

٤- نسخة طبعت بهامش كتاب(الكامل) لابن الاثير، في اثني عشر جزءا، المطبعة الازهرية، (القاهرة : ١٣٠١هـ).

٥- نسخة المطبعة الشرقية، (القاهرة : ١٣٢٢هـ)، اربعة اجزاء .

٦- طبعة دار الجيل، بيروت، (د/ ت).

٧- طبعة محققة، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠٠٩) .

8- English Copy , Edited By: Thomas Philipp and Moshe Perlman , Franz Steiner Verlag ,(Stuttgart : 1994) . Four Volume .

(١١٢) ريمون، المصريون، ص ١٤ ؛

Ayalon , "The Historian" , P.237 ;

ومن ثم يصبح الامر اكثر صعوبة، اذ يتعلق بالرؤية الذاتية لشخصية عميقة و مركبة حول مرحلة ملتبسة من تاريخ بلاده، واذا كانت نخبة العلماء تظهر ظهورا قويا، فإن جمهرة السكان لاتظهر الا من آن لآخر -ككتلة- حين الازمات و غالبا ما يتم الحكم على تدخلها بالقسوة، ونحن نفتقر فيما يتعلق بالاحتلال منظورا اليه من الجانب المصري، الى رواية كان يمكن ان يكتبها انسان اقل ثقافة واقل ثراء بالمال وبالتحيزات(١١٣).

وثمة اراء كثيرة حول التاريخ الحقيقي الذي كتب فيه الجبرتي مؤلفاته، ومن ثم البواعث التي دفعته لدخول حقل التاريخ من بابه الواسع :

الرأي الاول : ان الجبرتي كتب المجلدات الثلاثة الاولى من كتابه عجائب الاثار بشكل نهائي خلال عام ١٨٠٥-١٨٠٦، اما المجلد الرابع وهو المتعلق بحقبة محمد علي، فقد كتبه في الفترة التي غطاها من ١٨٠٦ الى ١٨٢١، وان الجبرتي كانت لديه نية في مواصلة الكتابة حتى بعد المجلد الرابع، ويستشف ذلك من ملاحظته في اخر المجلد الرابع، اذ يشير : " وأما حادثة الاروام التي هي باقية إلى الآن وما وقع منهم من الإفساد وقطع الطريق على المسافرين واستيلائهم على كل ما صادفوه من مراكب المسلمين وخروجهم عن الذمة وعصيانهم وما وقع معهم من الوقائع وما سينتهي حالهم إليه فسيتلى عليك إن شاء الله تعالى بكماله في الجزء الآتي بعد ذلك والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب(١١٤)"،وان كتابه الآخر وهو"مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"قد كتبه في نهاية (١٢١٦هـ/ نهاية ١٨٠١/أو بداية ١٨٠٢م)(١١٥).

Holt , P. M. , "Al–Jabarti's Introduction to the History of the Ottoman Egypt" , BSOAS , vol.25.No.1/3.1962,p.41.

(١١٣) حامد، ثقافة النخبة، ص ٦٤ ؛

Bjorneboe ,In Search , p.96.

(١١٤)الجبرتي،عجائب،٤/ ٤٩٧.

(115) Ayalon , "Al–DJabarti" , P.356 ; Ayalon , "The Historian", p.348 ; Holt , Studies , P.158 ; Moreh , S. , "Reputed Autograph of Abd Al–

أما الرأي الثاني فقد ذهب فيه د.محمد أنيس إلى ابعد من ذلك،فيشير الى إن تفكير الجبرتي في كتابة التاريخ لم يكن من دافع شخصي،وإنما نتيجة لتكليف الشيخ محمد خليل المرادي الحسيني مفتي دمشق(ت ١٢٠٦هـ)(١١٦) ،للشيخ محمد مرتضى الزبيدي(١١٧)، لمساعدته سنة ١٢٠٠هـ بجمع تراجم أعلام المائة الثانية عشر،والذي كلف بدوره تلميذه الجبرتي ليساعده في كتابة في هذا العمل،ومن ثم بدأ الجبرتي كتابته للتاريخ بجمعه لتراجم أعيان القرن الثاني عشر،ولما مات الزبيدي في سنة ١٢٠٥هـ،أرسل الشيخ المرادي مكتوبا للجبرتي لتكليفه مباشرة بتولي جمع التراجم،وكان الجبرتي قبل ذلك قد توقف عن الكتابة لوفاة أستاذه الزبيدي،لكن خطاب المرادي قد أعطاه الدافع لمواصلة الكتابة،ومن ثم فترت همته مرة أخرى لوفاة المرادي،فانقطع عن الكتابة بعد سنة ١٢٠٦هـ، إلى أن عاد إليها بشكل جديد،وهو المذكرات اليومية(١١٨).

Rahman Al-Jabarti and Related problems" , BSOAS , Vol.28 . No. 3 , 1956 . P. 531

(116) Gibb , H. "Al-Muradi". EI2 , Vol. VII . P.602 ;

تنظر ترجمة المرادي رجاءا، الجبرتي، عجائب، ج٢، ص ص ٣٥٤-٣٥٨.

(117) الشيخ مرتضى الحسيني الزبيدي (١٧٣٢-١٧٩١ م) : محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي العراقي، ولد في بلدة بلجرام الهندية وهاجر الى الحجاز وتتلمذ على عدد من علمائها ومشايخها ثم ارتحل الى مصر وهناك ذاع صيته كعالم محدث ومؤلف بارع في علم الحديث والرواية والانساب واللغة . الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٣٠٣-٣٠٨ ؛ شكري، محمد فؤاد، مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، مطبعة الجامعة، (القاهرة : ١٩٥٨)، ج٣/ ص١١٣٥ ؛

Reichmuth , Stefan , "Murtada Az-zbaidi In biographical and autobiographical Accounts Glimpses of Islamic Scholarship in the 18th Century" WI , Vol.39,Issue .1 . (May:1999),P.98 ; Goldcshmidt, Arthur Jr. Biographical Dictionary of Modern Egypt , AUC , (Cairo:2000) , p.233.

(118) Ayalon , "The Historian".P235.

وهنا مرت العملية التاريخية للكتابة عند الجبرتي حسب رأي د. محمد أنيس في أربع مراحل:الأولى انه بدا بكتابة مشاهداته اليومية ومذكراته منذ دخول الفرنسيين مصر أي منذ ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م،وانه كتب تاريخ مصر تحت الاحتلال الفرنسي من(١٢١٣هـ – ١٢١٦هـ)،وهو كتاب (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس)،وأما المرحلة الثانية:جمعه للتراجم التي كان قد كلف بها من قبل أستاذه الزبيدي ومن بعده المرادي،واخرج منها الجزئين الأول والثاني من كتابه عجائب الآثار،ثم عدل في مظهر التقديس واخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار مع إضافة حوادث سنة ١٢١٦هـ و ١٢٢٠هـ[١١٩]، ففي مخطوطة (كتاب مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس)الموجودة في المجمع العلمي العراقي،كتب على صفحة غلافها:وكان الشيخ الجبرتي أحد علماء الديوان الذي نصبوه الفرنسيس في مصر،فهو رجل ماهر في علوم الأدب وعلم الفلك والميقات،فحيثما كان يعاشر علماء الفرنسيس وقت قيامهم خاف على نفسه من بعد ذهابهم وألف هذا الكتاب ليبرى ذمته وليظهر محبته إلى الدولة العالية)[١٢٠].

وهذا ما يؤكد القول الذي يؤيده المستشرق الانكليزي هولت و د.محمد أنيس بان الجبرتي قد جعل كتابته للعجائب بشكل سري، و كتب مظهر التقديس قبل وصول العثمانيين إلى مصر،أي في بدايات المباحثات العثمانية الفرنسية في شأن خروج الفرنسيين من مصر وتسليمها للعثمانيين،أي بدايات (١٢١٦هـ/ ١٨٠١)،ولان الجبرتي قد أدرك ما يمكن أن يفعله العثمانيون به لو أنهم ظفروا به،و جعل من مظهر التقديس غطاء على

---

(١١٩) انيس، محمد، "الجبرتي بين مظهر التقديس و عجائب الاثار" مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٨، الجزء١، (مايو:١٩٥٦)، ص ٦٠-٦٢ ؛ Ayalon , "Al–Djabarti" , P.357.

(١٢٠) الجبرتي، مظهر، (خ)، صفحة الغلاف .

كتابه العجائب،،ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذي يشمل تاريخ مصر من سنة ١٢٢١هـ حتى سنة ١٢٣٦هـ[١٢١].

ونستخلص من الرأيين انفي الذكر أن الجبرتي من جهة لم يكن لديه تفكير تاريخي،وإنما كانت عملية مساعدة انتدبه لها شيخه ومن ثم تحول الانتداب من شيخ شيخه إليه مباشرة،وان هذه العملية حسب رأيهم هي الدافع الحقيقي لدخول الجبرتي إلى مضمار التاريخ،ومن جهة أخرى فأن عملية التأريخ للحملة الفرنسية هي بمثابة مذكرات يومية لا تخرج عن الخواطر التي كان يسجلها الجبرتي،والتي خرج حسب رأيهم منها بكتابه "مظهر التقديس"،وأما كتاب العجائب،فهو تحصيل حاصل إلى نهاية مجلده الثالث،فقد عدل بمظهر التقديس وخرج بالمجلد الثالث من العجائب،ومن ثم بدأ بكتابة أحداث الفترة ١٢٢١-١٢٣٦ هـ.بمعنى آخر أن كتاب العجائب وما تضمنه من أحداث وكتاب مظهر التقديس،لايتعديان الإخبار الصحفي.

و ربما يكون الاوفق الا نسلم بما ورد بعد القراءة المتأنية التي قمنا بها لكتابي الجبرتي(العجائب ومظهر التقديس)،فالكثير من الحوادث التي أرخ لها الجبرتي في العجائب للفرنسيين و بعد الدخول الثاني للعثمانيين تشير بما لايدع مجالا للشك ان مظهر التقديس هو نسخة غايتها فقط صد الاذى عن الجبرتي،و ان عجائب الاثار تمت صياغته مرتين، الاولى حين اخرج منه مظهر التقديس، والثانية بعد ان حكم محمد علي مصر، أي بعد ١٨٠٥.

و اذا كان مظهر التقديس يبدأ من (١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م)،أي من دخول الفرنسيين مصر حتى خروجهم منها ودخول العثمانيين بقيادة الوزير يوسف باشا.فإذا قارناه بالكتاب الثاني وهو عجائب الآثار،نجد أن الكثير من اليوميات التي كتبها

---

(121) Moreh , Reputed , P.537 ; Holt ,Studies , P.159 ;

الجبرتي، مظهر، (خ)، الورقة الاخيرة .

الجبرتي في مظهر التقديس مقتضبة اذ حذف منها عبارات كانت مفصلة تفضيلا دقيقا في العجائب، ويتكون مظهر التقديس من ٦٨٣ يومية تؤرخ للفترة من بداية الاحتلال في المحرم ١٢١٣هـ/ ،وحتى نهاية شعبان ١٢١٦هـ/ وفي نفس هذه الفترة الزمنية دون الجبرتي ٧٧٨ يومية في عجائب الآثار بفارق ٩٥ يومية بين الكتابين.إذ يتكون الجزء الرابع من عجائب الآثار من تاريخ ١٢١٣-١٢٢١هـ،أي أن الأصل هو عجائب الآثار،واليوميات المعدلة أخذت من العجائب وأخرجها بمظهر التقديس.بينما استمر بكتابة عجائب الآثار [١٢٢]. في حين توجد ١٠١ يومية وردت في عجائب الآثار ولم ترد في مظهر التقديس،منها ٥٥ يومية خاصة بمشاغبات الجنود الأتراك ونهبهم الأسواق والمحلات،وكذلك تتناول الغرامات والضرائب التي فرضت بعد عودة العثمانيين ومنها ٤ يوميات خاصة بإنشاءات الفرنسيين وأعمالهم العلمية،ومنها ٦ يوميات ذات صلة بموقف الجبرتي من الفرنسيين أو العثمانيين،ويومية واحدة خاصة بتجنيد الأقباط في الجيش الفرنسي،وباقي اليوميات وعددها ١٦ يومية متنوعة في موضوعات لا علاقة لها بالفرنسيين أو العثمانيين بها،ومنها ١٩ يومية تراجم لأشخاص مختلفين،ويبدو أن الجبرتي لم يرد ذكرهم في مظهر التقديس لان الكتاب ليس لتراجم الأشخاص،وإنما هو كتاب موجه للعثمانيين[١٢٣].فقد حرص الجبرتي في مظهر التقديس على إيصال فكرة إلى العثمانيين بأنه لم يتعاون مع الفرنسيين ولم يرض بوجودهم،وإنما رفضهم،ويظهر ذلك من الشتائم الكثيرة التي وجهها للفرنسيين،وفي الحقيقة أن الجبرتي مع كونه شتم الفرنسيين إلا أن النفس الذي امتاز به في عجائب الاثار ظل موجودا ولكن بصورة مبطنة،لانه لم يستطع تحمل عودة العثمانيين بنظامهم الذي اعتبره غير عادل كنظام الفرنسيين،ويلاحظ بالمقارنة بين مظهر التقديس وعجائب الاثار أن

(122) Holt , Studies , P . 164 ;

انيس، الجبرتي، ص ٦٤.

(123) Ayalon , "The Historian" , P.237 ;

شيبوب، الجبرتي، ص ٦٤ ؛ السروجي، محمد محمود، عجائب الاثار و مظهر التقديس، دراسة مقارنة، ص ٤٦٨.

الجبرتي لايشير الى العثمانيين في مظهر التقديس الا بقوله((المسلمين))،بينما يطلق عليهم في عجائب الاثار ((العسكر))أو العثمانية،وفي مظهر التقديس لايذكر اسم قائد من القادة الفرنسيين الا مصحوبا بوصف معين كقوله:برطلمين الكافر،اللعين الكافر،اللعين كفرلي،والتعيس بونابرته،والملعون ديبوي،والملاعين الكفار،ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف في عجائب الاثار.[١٢٤]

يوجد في مظهر التقديس ٧ يوميات ومعظمها خاص بمدح الجبرتي للوزير العثماني يوسف باشا وبعض كتابات الشيخ حسن العطار.ويبدو هنا أن الجبرتي عندما استل من العجائب تلك اليوميات التي عدلها،قد أضاف ما من شأنه أن يمتدح العثمانيين،فضلا عن اعتماده على أشعار الشيخ حسن العطار الذي نظن بان اختياره ليكون الرفيق الشعري في مظهر التقديس ربما له قضية حاولنا البحث عنها ولاجدوى.وربما يكون استخدام الجبرتي لحسن العطار في كتابه مظهر التقديس عائد إلى أمرين،الأول أن العطار كان لديه قبول عند العثمانيين،وبالتالي ستكون كتابات الجبرتي أكثر قبولا لأنه متضمن أشعار وروايات نقلها العطار،والثاني أن العطار،كانت لديه حضوه عند محمد علي،فهو الذي رشح رفاعة الطهطاوي ليرسل إلى فرنسا، فضلا عن رحلاته الطويلة في بلاد الشام،وذكر المستشرق الانكليزي لين(LANE) الذي التقى بحسن العطار في سنة ١٨٢٥م، انه كتب تقريظا للعطار،وقال انه كتبه إجابة لرغبته لأنه علم أن لين سيكتب كتابا عن مصر وأهلها،ولذلك طلب منه أن يشير إلى معرفته به،وان يذكر رأيه به[١٢٥].

---

(١٢٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١١، ١٧، ٢٩، ٥٦، ٥٩، ٦٩، ٧٣، ٨١، ٨٥، ٨٧، ٩٢، ٩٥، ١٠١، ١١٤، ١١٧، ١٢١، ١٢٤، ١٣٦، ١٤٢، ١٤٨، ١٦٤ . مظهـــــر، ج١ / ص ٣، ٦، ١٢،١٧،١٩،٢١،٣٢، ٤٥، ٦٨، ٧١، ٧٦، ٨٣، ١١١،٩١.

(125) Ayalon , "The Historian" P.242 ; Lane , Manners , P.222 ; Heyworth ,"Rifa'eh Badawi Raf'I At–tahtawi:The Egyptian Revives" , BSOAS , Vol.IX , 1938 , P.962 ; Gibb,"Al–Attar",EI2,vol.I.P.755 ;

يوجد في مظهر التقديس ٥٩ يومية وردت في عجائب الآثار مختصرة أو محذوف منها فقرات،وهي الفقرات الخاصة بمدح الوزير ورجال دولته،أو المبالغة في الهجوم على الفرنسيين دون مبرر.والحقيقة أن هذه الفقرات ليست مختصرة أو محذوفة وإنما هي الصورة الأولى لما كتبه الجبرتي،ثم عاد وعدلها في مظهر التقديس[١٢٦].

يوجد في مظهر التقديس ٦٧ يومية وردت في عجائب الآثار مفصلة ومضاف إليها فقرات،وهي الفقرات الخاصة بإنشاءات الفرنسيين وعلومهم وقوانينهم ومسرحهم ومكتبتهم-المعهد العلمي-وبعضها خاص بأفاعيل الجند العثماني وقبيح خصالهم وأخلاقهم.وفي حقيقة الأمر أن هذه اليوميات كما ذكرنا في النقطة السابقة تدعم رأينا في أن الجبرتي كتب العجائب قبل مظهر التقديس،لأنه في احد يومياته وهي زيارته للمعهد العلمي الذي أنشأه الفرنسيين والذي وصفه وصفا دقيقا' فهل يعني أن الجبرتي كتب مارآه مختصرا في مظهر التقديس ثم كتبه مفصلا في عجائب الآثار[١٢٧].

يوجد في مظهر التقديس ٩٢ يومية تم تعديلها عما كانت عليه في عجائب الآثار،لكي تبدو أكثر حيدة وموضوعية،فحذفت منها الشتائم الموجهة للعثمانيين،ومنها تبديل"الوزير"بكلمة"الصدر الأعظم"،و"العثمنلية"بـ "الدولة العلية"،كما استبدل عبارات وصف الفرنسيين "مثل الكافر واللعين والخبيث"وغير ذلك.ولعل هذا ما يؤكد الرأي الذي ذهب إليه د.أيلون حين يقول أن الجبرتي عندما كتب مظهر التقديس أراد بذلك التملق للعثمانيين[١٢٨].و يوجد بمظهر التقديس ١٨٤ يومية متطابقة تماما مع عجائب الآثار،حيث

مبارك، الخطط، ج٤/ ص ٣٨ ؛ زيدان، جرجي، تاريخ اداب اللغة العربية، (القاهرة:١٩١٤)، ج٤/ ص٢٥٧ ؛ شيخو، لويس، الاداب العربية في القرن التاسع عشر، ط٢، (بيروت:١٩٢٤)، ص ٥١-٥٣ ؛ سركيس، معجم، ج٢ / ص ١٣٣٥-١٣٣٧.

(١٢٦) الجبرتي، عجائب، ج٣، ج ٤ ؛ مظهر، ج ١ / ص ٢٣ .

(١٢٧) الجبرتي، مظهر، (خ)، الاوراق : ٦، ٨، ١١، ١٤، ٢٨ ؛ الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٩٤، ١٠٢، ١٢٤، ١٣٩.

(128) Ayalon . "The Historian",p.253.

نقلت بالنص،كما توجد ٢٧٦ يومية متشابهة بين الكتابين مع اختلاف بسيط في كتابة بعض الكلمات التي لاتؤثر على المعنى العام لليومية،ولعل ذلك حرصا من الجبرتي على أن يظهر مظهر التقديس بشكل يجعل منه كتابا حقيقا[١٢٩].

والخلاصة،فإن الجبرتي كتب ٧٨٥ يومية للتأريخ للفترة المشار إليها وبيانها كالآتي:١٠١ يومية موجودة في عجائب الآثار وغير موجودة في مظهر التقديس و٦ يومية موجودة في مظهر التقديس وغير موجودة في عجائب الآثار ومجموعها ١٠٧ يوميات بنسبة ٦٣ ,١٣٪،و٢١٨ يومية تناولها الجبرتي بالاختصار والإضافة وتعديل الصياغة بنسبة ٧٧ ,٢٧٪،ومجموع المعدل والمحذوف تماما ٣٢٥ يومية بنسبة ٤٠ ,٤١٪،وهناك ١٨٤ يومية متطابقة في الكتابين،و٢٧٦ يومية متشابهة بمجموع ٤٦٠ يومية وبنسبة ٦٠ ,٥٨٪،وعلى ذلك فان المتشابه في الكتابين يزيد عن النصف قليلا والمختلف والمعدل والمحذوف يقل عن النصف قليلا[١٣٠].

ونتيجة طبيعية لما سبق يمكن القول أن الجبرتي لما كلفه أستاذه الزبيدي بمساعدته في جمع تراجم أعيان القرن الثاني عشر،لم يكن ذلك في حقيقة الأمر الباعث الحقيقي لدخول الجبرتي العملية التاريخية،لأنه لم يكن يعلم الغرض الحقيقي لكتابة هذه التراجم،وإنما علم ذلك بعد وفاة أستاذه الزبيدي ومن ثم تكليفه مباشرة من قبل المرادي،فالجبرتي هنا قام بدراسة لهذه التراجم فقال عنها أن المرادي أهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعاظم ونحوهم،وهذا يعني أن الجبرتي لديه حس تاريخي،وان لم يكن الجبرتي لديه الخبرة في العملية التاريخية لما كلف بمثل هذا الأمر[١٣١].

و إن مسألة تحديد الباعث وراء كتابة الجبرتي للتاريخ تكمن في وضع الاساس الذي استند عليه الجبرتي في كتابة عجائب الاثار، وكان ذلك الاساس هو الصراع الذاتي

[١٢٩] السروجي، عجائب، ص ٢٢٧ .

[١٣٠] الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٣٥٦ .

[131] Ayalon . "The Historian",p.234.

الذي مر به الجبرتي حول طبيعة شكل الحكم الذي ينبغي ان يكون في مصر، اذ رأى اختلالاً كبيراً بين حكم المماليك و العثمانيين من جهة، والفرنسيين من جهة اخرى، وزاد من حدة الصراع وقوف الجبرتي امام خيارات توجب عليه ان يقف موقفا واضحا من الاحداث، وهو دخول محمد علي الحكم، ونظامه القمعي الذي امتعض الجبرتي منه وخابت اماله في الحكم العادل الذي ينتظره، فاول خيبة امل اصيب بها الجبرتي، هي تعرضه للاقامة الجبرية من قبل محمد علي (١٣٢).

و الراي الاصوب ان الباعث الاكبر الذي دفع الجبرتي للكتابة التاريخية -ليس فقط- دخول الفرنسيين، وليس لان استاذه كلفه بذلك، بل ان الجبرتي توفرت له القاعدة التي تمكن من خلالها اثبات نظرياته الفكرية والسياسية المبتناة مسبقا، ولكنه لم يكن ليصرح بها لولا مجيء الفرنسيين، فهؤلاء(الكفار) لايتدينون بدين، ولكنهم يحكمون العقل، وثمة عنصرين اخرين وهما العثمانيين و المماليك، يجمعهما الدين، ولكن الفرق عند الجبرتي لا يقتصر على الدين، ولا يكفي ان يكون المرء مسلما، بل ان المعيار الحقيقي والمقياس الاوفى لديه هو (ثنائية العدل و الحرية)، ولهذا جعل الجبرتي من مخيلته للفرنسيين اداة لرصد افعالهم ومن ثم إسقاطها على ما لديه من تخيل مسبق عن العثمانيين والمماليك ثم قياسها بمقياس العدل و الحرية مقارنا اياها بالعقل و المنطق، ليخرج بصورته الذهنية التي كان يريدها ان تكون شكلا لنظام عادل.

وهنا يحدد الجبرتي بنفسه الباعث، فهو يشير انه عاد للكتابة في ١٧٩٨م، ان (باعثاً من نفسي) كان وراء ذلك، ويبدو جليا ان الفرصة اتيحت للجبرتي لتثبيت افكاره بعد دخول الفرنسيين، ولم يظهر الباعث في عام ١٨٠٥ كما يذكر (محمد انيس) : ان الجبرتي اراد تغيير موقفه من الاحداث التي مرت بها مصر منذ الاحتلال الفرنسي (١٣٣)، فموقفه قد ثبته منذ اول يوم لدخولهم، وبالتالي فان الجبرتي عندما انهى تدوينه لفترة الفرنسيين ١٧٩٨-

(132) Ayalon , "The Historian" , P 357.

(١٣٣)انيس، الجبرتي، ص ٦٨ ؛ الجبرتي، عجائب، ج ١ / ص ١٩٧ .

١٨٠١ م، وفترة العثمانيين ١٨٠١-١٨٢١ م، اراد ان يخرج كتابه بشكله النهائي، فأضاف اليه التراجم والتي مثلت الجزئين الاول والثاني، لانه يقول لما عزم على جمع ما كان قد سوده من معلومات اراد ان يوصله بشيء قبله، ولم يكن ذلك سوى التراجم، وهو كان قد دون الاحداث التي جرت اواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، الذي عاش احداثه، وهذا ما جعل كتابه عجائب الاثار، ثمرة جهده الفكري ونتيجة رؤاه ونظريته الفكرية في العدل والحكم[١٣٤].

ومما ورد انفا، يتضح ان الجبرتي بعد ان اكمل روايته عن الفرنسيين و نظام محمد علي، قرر ان يجمع ما كتبه عنهم وان يخرج كتابه عجائب الاثار بصورته النهائية، لكن ما يجعل الامر معقدا اكثر، هو سرية الكتاب وانه لم يكن يرغب بان يظهره في وقته، ولكن احد نصوص الجبرتي يثبت العكس، وبانه اراد ان يظهره للناس في وقته، بل انه كان يتداول الحديث عنه حينها، اذا يقول في حديثه عن محاكمة سليمان الحلبي الذي اغتال كليبر ما نصه : "وقد كنت اعرضت عن ذكرها (يقصد محاضر التحقيق) لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة، وكيفية الحكومة(يقصد المحاكمة) ولما فيها من الاعتبار..."[١٣٥] .ويظهر جليا من هذا النص ان الجبرتي كانت لديه نية، بل فعل قائم بان ما يكتبه كان ظاهرا للناس، وانه اراد ان ينشره حينها، لكن ذلك لم يتحقق، فقد اخفي الكتاب بعد دخول العثمانيين.

ويعتقد الباحث ان وجود الكتاب هو اكثر ما دفع محمد علي للسخط على الجبرتي، وربما وشى به احدهم ليتقرب لدى محمد علي، وليس ذلك ببعيد، اذا علمنا ان

---

[١٣٤] الجبرتي، عجائب، ج ١ / ص ١٩٨.

[١٣٥] الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ١٩١ .

الكثير ممن كانوا في ديوان نابليون تعرضوا للاذى من قبل السلطة اثناء دخول العثمانيين، مثل بنت البكري التي قتلها العثمانيون بتهمة العلاقة مع الفرنسيين[١٣٦].

وهنا ايضا يتضح الامر فيما يخص كتابه مظهر التقديس، وانه لم يستطع ان يقول انني لم اكتب لتلك الفترة، فخرج بكتابه مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، ولكن الوازع وراء ذلك مخفي الى حد بعيد، ولكن ثمة شواهد تجعل الامر اكثر وضوحا في حقيقة ان الجبرتي يقول : " وكان ممن اعتنى بجمع تلك الاخبار ونقل غرائب هاتيك الاثار قطب الفضلا...صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار نظمنا الله واياه في مسلك الاخيار، فنظمت ما نمقه مع بعض منظومه و منثوره بحسب المناسبة الى هذا السفر لينتظم في مسلك حسن الذكر وسميناه مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"[١٣٧]. مما يدفعنا الى القول بان وجود العطار جعل الامر اكثر سلاسة في التحقيق بوازع اصدار الكتاب.

ويبدو جليا من هذا النص ان الجبرتي والعطار كانت قد جرت بينهما سابقا مداولات حول كيفية التخلص من بطش العثمانيين، واتفقا في نهاية المطاف على اخراج مظهر التقديس كعمل مشترك، لينقذا نفسيهما مما قد يلحق بهما، ولخشية العطار على الجبرتي، ولان العطار له حضوة عند العثمانيين فبالتالي سيلقى كتابه القبول لديهم،فضلا عن ان العطار كان رجلا طموحا، يحسب خطواته جيدا، وعلم ان الجبرتي لو اظهر كتابه عجائب الاثار، وانه كان احد مصادره في نقل الاخبار فسيعود ذلك عليه بالاثر السيء، لان العطار كان ملازما للرغبة بالشهرة، وذكره المستشرق لين بأنه اخبره ان يذكره في كتابه ويذكر محاسنه وابداعاته الشعرية و الادبية . وهنا يصبح الامر واضحا بان الجبرتي لم يكن ليرضى بان يمتدح العثمانيين لاعتقاده بمحاسنهم، بل لانه خاف على نفسه، ولكن في

---

(١٣٦) الجبرتي، عجائب، ج٤ / ص ٦٨.

(١٣٧) الجبرتي، مظهر، ج ١ / ص ٦.

الوقت ذاته، لم يكن هو وراء اصدار الكتاب، بل العطار هو من اشار اليه بذلك .وتصبح المعادلة بالشكل الاتي : اخفاء عجائب الاثار وإظهار مظهر التقديس، و من ثم يستكمل عجائبه بسوية تامة.

المبحث الثالث

دراســـة نقديــة في مصــادر الجبــرتي عــن الحملة الفرنسيــة [١٣٨]

يرتبط هذا المبحث ارتباطا جد وثيق بالمبحث السابق، لان ثمة علاقة بين اثبات ما كتبه الجبرتي وتاريخ كتابته، وبين مصدرية تلك الكتابات، لذا فان هذا المبحث يترك المجال لمعرفة اين كان يضع الجبرتي عينيه حين كان يرصد، وممن كان ينقل الاخبار، ومدى علاقة اولئك الاشخاص في الحدث، لما في ذلك من اهمية في رسم صورة تفاعلية عن الحدث، اذ نسلط الضوء على الزاوية التي كان ينظر منها الجبرتي، والتباين مع زوايا اخرى، ولو كـان في بعد اخر كيف سيرصد، ولماذا رصد بطريقة دون اخرى، ثم ما هي الية الرصـد عنـده، وهنا يتحقق لدينا مدى شموليته في الكتابة من الانتقائية، وعمليـة انتـاج الحـدث وطباعـة صورته الذهنية الاخيرة، ومدى وجود الانا و الاخروية في ذهنية الجبرتي، والصورة المبتناة لديه، وثمة تفصيل في هذا المجال عن جذرية تكوينه المعرفي كما بيّناه في المبحث الاول مـن هذا الفصل [١٣٩] .

و لا تكمن اهمية اثبات مصدرية الجبرتي المعرفية في اثباتها فقط، بل ثمة نقطة مهمة في ذلك، اذ توضح - فيما بعد - طريقة عرضه للمادة المعرفية من حيث اثبات الشواهد السياسية و الاجتماعية، التي ولدتها عملية تراكمية المعرفة الذهنية وتوليد الصورة

---

[١٣٨] ملاحظة : حول استخدام مؤلفات الجبرتي في هذا المبحث، سنقتصر على طبعة واحدة لكل مؤلف من مؤلفاته لتوضيح الامر للقارئ نتيجة تعدد الطبعات المستخدمة في المبحث السابق :

الجبرتي، عجائب الاثار في التراجم و الاخبار، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبـد الـرحيم، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠٠٩)، ٤ اجزاء .

الجبرتي، مظهر التقديس بذهاب دولـة الفرنسـيس، تحقيـق : عبـد الـرزاق عيسـى و عمـاد احمـد هـلال، ط١،العربي للنشر و التوزيع، (القاهرة :١٩٩٨)، جزأين .

[١٣٩] يرجى الاطلاع على المبحث الاول، الفصل الاول .

عن الاخر، فنقطة انطلاق الاتقان النقدي المحكم تكمن في حقيقة وعي المرء لما هو حقا، واثبات حيادية الجبرتي من عدمها، فهناك استحالة دائمة للتحديد الدقيق للحيادية، ولإجراءاته النقدية لانها في صيرورة دائما ومتحركة مع الطرح السياسي و الاقتصادي والاجتماعي المتحول دائما، وبالرغم من ان الحيادية في الطرح لاتفقد من خصوصية النص شيئا، الا ان الدخول في حصنه محكوم بانواع من المخاطر، اذا لم يتسلح الناقد باجراءات نقدية دقيقة و صارمة، وهنا يصبح النص تعبيرا عن الذات ويمثل بشكل او باخر عملية النقل الذهنية من جانبها العقلي الى وجهها النصي[١٤٠].

ويظهر لدى الجبرتي في عملية كتابته تراكمات نسقية[١٤١] تراثية منحدرة من التاريخ و الاساطير والفكر و الفلسفة والدين وكافة ما صنعه الماضي من تضامن او دعم لنسقية الاستبداد واتساع الحيز الثقافي للنمطية السائدة في انتاج الافكار او في الخطاب التاريخي، هذه الذاكرة النسقية البعيدة ظلت تشحن الوعي الفردي والجماعي الى الحد الذي اصبحت لدى الجبرتي نسقيات لا حصر لها[١٤٢].

وقبل ان نشرع في تحديد مصادر الجبرتي، لا بد لنا من عرض بسيط للموروث النصي الذي شكل لدى الجبرتي حجرا اساس في تكوين الفكر التاريخي لديه، واثر ذلك في فلسفته التاريخية، من حيث اعتماده على موروث جد نصي عن التراث الاسلامي، واوضح اهميتها في كتابه، مثل تاريخ الرسل و الملوك للطبري، ومروج الذهب

---

(١٤٠) سعد الله، محمد سالم، الاسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٩، ص ١٥٠ ؛ ابراهيم، المركزية الغربية اشكالية التكون و التمركز حول الذات، ط١، المركز الثقافي العربي، (بيروت :١٩٩٧)، ص ٤٥.

(١٤١) النسق : System : جملة افكار متآزرة و مرتبطة يعدم بعضها بعضا، وهو الذهن المرتب المنطقي والمتشبث بفكرة سابقة . مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، (القاهرة : ١٩٨٣) ـ مادة نسق، ص ٢٠١ .

(١٤٢) غلوم، ابراهيم عبدالله، "الثقافة العربية هيمنة نسق الاستبداد"، مجلة ثقافات، ع ١، البحرين : ٢٠٠٣، ص ١١.

للمسعودي، فضلا عن العديد من المصادر، ويبدو من عدم ذكره الكثير من معلوماتها في كتابه ان ماربطه بها هو طبيعة تأليفها، ثم منهج كتابتها ومعالجة معلوماتها، ولكن الاثر الفلسفي يبدو واضحا في تكوينه التاريخي والفكري، لا سيما مقدمة ابن خلدون التي وصفها بانها بحر متلاطم بالعلوم وثر مشحون بنفائس جواهر المنطوق و المفهوم، ويبدو في كثير من المواطن ان الجبرتي تأثر بفلسفة ابن خلدون في اثر البيئة، مما شكل لديه اسس معرفية استند عليها في فهمه للتاريخ[١٤٣].

و اعتمد الجبرتي في تكوينه المعرفي عن الفرنسيين وتاريخ بلاده على جملة من القنوات المصدرية التي شكلت نواة اساسية في فهمه للواقع و للتاريخ وفلسفته، وندرجها حسب الاهمية بالترتيب :

اولا : المصادر الوثائقية :

سعى الجبرتي الى الحصول على مصادر موثوقة فيما يتعلق بكتابته للتراجم، وفي اثبات سيرة الاشخاص الذين ترجم لهم، وكل ما يتعلق بهم من املاك واموال وعقار، الى جانب من الضرائب التي يدفعونها للسلطة، وقد بذل جهدا وسبلا تعرض بسببها في احايين كثيرة للصد وعدم التعاون من قبل العاملين بالدوائر الرسمية، خاصة القيمين على السجلات والدفاتر الرسمية، لكنه استعان بالمقربين اليه في تلك المؤسسات، ولعل ابرزهم اسماعيل الخشاب[١٤٤] صديقه،احد اعضاء المحكمة الشرعية في القاهرة، واورد الجبرتي في

(١٤٣) مايرز، يوجين أ، الفكر العربي و العالم الغربي، ترجمة : كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد : ١٩٨٦)، ص ٦٧ ؛ النجار، جميل موسى، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، دار الشؤون الثقافية، (بغداد : ٢٠٠٤)، ص ١٧٧ ؛ الجبرتي، عجائب، ج١ / ص ١١.

(١٤٤) اسماعيل الخشاب، (ت١٨١٤) كان ابوه نجارا ثم فتح له مخزنا لبيع الخشب تجاه باب زويلة، ثم عمل في المحكمة الشرعية بالقاهرة، وفي عهد الحملة الفرنسية عمل كاتبا للديوان ومحاضره في الديوان الذي اسسه نابليون، وهو احد الاصدقاء المقربين للجبرتي، وكانت له علاقات مع بعض العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة لاسيما جيرار، وألف كتابين : الاول : التاريخ المسلسل في حوادث

كتابه عجائب الاثار حوارا جرى بينه وبين الخشاب ما نصه : "انت من عدول المحكمة وفي المحكمة صكوك وحجج تدون فيها اسماء الناس ومناسبهم واعمارهم، فهل لك ان تنسخ لي شيئا منها، واليك جدولا ببعض الاسماء، فاجابه الخشاب : هب ان العين الذي تريد ان تترجم له لم يدخل المحكمة يوما، ولاثبت له رزق ولا وقف ولاعقار، من اين تحصل على معلوماتك، فاجابه الجبرتي : على اني سوف اطوف بالقرافات(المقابر) واقرأ المنقوش على القبور، واحاول جهدي ان اتصل باقرباء الذين ماتوا، فاطلع على اجازات الاشياخ عند ورثتهم، واراجع اوراقهم ان كانت لهم اوراق، واسأل المعمرين ماذا يعرفون عمن عايشوهم، ولا ارى في ذلك حرجا اعتمده غير ما طلبت منك، وبعدها قال الجبرتي للخشاب بالحاح، وانت تختلف الى الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين ويمكنك ان تحصل لي منها على هذه المعلومات"(١٤٥).

ولان الخشاب قد تعين في زمن الحملة الفرنسية كاتبا للديوان، فكان احد اهم مصادر الجبرتي الوثائقية(١٤٦)، وكلف ان يكون امينا لمحفوظات الديوان وما يصدر منها من اوامر وانباء يومية، وسمي (كاتب سلسلة التاريخ)(١٤٧)، واستمر في هذا المنصب حتى رحيل الفرنسيين عن مصر، وقد صدر للخشاب كتاب بعنوان : "التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقايع الديوان"، وهو عبارة عن محاضر الاجتماعات في الديوان الذي انشأه الفرنسيون من ١٨٠٠-١٨٠١ في عهد الجنرال مينو(١٤٨).

الزمان ووقايع الديوان ١٨٠٠-١٨٠١، و خلاصة ما يراد في اخبار الامير مراد . الجبرتي، عجائب، ج ٤/ ص ٣٧١ - ٣٧٧.

(١٤٥) الجبرتي، عجائب، ج ١/ ص ٢٤.

(١٤٦) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٣٧١ .

(١٤٧) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٣٧٧ .

(١٤٨)الخشاب، اسماعيل، التاريخ المسلسل في حوادث الزمان ووقايع الديوان ١٨٠٠-١٨٠١، تحقيق محمد عفيفي و اندريه ريمون، المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة، (القاهرة : ٢٠٠٣)، ص ٤٧

ثانيا : رحلاته ومقابلاته الشخصية :

قام الجبرتي وخلال فترات زمنية مختلفة من حياته برحلات عدة الى مختلف ارجاء مصر، محتكا باهلها، متعرفا على طبيعة انشطتهم المعاشية وابرز منتجاتهم الحرفية و الزراعية، فضلا عن الوقوف على عاداتهم وتقاليدهم موضحا انماطهم السلوكية والمعرفية من مجتمع الى اخر، كالبدو وسكان الريف، واصحاب الحواضر، مفسرا ذلك بالاشارة الى اثر البيئة في انماطهم السلوكية والمعيشية (١٤٩).

و على ما يبدو ان رحلاته تلك لم تكن لغاية معرفية فحسب، بل كان يتفقد خلالها اوقاف الجبرتية في نواح عدة من مصر، وقد زار ابيار القريبة من كفر الزيات (١٥٠)، لما لاسرته فيها من الاراضي الزراعية، ثم انطلق منها الى رشيد (١٥١)، ومنها الى ادكو (١٥٢) التي وصفها وصفا دقيقا في عادات اهلها وتقاليدهم (١٥٣)، كما انه زار صعيد مصر، والاجزاء الاخرى منه، وكانت توصيفاته دقيقة جدا وبتحديد دقيق صحيح دل على معرفة تامة بجغرافية البلاد، ويتضح حس الجبرتي الجغرافي في هذه الرحلات(١٥٤).

و قد دون الجبرتي كل مشاهداته من الرحلات، وقدم معلومات قيمة عن واقع مصر الاجتماعي والاقتصادي انذاك، فهو لم يتوان عن ذكر ادق التفاصيل المتعلقة برحلاته

---

(١٤٩) عبد، عباس علاوي، عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الكوفة ٢٠٠٧، ص ١٦٨.

(١٥٠) عكاوي، رحاب، الجبرتي مؤرخ الديار المصرية، دار الفكر العربي، (بيروت : ٢٠٠٣)، ص ٣١.

(١٥١) رشيد : وهي من المدن المصرية القديمة، تقع على شاطيء فرع النيل الذي عرف بها، وهي قاعدة مركز رشيد محافظة البحيرة، للمزيد ينظر رجاءا : رمزي، القاموس، ق ٢ / ص ٣٠٠.

(١٥٢) ادكو : اسمها القديم (اتكو) وهي احدى قرى مركز رشيد . رمزي، القاموس ق ٢ / ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٥٣) شكري، مصر، ج ٣ / ص ١١٦٤ .

(١٥٤) عكاوي، الجبرتي، ص ٣٣ ؛ الطوخي، نبيل السيد، صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٧)، ص ٤٥.

بما فيها استعداده للسفر وما تستغرقه الرحلة من مدينة الى اخرى، فضلا عن تحديده للمسافات بين محطات رحلاته، موضحا اسباب اختياره مسلك دون اخر، ولعل ذلك شاهد على دقة وصفه وبراعته بالتسجيل(١٥٥).

واسهمت رحلاته في اللقاء بالعديد من الشخصيات والوجهاء في مختلف نواح المعرفة، كعلماء الدين وأئمة المساجد وادباء وكتاب الى جانب عدد من التجار واصحاب النفوذ والجاه، ممن كانت لاتصالاته بهم الاثر الكبير في الوقوف على معلومات قيمة تعلقت جوانبها بقضايا تاريخية وسياسية واقتصادية، اتخذت بصورة و اخرى مضامين تأليفه(١٥٦).

ثالثا : شاهد عيان :

ان اهم مصدر من مصادر الجبرتي في تأريخه للحملة الفرنسية على مصر هي شهاداته العينية، والتي تمثل وجهة نظره الحقيقية، لانها تتمركز حول انتاج الصورة الذهنية التي مثلها الجبرتي في كتابه عجائب الاثار، وتمثل تلك الشهادات ركيزة اساسية في تحديد المكان الذي كان يقف به الجبرتي، فضلا عن تحديد طريقة الوصف، لان ثمة عنصر مهم في ذلك، وهو اثر التراكمية المعرفية والفكرية في سلطة الانشاء عند الجبرتي اثناء عملية الرصد، وقد اوضح في اكثر من موضع انه كان شاهدا حيا على الحدث،وجدير بالذكر ان الجبرتي في مواطن كثيرة حاول اخفاء نفسه من شهادة العيان، رغم وجوده فيها، ودليل ذلك دقة الوصف التي تستلزم المشاهدة العينية(١٥٧).

(١٥٥) شكري، مصر، ج٣/ ص١١٦٤.

(١٥٦) عكاوي، الجبرتي، ص ٣٤ ؛ شكري، مصر، ج٣/ ص١١٦٤ ؛ الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ١١٩-١٢٠.

(١٥٧) بركات، علي، رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩١)، ص ٤٩.

وتوضح الكلمات الدلالية على اثبات شهادات العيان، مثل : (رأيت، شاهدت، تحت نظر الفقير، كنت حاضرا، اشاهد، ذهبت)، ويظهر ذلك في النصوص التي اوردها الجبرتي ولكن مكانه يختلف من شهادة الى اخرى، فتارة يكون في الموقع ذاته، واخرى يقف بعيدا مع عامة الناس، ومن المشاهدات التي كان في موقع الحدث، زيارته الى المجمع العلمي الذي انشأه نابليون، اذ يقول : "ولقد ذهبت اليهم مرارا، واطلعوني على كتاب كبير ....))[158]، ويثبت ايضا انه كان مع عامة الناس، حين يقول : تجمع الناس والكثير من الافرنج ليروا تلك العجيبة (يقصد بها المنطاد الذي صنعه الفرنسيون)، وكنت بجملتهم فرأيت...))[159]، هذا فضلا عن تواجده في الديوان الذي عقده نابليون مما جعله قريبا من صنع القرار)[160].

واستند الجبرتي في تدوين الاحداث على مشاهداته العينية، لاسيما تلك التي ادرك تطوراتها وسبر كنه اغوارها، فسجل بثاقب بصيرته ما وقعت عليه عيناه من احداث عاصرها، كتلك المتعلقة باساليب الحكام المماليك واجراءاتهم التعسفية في ادارة شؤون البلاد [161]، ومنها ما خص الاوبئة و الكوارث الطبيعية التي اصابت البلاد [162]، فضلا عما رآه من احداث الحملة الفرنسية، وما اعقبها من تدخلات دولية تعلقت بالموقف البريطاني من الحملة الفرنسية [163]، واحتدام الصراع بين الطرفين، و ما انتجه رحيل الفرنسيين، وبروز محمد علي الذي مثل خيبة امل كبيرة عند الجبرتي[164] .

---

(١٥٨) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص٥٧-٦٠.

(١٥٩) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص٥٣.

(١٦٠) البستاني، صلاح الدين، صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨-١٨٠١، ط١، دار العرب، (القاهرة : ١٩٧١)، ص ١٢٢.

(١٦١) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٨٢ ؛ الجبرتي، مظهر، ج٢/ ص٤٦.

(١٦٢) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٩٦.

(١٦٣) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٣٨٣.

(١٦٤) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص٢٨٩.

وقد بين الجبرتي وبوضوح ملموس باستعانته بمشاهداته العينية في تسجيل الاحداث، وتتبع تطوراتها، فذكر عندما سمع بما الم بدور المماليك و قصورهم في حي الفيل بالقاهرة، انه قرر الذهاب الى هناك و الوقوف على ما حل بها، اذ قال : "واما الهدم ونقل الانقاض من البيوت الكبار والدور الواسعة التي كانت مساكن الامراء المصريين...اصبحت موحشة ولا مأوى بها حتى للبوم بعد ان كانت مراتع غزلان"(١٦٥).

كما يشير الجبرتي الى مشاهداته عن انجازات الاثاريين الانكليز واصفا مشاهداته عن المومياء، مشيرا الى انه قد ذهب بصحبة اثنين من اصحابه، : "ولما سمعت بالصورة المذكورة ...ذهبت وشاهدت ذلك وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم..."(١٦٦) ،كما سجل توصيفا دقيقا لمراسيم دخوله المجمع العلمي وما لقيه من حفاوة وحسن استقبال من ادارة المعهد الموكلة لعدد من المستشرقين الفرنسيين، منوها الى محتويات المكتبة الخاصة بالمجمع (١٦٧).

ويعطي الجبرتي من خلال مشاهداته العينية الحالة الاجتماعية واثر الصدمة التي ولدها دخول الفرنسيين الى مصر، واصفا حالة الفوضى التي سببها عامة الناس، والتي عمت البلاد نتيجة ذلك، مشيرا الى فوضوية العامة واستغلالهم حالة الفوضى الموجودة وغياب السلطة نتيجة انهيار سلطة المماليك مما دفع العامة الى مهاجمة النخبة والطبقة الارستقراطية وسلب دورهم واملاكهم ونسائهم، ووصف حالة الذعر التي اصابت المسيحيين نتيجة تعرضهم للسلب والنهب والقتل من عامة الناس(١٦٨) .

ويشير الجبرتي ايضا الى الجنود الفرنسيين واوصافهم وتحركاتهم وعاداتهم وطبائعهم وتسليحهم، فضلا عن اساليبهم التي اعتبرها (نبيلة) في تعاملهم مع الناس،

(١٦٥) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص٣٩٥.
(١٦٦) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص ٣٩٥.
(١٦٧) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ٥٧.
(١٦٨) الجبرتي، عجائب، ج٤/ ص ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٨٣، ٤٨٤ .

وسيرهم بالاسواق دون خوف واشتراكهم في الحياة اليومية مع الناس، مقارنا ذلك بالمماليك والعثمانيين الذين اختلفوا كثيرا عن الفرنسيين في ذلك، فضلا عن وصفه ومشاهداته الدقيقة لانجازات الفرنسيين على كافة الاصعدة وادارة نظام الحكم(١٦٩).

رابعا : البيانات و المنشورات الرسمية :

منذ اليوم الاول لوصول الاسطول الفرنسي الى بر مصر في تموز/ يوليو ١٧٩٨ بدأت الادارة الفرنسية تصدر بياناتها وأوامرها بشكل منظم، وبخصوص كل ما يحدث في القاهرة او في اقاليم مصر بشكل عام اثناء السنوات الثلاث للوجود الفرنسي في مصر، فالبيان الاول هو البيان الشهير الذي اصدره بونابرت وترجمه فينتور دي بارادي Ventur de Paradis (١٧٠)يوم وصول الاسطول الفرنسي الى شواطيء الاسكندرية، معلنا فيه الاهداف المزعومة للحملة، من الرغبة في انتشال مصر من المماليك الذين هددوا تجارتهم كما جاء في نص البيان (١٧١)، وتلته العشرات من البيانات و الاوامر المصاغة باللغتين الفرنسية و العربية (١٧٢).

---

(١٦٩) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٣٤، ج٤ / ص ٤٨٦، ٤٩٥.

(١٧٠) فانتور دي بارادي، مستشرق فرنسي، انتظم في دراسة اللغة التركية في اسطنبول، ثم مارس عدة مهام في سوريا و مصر ومراكش وتونس والجزائر، ثم عين سكرتيرا - مترجما بسفارة فرنسا في اسطنبول (١٧٩٣)، ثم عاد الى فرنسا ليرأس مركز اللغة التركية بمدرسة اللغات الشرقية ١٧٩٧، وكان المترجم الاول في حملة نابليون، واصبح عضوا في معهد مصر ١٧٩٨، مات بمرض الدستاريا خلال حصار عكا ١٧٩٩. سوليه، روبير، علماء بونابرت في مصر، ترجمة : محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠١٠)،ص٢٧٣.

(١٧١) الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، تحقيق وترجمة : ش. موريه، (ليدن:١٩٧٥)، ص ٧.

(١٧٢) دوس، مديحة، المنشورات والاوامر الصادرة باللغتين العربية والفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١)، دراسة ضمن كتاب (مائتا عام على الحملة الفرنسية رؤية مصرية)،ط١، مكتبة الدار العربية للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٨)، ص ١٩٧. وقد حصل الباحث على ملف وثائق الحملة الفرنسية المحفوظ بدار الكتب و الوثائق القومية بالقاهرة، ومثلت تلك الوثائق اسهاما كبيرا في اثراء هذه الدراسة لما لها من اهمية كبيرة في مقارنة المعلومات بين الوثائق وبين ما كتبه الجبرتي.

وكان نابليون الى جانب تسليحه لجيشه بشكل متقن، ركز على تزويد جيشه بجهاز طباعي كبير، يشرف هو بنفسه وباهتمام كبير على انجاز هذا الجهاز بكل ما يلزمه من رجال ومعدات ومراجعة وثائق العصر مثلت بالشواهد على العناية الخاصة التي اولاها بونابرت لمطابع الحملة منذ مرحلة الاعداد لها، فطلب من حكومة الادارة الفرنسية مطبعة بحروف عربية وكان اهتمامه الشديد بها للغاية لدرجة انه امر بنقلها على البارجة لوريان (L'Orient) التي عقد لها لواء قيادة الحملة والتي ابحر فيها بونابرت نفسه(١٧٣).

وأصدرت المطبعة كراسات ومنشورات الحملة التي كانت تلصق بالشوارع والأحياء وعند ابواب المساجد، كما صدرت منها عشرات الكتب بالفرنسية والعربية(١٧٤)، وفي اختصاصات اخرى، مثل وصايا لقمان، وطبعت فيها مؤلفات دجينت (Desgonttes) كبير اطباء الحملة، واهمها رسالته في مرض الجدري ومكاتباته للديوان وغيرها(١٧٥).

وكانت تلك المطبعة تسمى في الاسكندرية بـ (مطبعة جيش الشرق) وعندما نقلت للقاهرة امر نابليون بتسميتها بـ (المطبعة الاهلية)، ونقلت للجيزة اثناء ثورة القاهرة الثانية، ثم الى القعلة، وعند الجلاء امر نابليون باعادتها فاعادوها الى فرنسا (١٧٦)، واختير

---

(١٧٣) هيرولد، بونابرت، ص ٦٠ ؛ الصاوي، احمد حسين، فجر الصحافة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٧٥)، ص ٢٢.

(١٧٤) رينيه نيقولا دوفريش ديزجينت : شغل منصب رئيس الاطباء في جيش الشرق وكان على متن الباخرة اورينت، والتحق بمعهد مصر في ١٧٩٨،وقام بتنظيم الخدمة الصحية في مصر، وعند رجوعه الى فرنسا ترقى الى منصب رئيس اطباء فال دي جراس، ثم مفتش عام للخدمة الصحية بالجيوش . سوليه، علماء، ص ٢٦١.

(١٧٥) الشيال، جمال الدين، "متى و كيف عرفت مصر كتاب الامير لميكافيللي" مجلة الكاتب المصري، القاهرة، ع١٣، السنة الثانية، م ٤، ١٩٤٦، ص ١٥.

(١٧٦) المهتار، طلال، اثار حملة بونابرت على مصر، (بيروت:١٩٦٢)، ص ٩٩.

قبل ذلك دار عثمان بيك بالازبكية مكانا للمطبعة وكان مديرها مارسيل الذي كان صحفيا و مؤرخا، وقد زار الجبرتي تلك المطبعة مرارا[177].

واصدر الفرنسيون صحيفتين باللغة الفرنسية وهما لوكوريه دي ليجيبت (Le Currier de Le'Egypt) (المراسل المصري) في ٢٩ اب ١٧٩٨ وصحيفة لا ديكاد اجيبسيين (La Decad Egyptiene) (العقد المصري) في ٧ تموز ١٧٩٩، وكانت الاولى للدعاية ونقل الاخبار وتوجيه النصح والارشاد للجنود الفرنسيين، فيما كانت الثانية صحيفة علمية اهتمت بدراسة الشؤون المصرية في المجالات الاقتصادية والادبية والاجتماعية والتاريخية كافة[178] .

وبهذه الوفرة الطاغية من المنشورات، اتيح للجبرتي ان يحصل على معلومات صادرة عن الفرنسيين من خلال منشوراتهم، فكان الجبرتي يتنقل بين شوارع القاهرة، وكان اول من سجل نصوص عدد كبير من هذه المنشورات في مناسبات صدورها، وكلما تناول بالسرد او التعليق مضمون احدها، كان لايفوته ان يسجل كذلك عملية نشرها وإذاعتها، فيقول مثلا : "وكتبوا نسخا من ذلك كثيرة ارسلوا منها الى الاعيان ولصقوا منها نسخا في مفارق الطرق، ورؤوس العطف وأبواب المساجد، او، كتبوا بذلك اوراق مطبوعة والصقوها بالاسواق مضمونها....او، وكتبوا بذلك طومارا كبيرا بصموا منه نسخا كثيرة، والصقوا منها بالاسواق على العادة"[179].

---

(١٧٧) جان جوزيف مارسيل، طباع ومستشرق فرنسي، قام بطبع اول نداء باللغة العربية لبونابرت موجها للمصريين، وكان موكلا على المطبعة القومية التي كلفت بطبع (كورييه دي ايجيبت) و (لاديكاد ايجبسيين) وقام بنشر عدة تراجم باللغة العربية، وحرر حروف الهجاء العربية والتركية والفارسية، وعندما عاد الى باريس تولى ادارة مطبعة الجمهورية التي عرفت فيما بعد بـ (مطبعة الامبريال) . سوليه، علماء، ص ٢٨٢.

(١٧٨) لا ديكاد ايجبسيين، المطبعة الاهلية، القاهرة، المجلد الاول، الاعداد (١-١٠٠).

(١٧٩) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ١١، ٣٢، ٦٤، ٥٧، ٩٨ .

ولم تكن استعانته بتلك المنشورات مقتصرة على الرسمية منها فحسب، بل ما جاء على لسان عدد من مشايخ الازهر الذين عملوا على الحد من الفوضى التي سببتها ثورة القاهرة الاولى ٢٠ اكتوبر ١٧٩٨ والثانية ٢١ ابريل ١٨٠٠، وكانوا يصدرون المنشورات الى الناس باسم العلماء، فضلا عن نقله منشورات على لسان العلماء في الديوان الذي اسسه نابليون(١٨٠).

فكانت تلك المنشورات بمثابة مصدر حي امكن للجبرتي ان يستخدمه في مواضعه المناسبة في ذكره للاحداث التي تقع في مصر، واعتبر ان ذلك مصدرا مهما لـه، ولم يكتفي الجبرتي بمجرد نقله للمنشورات، بل كتب عليها تعليقاته بما يشتمل ذلك لغتها واسلوبها وسوء ترجمتها وركاكتها اللغوية (١٨١).

خامسا : قربه من مصدر القرار :

كان الجبرتي ومنذ صغره قريبا من مصدر القرار بحكم مكانة والده الاجتماعية والدينية، مهدت له الطريق ليكون في مركز صنع القرار، فشكل ذلك رافدا مهما لمعلوماته التاريخية، واعتمد عليها في تدوينه للتراجم و الاخبار و الحوادث لاسيما في ترجمته للعلماء و الامراء ورجال الدين و الوجهاء(١٨٢) .

ولعل وجوده عضوا في الديوان الذي شكله جاك مينو بعد ١٨٠٠، جعله على محك مع مركز صنع القرارات و الاوامر الصادرة من حكومة الحملة، مما اتاح له فرصة ثمينة اغتنمها الجبرتي في اثراء معلوماته، فكان ينقل ما يجري في الديوان من مداولات ونقاشات داخله، فضلا عن تعليقاته هو التي لم يفصح بها اثناء تواجده في الديوان، وانما يكتبها بعد ان يدون الحدث ويعلق عليها (١٨٣).

(١٨٠) الخشاب، التاريخ، ص ٣٢ .
(١٨١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٧، ٩٧ .
(١٨٢) الجبرتي، عجائب، ج١/ ص٦٢.
(١٨٣) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ١٠٢ .

استعان الجبرتي بعدد من اصحابه في الوقوف على المعلومات مثل اسماعيل الخشاب وحسن العطار، اللذين كانا يزودانه بالمعلومات، لا سيما ان العطار كان يسافر كثيرا الى انحاء مصر ويزوده بالمعلومات عن اقاليم مصر التي يزورها، وهذا ما جعل عجائب الاثار مصدرا مهما عن مصر كلها في فترة الحملة الفرنسية (١٨٤) .

ويبدو جليا مما تقدم ان الجبرتي قد تعددت مصادره المعرفية عن الحملة، وساهم ذلك التنوع في اخراج صورة ذهنية متكاملة عن الحدث وصانعيه، فضلا عن رؤية الجبرتي ذاته في الاحداث، وتعليقاته الكثيرة التي تركها على الاحداث، فكان يرصد بعين المترقب باحثا عن كل ما يلفت نظره، مدركا اهمية الخبر ومتأكدا منه قبل نقله، ولذلك ادرك الجبرتي مستويات التلقي، فحدد خطابه استنادا على ذلك المستوى، فكان كتابه يشتمل على خطاب موجه الى القاريء العادي، ثم الى النخبة ورجال السلطة .

(١٨٤) الجبرتي، عجائب، ج٤ / ص ٢٢٢.

الفصل الثاني

الجبرتي و الفرنسيين

"دراسة نقدية في رؤية الجبرتي للفرنسيين في مصر

يمثل الفصل الثاني من هذه الدراسة الجانب التطبيقي لرؤى الجبرتي التي كونها عن عصره، استنادا الى تكوينه المعرفي، ليعطي هذا الفصل عرضا مفصلا عن الاندماجات الفكرية و التصورات النقدية التي طرحها الجبرتي في كتابه عجائب الاثار، لذا ثمة اهمية بالغة و ارتباط جد وثيق بين الفصل الاول و الفصل الثاني، من حيث هو تطبيق عملي لنظريات الجبرتي الفكرية والتاريخية و السياسية و الاجتماعية .

ويعطي هذا الفصل الملامح التكوينية التي ثبتها الجبرتي عن الحملة الفرنسية و التي تمثلت في انطباعه الاول و الصدمة الفكرية التي تعرض لها الجبرتي، لا سيما بعد خطاب نابليون الذي وضع الجبرتي في صراع فكري عنيف من نوعه مع ما لديه من موروث فكري تاريخاني ووضع قيمه ومعرفته على المحك، وتحول خطير للانتقال من عصر الى عصر اخر، اذ خاطب نابليون اماني الجبرتي في منشوره الاول، وهذا ما تضمنه المبحث الاول، الذي ركز على الصدمة الاولى للحملة ومن ثم اعطاء الانطباع عن التحديث الذي شهدته مصر وعجز العقل المصري عن انتاج بنيوية تحديثية اصيلة .

ودرج الباحث على توصيف نظام الحكم الفرنسي في مصر، واليات الحكم وخصائصه، اذ اشتمل المبحث الثاني على تبيان النظام الديمقراطي ونقل التجربة الفرنسية الى مصر من خلال النظام الاداري و السياسي لحكم "مصر نابليون".

اما المبحث الثالث فكان لتوضيح الانجازات الفرنسية على كافة الاصعدة في مصر، والتي احدثت التغييرات البنيوية ليس في البناء الحضاري فحسب، بل حتى – فيما بعد – بالفكر المصري الحديث، الذي ظهرت بوادره في فترة محمد علي ومايليها .

المبحث الاول

"الجبرتي بين صدمة الحملة الفرنسية و طبيعة العلاقة مع المصريين"

شكلت الحملة الفرنسية للمصريين صدمة حقيقية و بكل المقاييس، ولم يكن هذا بسبب المقارنة المستحيلة، التي قام بها الجبرتي بين جيش بونابرت الحديث و جيش المماليك الذي لم يعلم منذ الغزو العثماني ان الفروسية لم تعد صالحة للحرب الحديثة فحسب، بل كان ايضا بسبب هذا النموذج المبهر و الناجح الذي اتى مع الغزو و العدوان، وخلق ذلك نوعا من التوتر لدى الطبقة الوسطى و خاصة المشايخ و التجار و الاعيان، الذين اتسم تعاملهم مع هذا الغازي بالازدواجية النفسية، فكيف نقاوم العازي ونستعين به في الوقت نفسه بتنظيماته و تقنياته التي ثبت بالدليل العملي نجاعتها !؟ اكثر من ذلك تعمقت الصدمة حينما وجدت الطبقى الوسطى نفسها ان انجازها التراكمي الذي حققته قبل الحملة قد تبخر عن اخره، بمجرد ظهور هذا النموذج الجديد الذي حملته الجيوش الغازية .

ان الحملة الفرنسية تسببت في منع امكانيات النمو الذاتي للمصريين على القاعدة التي اسسوها تدريجيا طوال القرنين السابع عشر و الثامن عشر، فعلى عكس الشائع كان ثمة امكانية حقيقية لانجاز "حداثة محلية" تستجيب لظروف الواقع، وذلك لتواتر العناصر اللازمة، لقد تم اجهاض هذه الامكانية في مهدها عندما قارن المصريون بين مجتمعهم و المجتمع الذي عكسه رجال الحملة ممن اختلطوا بهم بطريقة مباشرة خلال سنوات الحملة القليلة، لقد قدمت لهم الحملة نموذجا جاهزا وقابلا للتطبيق، فَلِمَ الجهد الذي يبذلونه

لإيجاد النموذج المحلي ؟ لقد اعطتهم الحملة النموذج -بطريقة غير مباشرة- فقبلوه بدلا من تخيله واختراعه(١٨٥).

و اول بوادر الصدمة لدى الجبرتي كانت في بداية افتتاحه الكتابة عن الحملة الفرنسية، اذ استشرف الاحداث، واعطى تفسيرا مجملا يترك من خلاله الفهم لطبيعة الظروف التي ادت الى مثل ماتعرضت له مصر من حادثة غيرت شكل مصر كليا، فيقول:((وهي-أي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م- أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ))(١٨٦) .

ويعطي الجبرتي عبر ذلك النص وصفا دقيقا وواضحا من خلال تأسيسه للسببية في الحوادث التي جرت على مصر، الذي استند على وعيه التام بمجريات الاحداث، ويختزل النص التركيب المنطقي للفعل و رد الفعل، فعبر التراكمات التي كونت العقل المصري خلال القرن الثامن عشر، والذي قاد الى مثل هذه الصيرورة الفكرية التصادمية بين الرغبة بالاستحداثات بينما يوجد البديل الناجع، ويحدد بذلك عجز الفكر المصري عن مواجهة المحتل فكريا وعقليا، وان وضع المسالة في نطاق واحد يخالف الواقع التاريخي بقدر ما يخالف جدل العلاقة بين الظاهرات الفكرية و الاجتماعية، وهو منطق له صفة الموضوعية، التي لا يمكن ان يلغيها الباحثون لعدم طرحهم لها، غير ان العجيب في الامر هنا، ان الباحثون انفسهم، قد وضعوا امامنا في بحوثهم فيما يتعلق برؤية الجبرتي وبطبيعة العلاقة الجدلية بين الفكر المصري و الاستحداث الاوربي القائم على الغزو، مادة تاريخية

(١٨٥) عبد الحافظ، مجدي، جمال الدين الافغاني و اشكاليات العصر، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة:١٩٩٧)، ص ٣١.

(١٨٦) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ١.

جيدة لرؤية تلك العلاقة، ولكنهم وضعوها بصفتها مادة تاريخية، دون ان يستخدموها في شيء من التحليل العلمي العقلي الذي يرجع المسالة الى جذورها الحقيقية في واقع المجتمع الذي ظهرت فيه باشكالها الخاصة(١٨٧) .

استخدم الجبرتي دلالات لغوية تنبعث منه المأساة التي عاشها العقل المصري، والتي تبعث على نوع من الانحسار الفكري الكامن وراء العجز الذي احدثته الحملة الفرنسية نتيجة الصدمة الفكرية، فيكتب : "...وتضاعف الشرور و ترادف الامور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الاهوال واختلاف الاحوال" ليدلل على الاستمرارية في الحدث والزيادة عليه، وان الشر و تلك المحن كانت نتيجة طبيعية للتراكمية الفكرية الانهزامية الطاعنة والعاجزة عن الابداع والانتاج، لكنها لم تتحول الى طابع نفسي –ولم تكن لتتحول– الا حين رأى الجبرتي الامراء المماليك بكل ما يحملوه من غطرسة يتساقطون كالرسوم الورقية حين لم يقدروا ان يحركوا ساكنا عندما وصل الفرنسيون، واكتفوا بالجلوس وانتظار القدر، "واما الامراء فلم يهتموا بشيء من ذلك، ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم انه اذا جاءت الافرنج لا يقفون في مقابلتهم وانهم يدوسونهم بخيولهم"(١٨٨) .

واذا كان الجبرتي لام المماليك، فهو بطبيعة الحال عقلن الفرنسيين، وهذا الامر من الخطورة بمكان، اذ ان النظر الى الماضي مقابل ما احدثه الغرب المتمثل بفرنسا يجعل من العقل المصري عاجزا خاضعا لعدم قدرته على ايجاد البديل المحلي، فالفرنسيون الذين

---

(١٨٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١ – ١٥ ؛ ينظر مثلا: عبد الغني،الجبرتي والغرب،ص ص ٢٣–٣١؛ العشماوي، محمد سعيد،مصر والحملة الفرنسية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهر:١٩٩٩)ص ص ٤١–٥١؛ شاكر، محمود محمد،رسالة في الطريق إلى ثقافتنا،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة:١٩٩٧)ص ص ٨٥–٩٢؛ عيسى،منهج عبد الرحمن الجبرتي.ص٥٣–٨٠؛ حسن، محمد عبد الغني،"ملاحظات الجبرتي المؤرخ على حوادث عصره"،مجلة الثقافة،دمشق،العدد ٧١٣،السنة الرابعة عشرة –أغسطس ١٩٥٢،ص ص ١٤–١٥.

(١٨٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢ .

أشتاقت انفسهم لاستخلاص مصر مما هي فيه، واراحة اهلها من تغلب هذه الدولة- المماليك- المفعمة جهلا وغباوة،فقد وصلوا وحصلت لهم النصرة، ومع ذلك لم يتعرضوا لاحد من الناس، ولم يعاملوا الناس بقسوة، وان غرضهم تنظيم امور مصر" (١٨٩) وبالضرورة فان الجبرتي لن يجد سوى ان يتفاعل مع هذا الفكر، لانها حقيقة رغم كونه من المحتل الغازي، لكنها الحقيقة التي تندرج تحت طائل القصدية، المرفوضة، لاننا نرفض كل ماهو اتٍ من المحتل فقط لكونه محتل، وان كان قوله الحقيقة، ولن يجد الجبرتي سوى ان يعترف بما فعلوا على انه الحقيقة، وان يؤكد فعلهم، فيعلق على على ذلك: " ولم يعجبني من هذا التركيب الا قوله المفعمة جهلا وغباوة" (١٩٠) .

والجبرتي لم يكن متجنيا او متهكما في حكمه هذا على المماليك، الذين يدعون الاسلام،والعثمانيين((اوباش العساكر الذين يدعون الاسلام،ويزعمون انهم مجاهدون،وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية،بمجرد شهواتهم الحيوانية)) (١٩١)،وما رآه من الفرنسيين((هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل،ولا يتدينون بدين)) (١٩٢)؛ عقد مقارنة تاريخانية لم يكن الدين أساسها إطلاقا،إنما أقامها على أساس-العدل-((فرأس المملكة وأركانها، وثبات أحوال الامة وبنيانها العدل والإنصاف، سواء كانت الدولة إسلامية اوغير إسلامية، فهما أس كل مملكة وبنيان كل سعادة ومكرمة فان الله تعالى أمر بالعدل ولم تكتف به حتى أضاف إليه الإحسان فقال تعالى((إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)) لان بالعدل ثبات الأشياء ودوامها وبالجور والظلم خرابها وزوالها

(١٨٩) بينما يرى إسماعيل الخشاب كاتب الديون الذي أنشأه نابليون،والصديق الحميم للجبرتي،أن السبب في مجيء الفرنسيين هو المعاملة السيئة للتجار والرعايا الفرنسيين، الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٣٧ ؛ الخشاب، أخبار أهل القرن الثاني عشر،ص٥٩.

(١٩٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٨.

(١٩١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٩٢.

(١٩٢) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ١٩١.

فان الطباع البشرية مجبولة على حب الانتصاف من الخصوم وعدم الإنصاف لهم والظلم والجور كامن في النفوس لا يظهر الا بالقدرة كما قيل(١٩٣) :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فلولا قانون السياسة وميزان العدالة لم يقدر مصل على صلاته،ولا عالم على نشر علمه، ولا تاجر على سفره))(١٩٤).

ولايسهل قبول الرأي الذي يذهب إلى أن الجبرتي حين خرج إلى الحاضر الراهن له،لم يحاول أن يصوغ التاريخ في لحظة الوعي بسياق حضاري مغاير أو أن الدعاية الفرنسية في مصر استطاعت خداع عالم كبير مثل الجبرتي،لان الجبرتي كان يعاين الوقائع على أساس من المقارنة والتاريخية المشبعة بالتجارب القائمة على الوعي والإدراك التام بمجريات الأحداث(١٩٥).

إن هذا النص يكاد يختزل الكثير من التفاصيل التي أرخ لها الجبرتي،ولم يخرج عن نطاق المقارنة التاريخية التي يعقدها بين المماليك والفرنسيين والعثمانيين،فعندما يكتب عن سوء تدبير المماليك،يكتب عن حسن خطط الفرنسيين العسكرية وتجهيزهم الحربي،فعن فساد تدبير الأمراء المماليك حين وصلت الأخبار بان الفرنسيين قرب وصولهم كتب:((ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربي ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقي ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين هذا وليس لأحد من أمراء

(١٩٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥١.
Hanna, Sami A. "The Egyptian Mind and the Idea of Democracy" , **IJMES** , Vol. 1, No. 3 (Jul., 1970), p.239 .
(١٩٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢.

(١٩٥) عبد الغني، الجبرتي و الغرب، ص ١٠.
Abo-Lughod , Ibrahim , Arab rediscovery of Europe , Princeton university press, (Princeton:1963),p.26.

العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير و إهمال أمر العدو))(١٩٦).

وبينما كان الأمراء والجند المماليك حريصون على حياتهم،وتنعمهم ورفاهيتهم،مختالون في ريشهم،مغترون بجمعهم،محتقرون شأن عدوهم،كان الفرنسيين قد فاجئوهم بخطتهم الحربية المحكمة فلم يأتوا إلا من البر الغربي،ببنادقهم المتابعة الرمي. وليس العثمانيين بأحسن من أقرانهم المماليك،فالجبرتي حدد ملامح الظلم العثماني مقارنة بافعال المماليك(١٩٧).

ولا تنتهي المقارنات أبدا عند الجبرتي فسوء التدبير كان من نتيجته أن يعم الخراب والتدمير في البلاد((وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة،جرى فيها مالم يتفق مثله في مصر و لا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين،فما راء كمن سمعَ))(١٩٨).

ثم أن الاختيار الدقيق للاية((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ))(هود:١١٧)،تعطينا الصورة الجلية التي رسمها الجبرتي في مخيلته عن المجتمع المصري وأرباب الحكم(المماليك،العثمانيين)،والفرنسيين على حد سواء،لما تحمله هذه الآية من دلالات صريحة لا تحتاج لتبيانها.فالرؤية الكامنة في مخيلة الجبرتي لم تخرج عن -العملية التاريخية-التي مرت بمراحلها الثلاث(مماليك-فرنسيين-عثمانيين)(١٩٩).

(١٩٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١-١٠.

(١٩٧) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٢.

(١٩٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٠.

(١٩٩)الجبرتي،عجائب،ج٤/ص ٣٥٠-٣٥٣ ؛ الخشاب، خلاصة مايراد من أخبار الأمير مراد،تحقيق:حمزة عبد العزيز بدر،دانيال كريسيليوس،العربي،(القاهرة:١٩٩٢)،ص٤٤ ؛ الترك، نيقولا، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية،تحقيق: ياسين سويد، الفارابي،(بيروت:١٩٩٠)،ص ٣٥.

وكنتيجة طبيعية لكل ما مضى فان النص الذي افتتح به الجبرتي سنة(سقوط حكم المماليك)يكاد يختزل في أعماقه -إن لم نبالغ- "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" الذي يحمل الكثير من الأحداث والشواهد التي كان الجبرتي نفسه ينظر إليها من خلال (عينين)الأولى تنظر إلى الفرنسيين وما قاموا به،والثانية تعود إلى الوراء لتستذكر ما كان قائماً قبلهم،ثم يقوم بمزج الحاضر بالماضي،ليخرج بخليط حضاري،يمتزج مع أمور طارئة حينا،ومتراكمة في مخيلته حينا آخر،لتعبر بالتالي عن أمله بحصول العدل والإحسان الذي اعتبره أساس الملك.وبالضرورة فان "العدل" عنده كان يساوي الان "الحرية" بأبهى صورها.

وتتضح الصدمة بدقة في المقاربة التاريخية، اذ كان المشايخ يشكلون القلب من الطبقة الوسطى باعتبارهم احدى القوى الحية التي تشكل منها المجتمع المصري في هذه الاونة ؛ اذ كانوا نخبة العلماء و المثقفين و الكتاب و المؤرخين وتكونت لديهم ثروات ضخمة دون دفع ضرائبها، ورغم هذه الحقيقة الواضحة الا ان البعض يتصور ان نفوذهم لم يبرز سوى بعد الحملة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص بعد اشتراكهم في الديوان الذي انشأه نابليون، تاريخيا نعرف ان الازهر ومشايخه ظل عبر اشتداد الظلم، وقام المشايخ بادوار مختلفة بين العامة و المماليك، وعمل اغلبهم بالتجارة، وكانوا في مأمن من مصادرة اموالهم ؛ وتراوح دورهم بين السلبية و الايجابية قبل مجيء الحملة، واثناء الحملة تعرف المشايخ و التجار بحنكة كبيرة حفظت لهم مصالحهم واموالهم، اذ تخلو الكتابات التاريخية من أي دور لعبه المشايخ الكبار ضد زحف الفرنسيين من الاسكندرية وحتى القاهرة، وكذا لم يشاركوا في المعارك الاساسية(شبراخيت[٢٠٠]، امبابة[٢٠١]، الاهرام)، وكان العامة

---

(٢٠٠) بعدما وصلت الحملة الفرنسية إلى غرب مدينة الإسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨ م، زحفوا على المدينة واحتلوها وثم أخذ نابليون يزحف على القاهرة عن طريق دمنهور حيث استطاع ان يحتل رشيد في ٦ يوليو/ تموز ووصل إلى الرحمانية وهي قرية على النيل وفى أثناء ذلك كان المماليك يعدون جيشا لمواجهة الجيوش الفرنسية بقيادة مراد بك حيث التقى الجيشان بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليو/ تموز ١٧٩٨ م إلا أن المماليك هُزموا واضطروا إلى التقهقر فقفل مراد بك عائدا إلى القاهرة والتقى الجيش الفرنسي والجيش المملوكي تارة أخرى في موقعة إمبابة أو موقعة

الحرافيش[٢٠٢] الى جانب فرسان المماليك في مقدمة المتصدين،كما لعب مشايخ وعلماء القاهرة الكبار الدور الاكبر في تسليم القاهرة للفرنسيين بعد فرار المماليك، وهم الذين اخذوا الامان من بونابرت[٢٠٣].

ولم تكن تلك الرزانة السياسية تعبر عن ضعف و خمول، بل كانت تشي ببعض ملامح هذا المشروع الجنيني للحداثة، ان التراكم المالي الذي توفر لديهم دفعهم الى ان يحسبوا خطواتهم التي لم تتسم ابدا بالتدهور فيخسرون اموالهم من جهة، ومن جهة اخرى كان لديهم ثمة حاجة ملحة في التساؤل عن الكيفية التي يمكن بها استثمار اموالهم في ظل الاوضاع المملوكية المتردية، مع المماليك افتقدوا الامن و الامان، على مستوى طرق التجارة، وعلى مستوى القوانين التي يمكن ان تنظم المعاملات و الضرائب في البلاد، من

الأهرام حيث هزم جيش مراد بك مرة أخرى في هذه المعركة الفاصلة في ٢١ يوليو/ تموز ١٧٩٨ م.هيرولد، بونابرت، ص ٤٢.

(٢٠١) جاءت بعد ما جرى في شبراخيت وهزم المماليك واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية وركب إبراهيم بك إلي ساحل بولاق، سميت معركة امبابة أو الأهرام لأن جيش مراد بك كان ممتد من إمبابة إلي الأهرام غرب النيل أما إبراهيم بك فكان مع جيشه وباقي أهل العاصمة في ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل يراقبون ما يحدث في الغرب، حدثت بتاريخ ٢٢ يوليو/تموز ١٧٩٨ م، وقادها نابليون بونابرت ضد إبراهيم بك ومراد بك وانتصر فيها نابليون بونابرت علي المماليك لفرق القوه العسكريه بين الطرفين ففريق المماليك كان يستعمل الفروسية اما نابليون فاستخدم المدافع والبارود و الاسلحة الحديثة آن ذاك.الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.

(٢٠٢) الحرافيش : جمع حرفوش، وتعني الشخص السيئ الخسيس من العامة.

(٢٠٣) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٣٠- ٤٢ ؛ عبد الحافظ، مجدي، " الوعي السياسي في مصر مابين عام الحجة و تولية محمد علي "، مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، عدد ٥٧، فبراير ١٩٩٢، ص ٤٣.

هنا كان موقفهم المتوجس و الحذر من الحملة وفي الوقت نفسه كان لديهم نوع من الامل لعلهم يجدون شيئا جديدا لدى الغزاة(٢٠٤).

هذا الخليط من الرهبة و الامل دفعهم الى الانتظار و الترقب، لقد سمعوا من التجار و الاجانب المقيمين، بعضا من الدعاية المتقنة التي طيرها نابليون بونابرت قبل زحفه على مصر، ولعلهم يجدون ما يخالف ما عهدوه لدى الاتراك في مقاومته حينما ارسل اليهم رسالته الاولى قائلا: "أني مسرور من سلوككم و قد احسنتم صنعا بعدم مقاومتي، اني جئت لابادة المماليك وحماية التجارة وأهالي البلاد الاصليين وفليطمئن الخائفون وليرجع الفارون الى بيوتهم، وليستمر الاهالي على اقامة الشعائر الدينية كالمعتاد، واطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم واملاككم، واطمئنوا على دينكم الذي احترمه"(٢٠٥).

موقف المشايخ هذا تم التمسك به خلال سنوات الحملة الثلاث، فعندما شكل نابليون ديوانه وجدنا على رأسه المشايخ الذين لعبوا قبل الحملة ادوارا سياسية، مثل الشيخ السادات و البكري اضافة الى عمر مكرم(٢٠٦)، ولم يشارك المشايخ الكبار على الاطلاق في ثورة القاهرة الاولى، رغم ان الضرائب و الاجراءات التي فرضها الفرنسيون كانت قد طالتهم، اكثر من ذلك اصدر ديوانهم خلال الثورة بيانين لتهدئة النفوس متهمين المماليك باثارة الفتنة، ولم تسلم الثورة من نقد المشايخ، فالجبرتي ينتقد الثورة باقذع الالفاظ، فوصف الغامة من الزعر و الحرافيش الذين كانوا يسكنون القاهرة بانهم خرجوا

---

(٢٠٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٥٨ .

(٢٠٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٨٥.

(٢٠٦) عمر مكرم بن حسين السيوطي (١٧٥٠-١٨٢٢) زعيم شعبي مصري .ولد في أسيوط إحدى محافظات مصر سنة ١٧٥٠ وتعلم في الأزهر الشريف .ولي نقابة الأشراف في مصر سنة ١٧٩٣، وقاوم الفرنسيين في ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠ .كان له دور في تولية محمد علي شؤون البلاد، حيث قام هو وكبار رجال الدين المسلمين بخلع خورشيد باشا في مايو سنة ١٨٠٥ .وحينما استقرت الأمور لمحمد علي خاف من نفوذ رجال الدين فنفى عمر مكرم إلى دمياط في٩ اغسطس / آب ١٨٠٩ وأقام بها أربعة أعوام ثم نقل إلى طنطا .توفي عام١٨٠٠ .الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٦٨.

عن الحد "وبالغوا في القضية بالعكس و الطرد وامتدت ايديهم الى النهب و الخطف و السلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور الناصر و الشوام و الاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، واخذوا الودائع و الامانات وسبوا النساء و البنات" (٢٠٧)، ولم يكن هجوم الثوار على مصالح المسيحيين من الاروام و الشوام سوى لتعاونهم مع المحتل، ولم يشترك في الثورة سوى صغار المشايخ وهؤلاء لم يكن لديهم ما يخافون عليه، لذا ليس بغريب ان يكونوا هم العقل المدبر للثورة (٢٠٨).

ولم يشترك المشايخ في ثورة القاهرة الثانية ايضا، بينما اشترك التجار الذين طالتهم اثار الحصار البريطاني على موانيء البلاد، ومن اشترك من المشايخ كان تحت اجبار العامة الذين وصفهم الجبرتي "بالاوباش و الحشرات" كما وصف احد المغاربة ممن تزعموا الثورة بانه "ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن او اهل او مال او غير ذلك بل قيل لا ناقتي فيها ولاجملي"، وعدم اشتراك كبار المشايخ الذين اتسموا طيلة الوقت بموقف المنتظر، قادهم الى الاساءة لهم من قبل العامة من الثوار فأهانوهم وضربوهم كما حدث للشيخ الشرقاوي و الشيخ السرسي، اذ اخذت "تضربهما الانكشارية ويسبوهما العامة باقذع الالفاظ ويرموا عماميتهما، وهذا الشيخ خليل البكري يسوقه العامة عاري الرأس ذليلا في الشوارع، وكذا فعلوا بالشيخ المهدي و الفيومي وغيرهما" (٢٠٩).

وقد أصيبت التجارة الخارجية في ظل الحملة الفرنسية باكبر نكسة ؛ بسبب الحصار الذي احكمه الانكليز على موانيء البلاد ومنعه التجارة الواردة و الصادرة، وكانت ضربة كبرى للامال التي علقت على النظام الجديد فقد حلموا بالمكاسب الكبرى التي ضاعت وسط الحصار، كما حلموا باستتاب الامن الذي ضاع وسط ثورات الاهالي ضد الفرنسيين، فلم يطلهم منها سوى الفوضى والقهر و القسوة، لقد وصل المشايخ الى

(٢٠٧) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ١٨٢.

(٢٠٨) الجبرتي، عجائب، ج٣/ ص ١٩٠ ؛ انيس، محمد احمد، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، ص ٦٩ .

(٢٠٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢١٠.

قناعة-بعد الفشل الذريع لكل مخططات الحملة الفرنسية- انه من الخطورة الاعتماد على قوة خارجية لضمان حرية مشروعاتهم الاستثمارية، فعلى الرغم من ان الحصار كان فرصة تاريخية لكي يستثمروا في مجال الصناعات التي توقف ورودها بعد الحصار، وكانت الخبرة الغنية متوفرة لدى الفرنسيين، ولدى من اتصل بهم من المصريين وكانت الفرصة متاحة لتعلم مهنهم الخاصة وان الحملة اعتمدت على موارد مصر الداخلية في تلك الاونة، وعلى الرغم من ذلك فانهم لم يستطيعوا استثمار الفرصة، وهذه نقطة جديرة بالدراسة و البحث لمعرفة اسباب ذلك، ورغم القناعة التي استخلصوها من خطورة الاعتماد على القوى الخارجية الا انهم وبسبب تفتحهم، واستعداداتهم السابقة، وحملهم لمشروع جنيني محلي سرعان ما تركوه جانبا، والتفتوا الى تلك النظم و التقاليد والاجراءات السياسية التي حملتها الحملة الفرنسية والتي لم تكن كل جوانبها شديدة السواد(٢١٠).

فعند نزول الجيش الفرنسي في الاسكندرية، صحيح لم تكن مصر خرابا تاما، وصحيح كان لديها مشروعها المحلي، لكن الصحيح ايضا انه عقب معركة الاهرام حينما انهزمت فلول المماليك هزيمة ساحقة على يد الفرنسيين، انتظر القاهريون ان يساقوا بحد السيف من قبل المنتصرين، الا ان هؤلاء الغزاة الجدد كانوا مختلفين عمن جاءوا قبلهم، حيث اتسمت افعالهم على نحو ظاهر - فيما عدا اخمادهم العنيف لثورتي القاهرة الاولى و الثانية - بانها اقل تعسفا عما عهدوه من قبل، واندهشوا عندما رأوى هؤلاء الفرنسيين الغزاة وهم يشترون غذائهم من التجار بدلا من ان ينهبوه، وهم يحاكمون بعض جنودهم الذين اتهموا بالسرقة او الاغتصاب باحكام وصل بعضها للاعدام، واذا بدا هذا المنطق المنتصر في البداية غير معتاد و غير مفهوم في نظر المصريين الا انهم افتتنوا به فيما بعد(٢١١).

(٢١٠) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ١٤٢.
(٢١١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٣.

كان لهذا الجانب التاريخي للصدمة وجه اخر ثقافي لا يمكن فهمه الا عبر المقاربة النفسية، ان تسربل الثقافة الغربية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص لتقاليد و اعراف وعادات المصريين عقب الحملة عمل على ان تتشكل في اذهانهم ما يمكن تسميته 'الانا الحائرة' مما ادى الى عدم اتزان 'الانا الجماعي' الذي يهدف الى حماية وعي الافراد من فظاظة قيم الغزاة التي جلبت افكارا وممارسات، اتسمت بانها ساحرة وصادمة في الوقت نفسه، وبانها غير قابلة للتمثل، اذ عندما يخضع الجهاز النفسي للافراط في الاثارات التي تاتي من الخارج تحدث صدمة تتحدد درجاتها تبعا لكيفيات التمثل الذي تحققه الحياة النفسية(٢١٢).

يستمر هذا الاستلهام في توسيع الانا من خلال تمثل فعلي سواء لتلك الاستثارات الغريزية للفرد او لتلك الاستثارات التي تنبثق من المحيط الاجتماعي و الطبيعي التي تكون بمثابة مهدد للغرائز الفردية، التي تؤثر بدورها على الاستثارات الاجتماعية من خلال الفكر و الايماءة و الاداء، وتأخذ تلك العمليات في التحليل النفسي مفهوم عملية الادماج النفسي، ان طابع التباين المفرط للثقافة الفرنسية التي بُثت في المصريين اثناء الحملة الفرنسية، جعد تحديدا لديهم عمل الادماج على المستوى الجماعي، واذا كان الاختلاف مصدر ثراء، الا انه كان عنصرا مفسدا في تلك الحالة، حيث كان الاختلاف بين اسهامين : الاول "مستعار" و الثاني "اصيل"(٢١٣).

النتيجة المباشرة لتلك الصدمة الحضارية هي الجنوح نحو تطبيق نوع من المبادلات الديناميكية الذاتية الخاصة بالروح المصرية، وهي مبادلات كانت تهدف حتى تلك اللحظة الى التصالح و التسامي، وذلك عن طريق التفاعل بين طموحاتها الانية وجذورها الفرعونية-الاسلامية، ونظرا لعدم القدرة على تمثل القيم الفرنسية، لاسيما لدى المصريين الذين كانوا على اتصال مباشر بجنود وعلماء بونابرت، نجد ان هؤلاء المصريين قد

(٢١٢) يوسف، مجدي، من التداخل الى التفاعل الحضاري، كتب عربية، بيروت، ص ١٢.

(٢١٣) ديورانت، ول، قصة الحضارة (عصر نابليون)، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار الجيل، (بيروت:٢٠٠٢)، المجلد ١١، ج ٤٣-٤٤، ص ٢٣٦.

احتفظوا بتلك القيم في شكل جسم غريب، دون ان يقوموا بعملية تمثل نفسي لها، من هنا نرى ان تلك الذكرى غير المتمثلة للتجارب المعيشية، وللقيم الغربية الانية عن طريق الفرنسيين قد ظلت في حالة تطفل على الروح المصرية بطريقة حققت فيها نوعا من "انا حائرة" وبالاضافة الى طابع التباين الجذري للثقافة الغربية بالنسبة للمصريين، فان طبيعة روابط المودة-الخاصة- والتي كانت قد نسجت بين بعض الفئات في المجتمع المصري و الفرنسيين اثناء الاحتلال تظل اساسية لكي نفهم لماذا لم يسمح مع ذلك مرور الزمن بتمثل جماعي للاسهام الفرنسي(٢١٤).

ثمة طابعان يمكن ذكرهما : الاول : الى جانب رد فعل الاغلبية بالرفض المعادي من قبل المصريين، كان هنالك العديد من روابط التعاطف الفضولي و المفتون والذي ظل طي الكتمان-خاصة من الجانب المصري- بين الطرفين، والثاني : قطعت هذه الروابط بعنف بعد هزيمة الحملة عسكريا، اذ هلك ثلثي الجيش الفرنسي خاصة عندما سلم الناجون من انفسهم مجبرين على الاستسلام سريعا للانكليز، اجمالا كان هناك بين اعوام ١٧٩٨ و ١٨٠١ علاقات شخصية قوية بني المصريين و الفرنسيين، وهذه العلاقات استثمرها الطرفان، ولم تعرف ابدا نهاية عنيفة، الا انها قد توقفت في الوقت الذي لم تستطع فيه المشاعر و التمثلات من جانب الطرفين ان تندمج بطريقة مناسبة، عاد الفرنسيون من الحملة ليعيدوا ارتباطهم بنزعة الولع بمصر، وهي نزعة مستقرة في الغرب منذ قرنين او اكثر، وذلك ليعبروا عن انفصالهم المؤلم عن ارض الاهرامات وسكانها، كان ممكنا ان يقام الحداد لديهم تدريجيا، بفضل الاثار و الكتابات و الرسوم التي جلبوها معهم، على حين ان المصريين لم تكن لديهم نفس الامكانية، خاصة بسبب علاقات المودة المختلطة في نظر الاقارب، والذين ظلوا في حالة ترقب، حيث ان قيم ونوايا الغزاة لم تتح لها فرصة لكي تفهم او تدمج، وبداية من تلك اللحظة وقعت الثقافة المصرية فريسة لموقف حداد معقد بمبادلاتها الانسانية و الثقافية مع غازيها الفرنسي الغربي، وبصفة عامة فقد قاد

(2 1 4) Hanna, "The Egyptian" , P. 240.

موقف عدم الاندماج النفسي هذا "الذات الفردية" أو "الجماعية الحائرة" الى تطبيق ما يسميه علم النفس "التوحد بالمعتدي"، وهي وسيلة دفاعية نفسية عندما تتعرض الذات لخطر خارجي فتستخدمه لكي تحافظ على تماسكها العقلي "فيتوحد الشخص المعتدى عليه بالشخص المعتدي، اما بان يعيد اخذ الاعتداء كما هو لحسابه، وإما بالتقليد النفسي او المعنوي لشخصية المعتدي، وإما بتبني بعض رموز القدرة التي تميزه"(٢١٥).

كانت مصر في نهاية القرن الثامن عشر تتطور فيها الافكار بشكل خجول وناشيء، وداخل هذا النموذج لم تستطع النزعة الحديثة، والتي هي في واقعها متطورة، الا انها غير متكيفة مع الثقافة المحلية، لم تستطع ان تكسب ارضا جديدة(٢١٦).

ان ما زعمه الفرنسيون من مهمة حضارية في مصر قد سد الطريق على المكتسبات و التحولات الانية المحلية للمجتمع المصري الذي قد باشر التحديث لتوه، كانت هناك فكرة رائجة في الغرب ضمن نزعة الولع بمصر،تقول ان مصر مشلولة تماما في تطورها بسبب المماليك، وعلى الرغم ان الحملة كان من اهدافها الرئيسة قطع الطريق على انكلترا ومستعمراتها الهندية، الا ان الفرنسيين كانوا قد رفعوا شعارات اخرى تخفي الاهداف الرئيسية و ذلك بادعائهم ان الحملة موجهة لكي تتيح للأمة المصرية ان تولد من جديد لكي تجد بعض من الروعة التي تشهد بعظمتها الماضية، وذلك لن يتأتى الا بعد ان يقهر الفرنسيون الاستبداد و الظلامية فيها، واذا كان المصريون قد اعتبروا ان الحملة الفرنسية قد اسفرت عن ثقافة و حداثة زائفتين، فهذا يعود بقدر كبير الى ان الفرنسيين و الغرب – بصفة عامة – قد انكروا تلك الحداثة الجنينية المحلية الكامنة، والتي كانت قد بدأت في القرن الثامن عشر بمصر وكما رأينا فقد قطع الطريق عليها من خلال احالة قسرية الى

---

(٢١٥) زاهر، محمد اسماعيل، ازمة الوعي العربي بين الحملة الفرنسية و الحملة الامريكية، مركز البحوث العربية و الافريقية، كتب عربية، بيروت، ص ٤٣.

(2 1 6) Lawson , Fred H. The Social Origins of Egyptian Expansionism During The Mujammad ‘Ali Period , first published , AUC , (Cairo:1999).p 42.

الماضي الفرعوني وبعد عقود قليلة حدث تبادل ثقافي بين فرنسا و مصر تحت حكم محمد علي، إلا ان الاسهام الغربي لم يستطع الاندماج المحلي بالحداثة المصرية الوليدة، وذلك بسبب الصدمة الحضارية الاولى، هذه المحاولات في الاخصاب المشترك للأفكار و للخبرة العملية التي لم تبلغ هدفها(٢١٧).

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) مجرد غزوة عسكرية صاحبتها اعمال من العنف و التدمير و الحصار و الملاحقة و المطاردة وارتكاب الاعمال المنافية للآداب، فان هذه الاعمال اللا أخلاقية تصحب عادة الحروب التي هي فعل لا اخلاقي بطبيعة الحال، وعلى هذا فانه لا يصح ونحن نكتب عن الحروب ان نبحث عن الاخلاق، ولا يجوز ان نحتكم الى معيار اخلاقي لتقويم عمل لا اخلاقي، ورغم ان هذه الاعمال التي تصحب الحروب و الغزوات تترك اثارا عميقة في النفوس يصعب نسيانها، وتولد احقادا عند الذين اصيبوا منها اصابات مباشرة يصعب التخلص منها، الا ان التاريخ لا يتوقف عندها كثيرا ولا تحتل في سجلاته صفحات كثيرة، ذلك ان البحث العلمي في التاريخ يقوم على اكتشاف علة الحوادث و اسبابها، ويتوقف عند النتائج المتداعية وتأثيراتها في مجمل الاوضاع والتطورات اللاحقة (٢١٨).

ولسنا نرمي بهذه الكلمات الى اغفال التداعيات التي تنتج عن اعمال الغزو، ولكننا ندعو الى تجاوزها و الكشف عن الثمرات و التقاطها، ولو كانت الشعوب المغزوة تتوقف عن مسلك غزاتها وذكرى الامها، لما ادرك احد معنى التأخر والتخلف، ولما اكتشف اسرار التغير و التقدم .

على ان البحث في تقويم الوجود الفرنسي في مصر يبدأ من نقطة الصدام بين قيم ثقافية مختلفة، فالمجتمع الفرنسي الذي حمل نابليون الى مصر كان قد عرف الثورة الصناعية

(٢١٧) سعيد، الاستشراق، ص ٨٣.

(٢١٨) الدسوقي، عاصم، الفرنسيون في مصر و استثارة العقل، روقة ضمن كتاب : مائتا عام على الحملة الفرنسية،ط١، مكتبة الدار العربية، (القاهرة : ٢٠٠٨)، ص ٦٢٩.

و تقدم في الانتاج، ووصل الى مرحلة من فلسفة التنوير حين ثارت البرجوازية على الحكم الملكي الوراثي المطلق وأقامت الجمهورية التي اعلنت مبادئ الحرية والاخاء و المساواة على طريق العلمانية، اما المجتمع المصري الشرقي العثماني الذي لاقى الفرنسيين فكان لا يزال مجتمعا يخضع لتحكم الفرق العسكرية المتناحرة (المماليك)، ولحكم اتوقراطي[٢١٩] يفرض نفسه إعمالا لفكرة ان طاعة ولي الامر من طاعة الله ورسوله، وكل هذا في اطار اقتصاد حرفي تجاري بسيط تسببت في بلورته العزلة الى رانت على البلاد بسبب تحول الطريق العالمي للتجارة منذ مطلع القرن السادس عشر للوصول الى الشرق الاقصى عبر جنوب افريقيا بدلا من طريق البحر الاحمر عبر الاسكندرية، ومن ثم انطفاء شرارة الاحتكاك بين الثقافات، وكان التجار قديما في رحلتهم من الشرق الاقصى الى اوربا عبر البحر الاحمر يمكثون في مصر مددا طويلة يتم اثناءها التأثير المتبادل في اللغة و المأكل و الملبس و السلوك، والاهم عدم الاحساس بالعزلة اذ العالم يطل على مصر، والمصريون يطلون على العالم من خلال هذه التجارة العابرة[٢٢٠].

على اي حال، فان استثارة العقل المصري تبدأ بالمنشور الذي اعده بونابرت يوم ٢٧ يوليو/تموز ١٧٩٨ وهو في عرض البحر وقبل ثلاثة ايام من نزول قواته الى الشواطيء المصرية في اول تموز، عندما قال : ان الشيء الذي يميز الناس بعضهم عن بعض هو العقل و الفضائل و العلوم فقط، وان الارض المصرية اذا كانت التزاما للحكام المماليك فان عليهم ان يظهروا الحجة التي كتبها الله لهم [٢٢١].

وعندما يقرأ المثقفون المصريون مثل هذا الكلام وفي مقدمتهم جماعة العلماء فلا بد من ان تهتز لديهم بعض المسلمات، فهاهم وجدوا من يقول لهم ان الحاكم الذي يستند

---

(٢١٩) الاوتقراطية : Autocracy : هي شكل منا أشكال الحكم، تكون فيه السلطة السياسية بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب، وكلمة 'اتوقراط' اصلها يوناني وتعني (الحاكم الفرد، او من يحكم بنفسه).الكيالي، موسوعة، ج ١ / ص ٣٨٢.

(٢٢٠)هوبزباوم، عصر الثورة، ص ٤٣.

(٢٢١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥.

الى تفويض الهي في الحكم و الى فكرة انه مستخلف في الارض كرها او طوعا، امر غير حقيقي وينقصه البرهان اذ ينبغي على الحاكم ان يبرز الحجة او الوصية الالهية في قيامه بالمنصب، كما وجدوا من يقول لهم ان العقل وحده وليس الايمان او التقوى هو معيار التفاضل بين الناس و التمييز بين البشر، وان من يعرف من العلوم اكثر فهو افضل من غيره واجدر بالحكم ممن لا يعرف، وحتى الجبرتي نفسه ابدى امتعاضا ونفورا كبيرا من هذا المعيار اذ قال: "هذا كذب و جهل وحماقة، كيف يتساوى الناس وقد فضل الله بعضهم على بعض!!"[٢٢٢].

وعندما يفكر بونابرت في تكوين مجالس استشارية(دواوين) في القاهرة وفي عواصم الاقاليم(المديريات) من صفوة المجتمع من العلماء و المشايخ و الوجهاء ورؤساء الطوائف لم يكن الهدف هو اقامة حكومة نيابية(ديمقراطية) لان فرنسا نفسها كانت انذاك وماتزال في مرحلة الثورة بكل اجراءاتها الاستثنائية ولم تكن قد توصلت بعد الى صيغة برلمانية مستقرة للحكم، ولكن الجديد هنا ان صفوة المجتمع عرفت انها يمكن ان تشارك في الحكم بدرجة او باخرى، وانها ليست عناصر هامشية ينفرد بامرها اولئك المماليك قادة الفرق العسكرية[٢٢٣].

ويبدو واضحا ان بونابرت استهدف من هذه التشكيلات الديوانية التعرف على راي نخب المجتمع حتى يتعرف سلفا على درجة الاستجابة لما قد يتخذه من قرارات، وليس من المستبعد ان جماعة العلماء رات في هذا الاجراء تطبيقا لفكرة الشورى، أي اخذ الراي دون الزام او التزام، وهو المبدأ الاسلامي الذي تجاوزه الحكام المسلمون في مباشرتهم لامور البلاد، وان من يتأمل اربعة عشر قرنا من حكم ولاة المسلمين لا يجد فيها الا كل

(٢٢٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٩٨.
(٢٢٣) ريمون، المصريون، ص ١٢٠.

اضطراب و كل اضطراب يؤدي الى تأخر و انهيار حيث سار هؤلاء الولاة في الحكم سيرة الرومان (٢٢٤).

ومن ناحية اخرى فان نوعية اعضاء هذه المجالس طبقا لاختيارات بونابرت جعلت النخب المصرية تدرك ان المصريين عبارة عن عدة قوى اجتماعية متوازية لا يفضل احدها الاخر، والا لماذا كان بونابرت يحرص على ان يكون في المجالس ممثلون عن التجار و الصناع، وممثلون عن مشايخ القرى و رؤساء البدو و الاعيان و الفرق العسكرية، وممثلون عن الاقباط و عن الاجانب، اما كيف اما كيف توصل بونابرت الى هذا التقدير النسبي لشرائح المجتمع المصري فهنا يأتي دور علماء الحملة الذين جاسوا خلال الديار في النجوع و القرى وحارات المدن يسألون هذا و ذاك لاحصاء نسبة تقريبية، ومن المعروف ان جهود هؤلاء العلماء في دراسة مختلف اوضاع المجتمع المصري كانت تقارير وضعوها امام بونابرت ليستنير بها في قراراته، ثم طبعت فيما بعد في الكتاب المعروف "وصف مصر"(٢٢٥).

وعندما اجتمع اعضاء الديوان العام الذي يضم ممثلين عن دواوين الاقاليم بما فيها ديوان القاهرة وطلب منهم ان يختاروا رئيسا للمجلس، اشار الجميع الى الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الازهر، الا ان المندوب الفرنسي الذي كان حاضرا اعترض و افهم المجتمعين ان الاختيار يجب ان يكون سريا عن طريق كتابة كل عضو الاسم الذي يراه صالحا ثم تسحب الاصوات(الاقتراع).وصحيح ان الاعضاء اجمعوا على الشيخ الشرقاوي بالاقتراع السري، الا ان الاسلوب الذي اتبع في الاختيار لا بد وانه جعل الصفوة تدرك الفرق بين ان تختار الجماعة قائدها، وان يفرض على الجماعة قائد على غير رغبتها، وعلى هذا، هل رات هذه الصفوة هذا الاسلوب من قبل، او هل سمعت ممن سبقها، او قرأت

(2 2 4) Al-Sayyid , "The Political ", P.132. ؛
مبارك، علي باشا، نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، (القاهرة : ١٨٨١)، ص ١٤.

(٢٢٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٨.

في ادبيات التاريخ عن مثل هذا الامر، الا يترك هذا انطباعا مغايرا كان له دور في اختيار محمد علي باشا واليا على مصر في ١٨٠٥ خلافا لرغبة السلطان العثماني [٢٢٦].

واذا استعرضنا جملة السياسات التي باشرتها الحملة الفرنسية بعيدا عن اعمال المطاردة و اجراءات القمع، فسوف ندرك حجم التغيير الذي تركه الفرنسيون في مصر و قيمة ما طرحوه من افكار الحرية و الاخاء و المساواة في التربة المصرية.

ففي مجال القضاء تم تحديد رسوم للتقاضي اما المحكمة الشرعية بواقع ٢٪ من قيمة المتنازع عليه، وكانت من قبل متروكة للاهواء و للمساومة و الابتزاز، كما تقرر ان يقتص القضاء من القاتل عن طريق المحاكمة و المرافعة، وكان الامر متروكا من قبل لمبدأ "الدية"، أي الحصول على ثمن دم القتيل و مطاردة اسرة القتيل للقاتل، و الاقتصاص منه بمعرفتها، وهي عادة ذميمة موروثة، وأكثر من هذا فان الفرنسيين انشأوا محكمة لكل طائفة من طوائف المجتمع : للاقباط و للشوام و الاروام ولليهود، مع حرية التقاضي امام المحكمة الشرعية لمن يرغب من اطراف الخصومة و النزاع[٢٢٧].

وقد أدت هذه الاجراءات الى حرمان الملتزمين من ممارسة شؤون القضاء و الادارة، وكان بونابرت يرى ان الملتزمين امراء اقطاع شأن امراء فرنسا الاقطاعيين الذين قضت عليهم الثورة الفرنسية ١٧٨٩، ومن ثم فكر في القضاء عليهم، وهو الاجراء الذي اقدم عليه محمد علي فيما بعد عام ١٨١٤، أليس ذلك اساسا لفكرة المجتمع المدني العلماني الذي يوفر لكل فرد فيه الحق في صيانة الذات دون ان تفرض عله شريعة محددة

(٢٢٦) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٢٩.
(٢٢٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٣.

الا باختياره، وكيف واذا كان المجتمع المصري انذاك مجتمع متعدد الطوائف، وجزء من عالم عثماني واسع يخضع لسلطة مركزية في اسطنبول والطائفة فيه هي وطن ابنائها(٢٢٨).

وفي اطار فكرة المساواة تحددت ضريبة التركات و الاموال المنقولة بمقدار ٥٪ ولم تكن محددة من قبل، وتم تعميم الضريبة على جميع من يقيم على ارض مصر ايا كانت جنسيته او عقيدته دون استثناء ودون تمييز عنصر على اخر، كما تم الزام الجميع بدفع الضريبة العامة للخزينة بما في ذلك الفرنسيين المقيمين في البلاد، ولما كان رجال الحملة متأثرين بآراء بالنظام الاقتصادي الفرنسي، فقد عملوا على تركيز الضرائب في ضريبة واحدة تؤخذ من الارض الزراعية باعتبار ان الزراعة هي المصدر الرئيسي للثروة (٢٢٩).

ومن ناحية اخرى فان من اتيح له من المصريين زيارة المجمع العلمي الذي اسسه بونابرت من جملة علماء الحملة (١٤٦ عالما) من تخصصات مختلفة تأسيا بالمجمع العلمي الفرنسي في باريس، لا بد وانه قد عقد مقارنة ذهنية بين مفهوم العلم السائد في الشرق و مفهوم العلم الوافد مع الفرنسيين، ولعل الجبرتي ادرك علوما اخرى غير العلوم الشرعية التي نشأ عليها ؛ ذلك ان المجمع العلمي كان يتكون من اربعة اقسام علمية : علوم رياضية، وطبيعية، واقتصاد سياسي، واداب و فنون(٢٣٠).

وعلى هذا فان المجمع في ابسط مظاهره كان وسيلة التعرف على حجم العلوم و الافكار على الشاطيء الاخر من البحر المتوسط، ولا ينبغي ان ننسى في هذا الخصوص ان مصرت عرفت لاول مرة الصحيفة التي يتابعون من خلالها الاخبار الرسمية مثل الجوائب

(٢٢٨) ابو الفضل، محمد عبد الفتاح، الصحوة المصرية في عهد محمد علي، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ١٩٩٩)، ص ٢١.

(٢٢٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣/ ص ٧٩ ؛ هازار بول، الفكر الاوربي في القرن الثامن عشر من منتسكيو الى ليسنج، ترجمة : محمد غلاب، جامعة الدول العربية، (القاهرة : ١٩٥٧)، ج١ / ص ٢٢١.

(٢٣٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٦ ؛ هوبزباوم، عصر الثورة، ص ٨٩.

المصرية Courier de Egypt و العشرية المصرية Le Decade Egypt و تعليق المنشورات على الجدران، وذلك بدلا من المنادي الذي كان يعلن للناس اوامر الوالي، ومن الواضح ان محمد علي باشا الذي اصبح واليا على مصر في ١٨٠٥ واصل خط السياسيات الفرنسية في المجالات الاقتصادية و السياسية بشكل عام[٢٣١].

و لا يعني هذا ان كل المصريين الذين خالطوا علماء الحملة كانوا سواء في النظر اليها بل كان هناك من اعتقد بان اعضاء المجمع العلمي ما هم إلا جماعة من السحرة احضرهم بونابرت معه ليساعدوه في انجاح عملياته العسكرية، ومن الطريف ان نذكر ان ريجو وهو احد الرسامين الفرنسيين اراد ان يرسم صورة نصفية لرجل نوبي، وما ان شرع في تلوين الراس و الصدر حتى هب النوبي مذعورا يطلب من ريجو ان يعيد اليه راسه و صدره، والحكاية ان النوبيين يعتقدون ان اجزاء الجسم المصورة لا تلبث ان تتيبس في جسم صاحبها و لا مفر من موته في النهاية، وفي هذا دلالة على نوع من الثقافة السائدة [٢٣٢].

ولعل تأثير الحملة الفرنسية العقلاني يبدو في المقارنة التي عقدها الجبرتي بين فرنسا و انكلترا عندما نزلت الحملة الانكليزية بقيادة فريزر شواطيء الاسكندرية في ١٨٠٧، أي بعد خروج الفرنسيين من مصر بست سنوات، اذ يقول في حوادث ذلك العام انه سمع حوارا دار بين العلماء حول المفاضلة بين الانكليز و الفرنسيين حيث حاول الانكليز استقطاب مماليك الالفي، فما كان من الجبرتي الا ان قال : "لاتصدقوا اقوالهم في ذلك-أي الانكليز- فإذا تملكوا البلاد لا يبقون على احد من المسلمين، وحالهم ليس كحال الفرنساوية، فان الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية و التسوية، اما هؤلاء

(٢٣١) الصاوي، فجر الصحافة، ص ٧٦ ؛ فارجيت، جي، محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة محمد رفعت عواد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٥)، ص ٥٦.

(2 3 2) Chabrol : Essai Sur Les Moeurs des Habitans Modernes de L'Egypte , D.E.2 Edition , T.XVIII.Etat Modern , pp.330-3.

الانكليز فإنهم نصارى على دينهم، ولا تخفى عداوة الاديان، ولا يصح الالتجاء اليهم" [٢٣٣].وهذا التقدير من الجبرتي ليس هينا في ضوء ثقافة العصر السائدة، ومع هذا فان الجبرتي كانت له ملاحظات في الجانب الاخلاقي ضد الفرنسيين في مصر في مقدمتها محاكاة النسوة الفرنسيات السافرات التي وصفها "بالتبرج و الخروج على اصول الحشمة و الحياء" [٢٣٤].

وعلى هذا جاز لنا القول ان الحملة الفرنسية بصرف النظر عن وجهها العسكري القبيح، كانت صدمة حضارية وثقافية حتى ولو كان لدى بعض علماء مصر من امثال الشيخ حسن العطار قدر من علوم الغرب، كما كانت الحملة بما حملته من افكار الحكم و السياسة و الاقتصاد بداية ظهور تنازع الولاء بين الفكرة الدينية الاسلامية العثمانية التي تقوم على طاعة الخليفة و السلطان و اولي الامر، وبين الفكرة العلمانية التي تقوم على عزل السياسة و امور الحكم، التي هي امور متحولة و متغيرة، عن الدين الذي هو امر ثابت.

ومن عجب ان العثمانيين بقيادة سليم الاول وهم في حربهم مع المماليك لدخول مصر، ارتكبوا الكثير من الاهوال و الفظائع، فقد حزوا رءوس من وقع في ايديهم، وقتلوا من كان يحتمي بمآذن المساجد، ونهبوا القماش و السلاح و الخيول و البغال و الجواري و العبيد، ونهبوا القناديل و الحصر من الزوايا، وأحرقوا جامع الامير شيخون في حي الصليبية، واقتحموا الجوامع بحثا عن المماليك الجراكسة، واقتحموا الازهر وجامع الحاكم بامر الله وجامع ابن طولون وغير ذلك من المزارات، بل اقتحموا مشهد السيدة نفيسة ودخلوا الى ضريحها وداسوا على قبرها، واخذوا قناديل المشهد من الفضة و الشمع الموجود و البسط المفروشة، وقتلوا في مقامها جماعة من المماليك الذين كانوا يجتمعون بها،

(٢٣٣) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٤٢.
(٢٣٤) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٤٦.

الى اخره، على نحو ما ذكر ابن اياس في كتابه "بدائع الزهور في وقائع الدهور، وهو الذي عاصر حكم المماليك وبدايات الحكم العثماني(٢٣٥).

مع ذلك فإن معظم الباحثين يصفون دخول العثمانيين مصر "بالفتح" وهو معنى ديني، ولايقولون "الغزو و الاحتلال"، ولا يتوقفون في تاريخ الحملة الفرنسية الا عند اقتحام العسكر الفرنساوية للجامع الازهر بخيولهم، ولا يذكرون اقتحام العسكر العثمانيين للأزهر و غيره من الجوامع، ولمشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها !!.

ألم يفعل العثمانيون ما فعله الفرنسيون وزيادة ؟ فلماذا هذا الخلل في المعايير، هل رابطة العقيدة تمنع من ذكر الحقيقة ؟ ان الامر بحاجة الى استثارة التفكير العقلي بحثا عن العلل و الاسباب واكتشاف النتائج بدلا من الجري وراء العاطفة و الامتثال لها، ودون محاكمة اخلاقية لوقائع التاريخ و احداثه التي تجري بمعزل عن الاخلاق اصلا.

(٢٣٥) ابن اياس، بدائع، ج ٣ / ص ٧٣.

المبحث الثاني

نظام الحكم الفرنسي في مصر كما صوره الجبرتي

حدد بيان بونابرت بدقة اطار السياسة الفرنسية فيما يتعلق بالمصريين : اللجوء الى العلماء لتكوين مؤسسة تلعب دور الوسيط بين المحتلين و الشعب، وتصعيد المصريين لشغل الوظائف الادارية التي كان يعهد بها الى عثمانيين و مماليك حتى ذلك الحين، وفي مذكرته حول الادارة الداخلية لمصر، يحدد بونابرت بوضوح هذه السياسة :

أن العربي عدو للاتراك و للماليك، وهؤلاء لم يحكموا الا بالقوة، والعلماء، كبار المشايخ، هم زعماء الامة العربية، وهم يتمتعون بثقة و محبة جميع سكان مصر، وحتى تتسنى قيادة سكان مصر لا بد من (وسطاء) زعماء، وقد فضلت العلماء و فقهاء الشريعة لانهم كانوا كذلك بشكل طبيعي، ولانهم مفسرو القران ولان اكبر العقبات التي واجهناها وسوف نواجهها في المستقبل ناشئة عن افكار دينية، لان هؤلاء العلماء يتميزون باخلاق لطيفة ويحبون العدل، واغنياء و تحركهم مبادئ اخلاقية سامية، وقد جعلتهم مهتمين بادارتي، واستخدمتهم للتحدث الى الشعب و كونت منهم دواوين قضاء، وكانوا القناة التي استخدمتها لحكم البلد[٢٣٦] .

ما كاد بونابرت يستقر في القاهرة، في قصر محمد بك الالفي، على ضفاف الازبكية، حتى اتجه من فوره الى انشاء مؤسسة سوف تشكل عماد التنظيم الفرنسي في مصر : الديوان. ومن الواضح ان تكوين الديوان قد صاغه، من حيث الجوهر على الاقل،

(2 3 6) Correspondences Et Relation De J. FIEVEE Avec Bonaparte (1802-1813) , (Paris:1836) , P.342.

المستشاران الشرقيان لبونابرت : فينتور[٢٣٧] و ماجللون [٢٣٨]، اللذان اعدا قائمة تظهر في الامر الصادر في ٢٥ تموز ١٧٩٨ : السادات و الشرقاوي و الصاوي و البكري و الفيومي و العريشي و السرسي و عمر مكرم و الامير [٢٣٩]، ولاجل هذا السبب كان الجنرال قد اعرب عن رغبته في ان يرجع "المشايخ الكبار" الذين غادروا القاهرة اليها، الا انه اذا كان المشايخ السادات و الشرقاوي قد عادوا، بعد ان واجهوا بعض المتاعب، فان عمر مكرم قد اختار البقاء مع ابراهيم بك، على ان اسمه مذكور في الامر اليومي [٢٤٠]، ومن جهة اخرى يشير الجبرتي الى ان السادات لم يحضر في يوم الافتتاح،متذرعا بوعكة صحية المت به.وفي قائمته الخاصة، ينسى الجبرتي الشيخ الامير و يضيف محمد المهدي و الدمنهوري و يوسف الشبراخيتي ومحمد الدواخلي الذين لا يبدو انهم قد شاركوا في المجلس، وبعد هذا التحديد، يبدو ان بوسعنا اعتبار ان الديوان قد ضم، خلال فترة وجود تعد من جهة

---

(٢٣٧) فانتور : Venture مستشرق و اكبر اعضاء المجمع العلمي سنا، وكبير تراجمة الحملة الفرنسية و مستشار نابليون ومرجعه في المسائل الخاصة بالشرق و الشرقيين، قضى نحو اربعين سنة في بلاد الشرق، كان يعرف اللغات التركية و العربية و الرومية و الايطالية و الفرنسية . سوليه، علماء، ص ٢٧٣.

(٢٣٨) ماجللون : (Charles Magallon) تاجر فرنسي اقام بمصر اكثر من عشرين عاما، وكان يشرف على مصالح مواطنيه في القاهرة بعد انتقال القنصلية الفرنسية الى الاسكندرية عام ١٧٧٧، ثم اصبح قنصلا عاما لبلاده عام ١٧٩٣،= = وقد ردد ماجللون في رسائله الى المسئولين في فرنسا الشكوى من سوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين، وعدد مزايا الاستيلاء على مصر و السيطرة على البحر الاحمر . سوليه، علماء، ص ٢٧٢.

(٢٣٩) للاطلاع على معلومات و تفاصيل كاملة حول الشخصيات المذكورة، ينظر لطفا : الرافعي، عبد الرحمن، تاريخ الحركة القومية و تطور نظام الحكم في مصر،(د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:٢٠٠٠)، ج ٢ / ص ص ٢٣٣-٢٥٥.

(٢٤٠) ورد الامر اليومي لانشاء الديوان في : الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧١ ؛ كوريه دليجيبت، العدد ٢٣، ٩ نيفور، السنة السابعة للجمهورية الفرنسية، ٢٧ ديسمبر ١٧٩٨ . كما وردت نسخة من الامر اليومي في :

Correspondences de Napoleon , Paris , vol.5 , No : 3785 .

اخرى قصيرة و جد متقطعة، ثمانية اعضاء، الستة الذين تجمع عليهم المصادر: (الشرقاوي، الصاوي، البكري، الفيومي، العريشي و السرسي)، بالاضافة الى الامير و المهدي، وفيما عدا عمر مكرم و السادات، فهؤلاء هم المشايخ المذكورون في اجتماع ٤ تموز ١٧٩٨ بالاضافة الى السرسي(٢٤١).

و قد ارتأى امر ٢٥ تموز وجوب اجتماع الديوان مساءا ذلك اليوم نفسه، وقيامه باختيار رئيسه و كاتم سره و تراجمته، وعقد اجتماعات يومية (يحضرها بشكل دائم ثلاثة اعضاء) وتعيين اثنين من اغوات الشرطة و لجنتين من ثلاثة اعضاء لمراقبة الاسواق ولتوفير المؤن في القاهرة، وقد سارت الامور بايقاع بطيء الى حد ما، وذلك دون شك بسبب المشكلات التي طرحها انشاء الديوان، ووفقا للجبرتي، فان الديون لم قم فعليا الا في ٢٧ تموز حيث اختير الشيخ الشرقاوي رئيسا له واختير المهدي سكرتيرا، ولا يبدو ان المشايخ الذين جرى الاتصال بهم لمعرفة مواقفهم، فيما عدا السادات، قد فكروا في التنصل من مهمة لا شك انها بدت لهم متماشية مع المهمة التي حددتها لهم التقاليد، حتى ولو كان الحاكم غازيا اجنبيا، فالسلطة الشرعية قد تلاشت، والسيادة العثمانية تبدو قائمة، وعلى حال، فان المشايخ كانوا قد تولوا بالفعل مسؤولياتهم منكبين على تصريف شؤون المدينة في ٢٢ تموز، ومن الواضح اننا بازاء اشخاص كانوا منذ عشرين عاما محاورين للمماليك و ممثلين للسكان و هم رجال كبر في السن (كان اغلبهم في الستين) وذوو خبرة سمح نجاحهم الاجتماعي و ثراؤهم بتوقع اعتدالهم(٢٤٢).

على ان الاجتماع الاول ابرز حدود التعاون الذي يمكن للفرنسيين انتظاره من المشايخ، وقد حضر الاجتماع كتخذا الباشا مصطفى بك، وقاضي العسكر، الامر الذي بدا انه يؤكد تهدئة انزعاجات المشايخ، الا انه عندما اراد الفرنسيين الزام المجلس بعدم اختيار أي مسئول كبير من بين المماليك، اعترض المشايخ على ذلك وقالواان سوقة مصر

(٢٤١) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٧٢.
(٢٤٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨.

لا يخافون الا من جنس المملوك، ولا يحكمهم سواهم"، ومن ثم فقد اختير من بين المماليك أغا الانكشارية (محمد اغا المسلماني) و الوالي (علي اغا الشعراوي) و المحتسب (حسن اغا محرم)، أي الوظائف الثلاث التي يتوقف عليها حفظ النظام، من زوايا مختلفة، وقد اوضح المشايخ ان هؤلاء المسئولين ينتمون الى (البيوت القديمة) في القاهرة، واتخذ المشايخ الموقف نفسه عندما طلب اليهم الفرنسيون التدخل حتى يتوقف النهب الذي كان قد بدأ مساء معركة الاهرام، واستمر بالرغم من الاختام الموضوعة على بيوت المماليك، فقد رد المشايخ : "هذا فعل الجعيدية و اسافل الناس، هذا امر لا قدرة لنا على منعه وانما ذلك من وظيفة الحكام"(٢٤٣) .

وواضح ان المشايخ كانوا مستعدين لان يلعبوا، لدى السلطات المحتلة، الدور الذي لعبوه تقليديا، وهو دور الناصحين، والوسطاء لمصلحة الرعية، لكنهم لم يروا ان يمسكوا بمهام الادارة و حفظ النظام التي كانوا يرون انها تنتمي عن حق الى النخبة العثمانية و المملوكية التي حكمت البلاد منذ ثلاثة قرون، ولم يكن المشايخ قد قالوا لحسن باشا والي مصر العثماني في عام ١٧٨٦ شيئا اخر، ومن هذه الزاوية لم يكن بوسعهم الا ان يستاءوا من قيام الفرنسيين بتعيين مسيحي شرقي، بارتلمي سيرا في منصب الكتخذا مستحفظان(قائد الانكشارية)، حيث ان قيادة هذا الوجاق كانت، على مدار جزء كبير من القرن الثامن عشر، من نصيب اولئك الذين هيمنوا على الحياة السياسية في مصر، وكان هذا الاجراء صارما وضع السكان تحت سلطة مسيحي، عادت عليه بانعدام عظيم للشعبية، واسهم فرط الرمان، وهو الاسم الذي اطلقه عليه العامة، بنصيب وافر في جعل السيطرة الفرنسية غير محتملة في القاهرة (٢٤٤).

(٢٤٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٨.

(٢٤٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٦ ؛ "وثائق تاريخية عن الحركة الدستورية في مصر من اواخر القرن الثامن عشر"، مجلة الطليعة،(القاهرة)، ع٧، السنة الخامسة، تموز ١٩٦٩، ص ١٥٨.

و قد اتخذ الديوان من دار قائد اغا في الازبكية مقرا له، ولم تكن اختصاصاته قد حددت بدقة في امر ٢٥ تموز، ويشير الجبرتي الى ان وظائفه كانت مقصورة على الاحاطة بالاعمال الاجرامية و على المعاملات المالية و على اصدار مكاتيب امان للمماليك الراغبين في العودة الى القاهرة، و الواقع انه يبدو انه قد عمل كمؤسسة ذات طابع استشاري، حيث لعب دور الوسيط بين السكان المصريين و السلطات الفرنسية، وهو ما يعني اضفاء طابع مؤسسي و دائم على سلطة معنوية كان العلماء يمارسونها في ظل المماليك(٢٤٥).

و منذ ٢٩ تموز تدخل الديوان بشأن قرض كان الفرنسيون يريدون قرضه على التجار المسلمين و الاقباط و الشوام المسيحيين، لكن الهياكل التقليدية قد واصلت لعب دورها، ففي الاول من آب بمناسبة قرض مفروض على الحرف، اتجه الناس الى الازهر و طلبوا عون المشايخ، وكثيرا ما تدخل مشايخ الديوان للمساعدة على حل مشكلات طرحت بشأن المماليك الاسرى او الذين غادروا القاهرة والذين تعرضت ممتلكاتهم وحريمهم لمصاعب مع الادارة الفرنسية، ففي ايلول ١٧٩٨ استعدى دوبوي (حاكم القاهرة) زوجة عثمان بك الجوخدار التي كانت قد لجأت الى الست نفيسة(زوجة مراد بك) بسبب مسالة تتعلق بممتلكات زوجها، وقد لجأت الى الشيخين المهدي و السرسي اللذين اجتهدا في مساعدتها في مفاوضاتها الصعبة مع السلطات الفرنسية(٢٤٦).

ومن جهتهم، وجد الفرنسيون فوائد في استخدام مرجعية مصرية لتأمين سياستهم الخاصة، ففي ٢٩ ايلول دفعوا الديوان الى كتابة تقريرين موجهين الى السلطان و الى شريف مكة (٢٤٧) علقت نسخ منهما في شوارع القاهرة، حتى يطلع عليها سكان القاهرة، وهكذا جرى التذكير بان الفرنسيين هم اصدقاء السلطان الذي كان اسمه يذكر في خطبة

---

(٢٤٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ٦٣ .

(٢٤٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٣.

(٢٤٧) وثيقة رقم ١٦، حافظة ٢٠٦، ١٣ مسيدور سنة ٦ من اقامة الجمهور الفرنساوي أي ١٧ محرم سنة ١٢١٣ / ٢ يوليو ١٧٩٨، محفوظة في ارشيف المكتبة المركزية، جامعة القاهرة .

صلاة الجمعة، والذي كان تعيين مصطفى اغا كتخذا الباشا،واليا، يؤكد سلطته على مصر، وقد جرى اثناء ذلك اظهار مراعاة للإسلام شهد عليها من جهة اخرى الاهتمام الذي احاط به الفرنسيون الحج و اقامة الاعياد الدينية(٢٤٨).

و الحال ان هذا التبادل للخدمات قد وجد ترجمة له في فوائد تافهة حصل عليها المشايخ، فقد كفل لهم مرجعية و هيبة كبيرتين لدى السكان و امكانية تعامل سهل نسبيا مع السلطات الفرنسية التي ابدت لهم مراعاة متملقة و خصصت لهم راتبا منتظما جرى تحديده في نهاية الامر بـــ ١٢٠٠ جنيه سنويا (٢٤٩).

على انه لا يبدو ان تجربة الديوان الاولى هذه قد حققت كل النجاح الذي كان بونابرت ينتظره منها، و الجبرتي في سرده لاحداث النصف الثاني من سبتمبر / ايلول ١٧٩٨ يشير الى ان الاهتمام بالديوان قد فتر : "برد امر الديوان ... فاقاموا اياما يذهبون فلا ياتيهم احد فيقومون الى بيوتهم، ثم تركوا الذهاب فلم يُطلبوا" . ويصعب تفسير هذا الموقف وذلك بقدر ما ان الفرنسيين قد اتجهوا الى اقامة مؤسسة دُعي المصريون الى المشاركة فيها، فقد جرى انشاء محكمة تجارية في ١٠ سبتمبر / ايلول مؤلفة من تجار مسلمين و اقباط ويرأسها القبطي ملطي، وهو تكوين لا شك انه يفسر، وذلك ايضا بقدر ما ان اسلوب الفرمان كان ركيكا، واثار هذا الفرمان عداوة الجبرتي السافرة لهذه "البدعة السافرة" (٢٥٠)، وربما كان بونابرت يتهيأ للانتقال الى تنظيم اكثر تعقيدا سوف يرمز اجتماع "الديوان العمومي" في اكتوبر / تشرين الاول الى تدشينه(٢٥١).

بعد فترة الفزع و الخوف التي ميزت وصول الفرنسيين، نشأت علاقة اكثر انفراجا بين المحتلين و الشعب المصري، و لابد من افتراض ان العودة الى النظام، والتي فرضها

(٢٤٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨.
(٢٤٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٢.
(٢٥٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٨.
(٢٥١) ريمون، المصريون، ص ٦٣.

الجيش الفرنسي، والتدابير المتخذة ضد النهب الشامل، قد اسهمت في تهدئة الخواطر و في اعادة الثقة، فأعادت الدكاكين فتح ابوابها وعادت النشاطات التجارية الطبيعية الى استئناف مجراها في القاهرة (٢٥٢).

وقد اتجه الفرنسيون و المصريون الى تعرف كل طرف على الاخر، وعلى الجانب الفرنسي كانت خيبة الامل عظيمة، فواقع القاهرة لم يكن يتماشى مع الامال الناشئة عن قراءة كتب الرحالة المتفائلين، والحال ان هؤلاء العسكريين، ضباطا و جنودا عاديين،قد اكتشفوا مدينة رأوا انها قذرة و فقيرة وسيئة البناء(٢٥٣).

في ٧ اكتوبر / تشرين الاول، مثل اجتماع الديوان العمومي اوج سياسة بونابرت الرامية الى استمالة نخب البلد، وإقامة مؤسسات تكون مرتبطة بالحكم، وقد جرى التمهيد لهذا الاجتماع بتحضير طويل، حيث كان على كل اقليم ان يرسل وفدا من ثلاثة علماء و ثلاثة تجار وثلاثة فلاحين(يختار القادة من بين الاعيان مشايخ البلاد ومشايخ العرب)، وذلك بالطبع مع استبعاد "اولئك المعادين لنا بشكل سافر" وقد شقت هذه الوفود طريقها الى القاهرة، حيث جرى للمندوبين القادمين من الاقاليم مخصصات قدرها بطاقة للفرسخ الواحد كتكاليف انتقال و بطاقة لليوم الواحد خلال الاقامة في القاهرة، و الحال ان الجلسة الافتتاحية التي عقدت في الازبكية، قد وصفتها صحيفة الكوريه دو ليجيبت بالتشديد المناسب على اجتماع كان بوسعه ان يذكر الفرنسيين بانعقاد مجلس الفئات العام : "**ان جمال الملابس الاسلامية ووقار الشخصيات و العدد الكبير من الخدم المرافق لهم انما تسهم في اضفاء جلال عظيم على هذا الاجتماع**" (٢٥٤) .وقد اعلنت الصحيفة انها سوف تواصل

(٢٥٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٦.

(2 5 3) Vincennes , MR , 525 , Letters du General Morand , II September 1798 , malus , 1892 , 70. L.J. Bricard , 1891 , 314 , G Wiet , 1941 , 171.

(2 5 4) Le Courrier De L'Egypte , No.109 . Du Germinal Au IX (13 Sep. 1798).

هذه التغطية الصحفية الاولى "ما سوف يكون بوسع هذا الديوان طرحه مما هو مفيد، أكان من الناحية السياسية ام من ناحية معرفة رجال مجردين من التعليم او التمدن"(٢٥٥).

و الحال ان الكلمة الافتتاحية التي تلاها ترجمان، قد ذكرت بالمزايا التي تتمتع بها مصر(التجارة،الخصوبة)، وقد اجتذبت هذه المزايا سلسلة طويلة من المسيطرين، كان اخرهم الاتراك،اسوأهم، اما الفرنسيون فقد جاءوا لتحرير مصر و اعادة الازدهار اليها، وهم ينتظرون من الديوان اراء و نصائح، حيث يقرر القائد العام ما يجب عمله، ثباتا على مبدئه، يبين الجبرتي الاسلوب المزخرف لهذه الكلمة و تعبيراتها المحرفة، واختيار الرئيس الاول لا يمثل مشكلة : فعلى الفور، اقترح احد الحضور اسم الشرقاوي، ويعلق الجبرتي ان الترجمان قال : "نونو، يعني لا لا " (٢٥٦)، وطلب اقتراعا ببطاقات مكتوبة (وان لم تكن سرية)، كان عليه ان يستفيض في شرح نظامه، اذ من الواضح ان هذا الاجراء لم يكن مألوفا على الحاضرين، وتم انتخاب الشرقاوي بأغلبية قوية، وعندما حل المساء، جاع المندوبون، فانقض الاجتماع على ان يجتمع في اليوم التالي(٢٥٧).

في اليوم التالي، اتجه الديوان العمومي الى انتخاب ديوان خاص من ٢٨ عضوا، إلا ان الامر انتهى الى تكليف ديوان من ١٤ عضوا بأعداد عمل الديوان العمومي، وقد ضم عددا من المشايخ خاصة الشرقاوي و البكري و الصاوي و الفيومي و المهدي، وكلهم اعضاء في الديوان الاول، ثم جرى اختيار الشرقاوي رئيسا و المهدي كاتما للسر(٢٥٨).

و في ٨ اكتوبر/تشرين الاول، اجتمع الديوان بجدول اعمال اشتمل على اربع مسائل رئيسية : سير عمل المحاكم، القضايا الشرعية، حجج العقارات، المواريث، وقد

(2 5 5) Le Courrier De L'Egypte , No.110 . Du Germinal Au IX (14 Sep. 1798).

(٢٥٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٦.

(٢٥٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٧.

(٢٥٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٨.

طلب الى الديوان الخاص تقديم مشورته، وكان عليه ان يقدم ردا في يوم الخميس ١١ اكتوبر / تشرين الاول، وقد دارت مناقشة كبرى حول مشكلة الالتزام، وبما ان كبار العلماء كانوا حائزين لالتزامات، فلم تكن لهم مصلحة في تحبيذ تغير في نظام الضرائب في مصر، وفي هذه المسألة، كانت مصالحهم متعارضة بشكل اساسي مع مصالح مشايخ البلد، فجرى الابقاء على النظام القديم مع الغاء الاعباء الاضافية التي فرضها المماليك، ومن المهم ملاحظة ان الجبرتي لا يورد أي صدى في كتابه لهذه المناقشة، وفيما يتعلق بالتقاضي امام المحاكم الشرعية، كان الاستنتاج هو ان من الافضل ترك الامور على حالها، الامر الذي يبرره واقع اننا ازاء مسألة تتصل بالوضعية الدينية للمسلمين، وقد جرى اطلاع الفرنسيين على التقاضي التقليدي، وبتحريض منهم، جرى الاتفاق على مجرد تنظيم حصة الرسوم التي يحصل عليها القضاة، بشكل يؤدي الى تجنب كل تحايل، وقد طرحت مشكلة المواريث بشكل مماثل، وجرى تبادل الاراء مع الفرنسيين حول قواعد تتصل بانماط توزيع التركات، الا انه لم يكن من الوارد ان تحدث مناقشة و ذلك بالنظر الى طابعها القراني (٢٥٩).

و كان هناك مجال ارحب بكثير فيما يتعلق بالضريبة على الممتلكات العقارية، وكانت مشكلة التسجيل معقدة كما كانت تتطلب وقتا وجهدا لحلها، وكان الحل الابسط يتمثل في تحديد ضريبة ثابتة على الممتلكات العقارية، بحسب طبيعتها و موقعها، مع تحديد فئات تتحدد الضريبة بموجبها، وهذا الاقتراح الذي طرحه الديوان في ١١ اكتوبر/تشرين الاول، وافق عليه الفرنسيون الذين رفعوا بعض الشيء المبالغ التي اقترحها اعضاء الديوان، ولم يضع الفرنسيون وقتا لتنفيذ هذا الاقتراح، فقد صدر امر بونابرت في ١٦

(٢٥٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٤ ؛ أنيس، محمد، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، دار النهضة العربية، (القاهرة:١٩٧٢)، ص ٣٦.

اكتوبر / تشرين الاول وصدر الامر باجراء احصاء فوري لعقارات القاهرة من جانب المهندسين و كان على جباة الضرائب ان يبدءوا في جباية الضريبة الجديدة[٢٦٠].

وبدا ان سياسة بونابرت تقود الى نجاح تام، فانعقاد الديوان العمومي قد سمح بتوزيط ممثلي مصر في تنظيم مستقر يستند الى مؤسسات تمثيلية في العاصمة و في الاقاليم، واذا كانت بعض الاصلاحات الكبرى قد ظلت صعبة بقدر مساسها بالوضعية الدينية للمسلمين، فان الفرنسيين قد توصلوا الى ضريبة كان عليها ان تسمح للجيش الفرنسي بمواجهة مشكلاته المالية، وفي ١٧ اكتوبر/ تشرين الاول، طلب القائد العام من الديوان تحرير بيان الى سكان البلاد "لايقافهم على مدى اهمية عدم الاصغاء الى الشائعات الملتبسة و المغرضة التي يروجها اعداؤهم حول قرب وصول المماليك، والطاعة و العيش في وفاق طيب مع الفرنسيين، وفي ٢٠ اكتوبر/ تشرين الاول صدر الامر الخاص بتنظيم الدواوين في القاهرة : ديوان من ٢٥ عضوا،٩ لمدينة القاهرة، ويمثل الاقاليم الباقون، على ان يتألف الديوان من ثلاثة من مشايخ البلاد و ٣ من التجار و ٣ من رجال الشرع، وديوان دائم من ٩ اعضاء : وفي كل اقليم ديوان من ٩ اعضاء، وكل ذلك تحت سيطرة محكمة من جانب السلطات الفرنسية[٢٦١].

على أي حال، كان المجتمع في مصر قبل الحملة الفرنسية،منظما وفقا للمبدأ التقليدي المتمثل في الفصل بين نخبة حاكمة،أجنبية الأصول،ومحكومين أهليين،وقد احتكرت المؤسسة المسيطرة الوظائف السياسية والعسكرية،أما الرعية فكان شأنها الانكباب على النشاطات الاقتصادية،الزراعية والحرفية والتجارية،وكان رجال الدين والمعرفة(العلماء) يشكلون نوعا من الجسر بين العنصرين الأساسيين للمجتمع[٢٦٢].

---

(٢٦٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨.

(٢٦١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٣.

(٢٦٢) حامد، ثقافة، ص ١٣ ؛ الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ١٧-٢٦.

وكان بالإمكان تقريبا إهمال ذكر الباشا العثماني الذي لم يلعب غير دور تمثيلي وكان،اعتبارا من عام ١٧٩١،شبه غائب عن المسرح السياسي،لو لم يكن هذا الشخص ممثلا لحكومة الباب العالي وللسلطان اللذين ظلت مراعاة السكان واحترامهم لهما عميقة،حتى بعد تجربة عام ١٧٨٦ المخيبة للآمال،عندما أرسل الباب العالي حملة عسكرية لإعادة مصر إلى الطاعة،بعدما سئمت الحكومة من خروج مراد وإبراهيم على طاعتها،ولا جدال في أنه كان هناك ولاء عثماني وثقة في قوة وفي عدل الباب العالي لم تؤدِ النكسات العسكرية التي كان قد تكبدها منذ قرن إلى زعزعتها بشكل أساسي،وبالرغم من أن الروابط بين مصر والباب العالي كانت منذ ذلك الحين رخوة وبالرغم من أن الباشا كان بلا حول ولا قوة،إلا انه كان رمز انتماء مصر إلى الدولة العثمانية.على أن السلطة قد مورست في القاهرة من جانب الارستقراطية المملوكية التي هيمن عليها،منذ علي بك الكبير،وفي هذه الارستقراطية،استمر المماليك ذوي الأصول القوقازية في لعب الدور المسيطر(٢٦٣).

لم يصل الفرنسيين إلى مصر في عام ١٧٩٨ كفاتحين عاديين، فقد اعتبروا أنفسهم حاملين لرسالة تحريرية للمصريين،الذين سوف ترد إليهم حقوقهم التي صادرها المماليك لزمن طويل جدا، ولرسالة عالمية تمزج مُثل الجمهورية الفرنسية بمُثل الإسلام،ولكي ينجح مشروع بونابرت،لم يكن يكفي إخضاع مصر، إذ كان يجب إغراؤها،والحال انه قد انكب على ذلك،من بين أمور أخرى،منذ نزوله إلى الإسكندرية ووصوله القاهرة(٢٦٤).

---

(٢٦٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨٦ ؛ عبد الغفار، حسين، الدولة الحديثة في مصر، دار المعارف، (القاهرة:١٩٧٧)، ج ١ / ص ٢٠ ؛

Al-Sayyed ,The Political",p.134 ; Ayalon," Notes on the Transformation",p.16.

(2 6 4) Holt,Studies.pp.157-163 ; Abo-lughod , Arab Rediscovery,p.24.

ويشير نابليون إلى ذلك صراحة،حين رأى أن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق،وأن أية قوة فرنسية لابد أن تحارب،لذلك،ثلاثة حروب: الأولى ضد انكلترا،والثانية ضد الباب العالي العثماني،والثالثة،وهي أكثرها صعوبة،ضد المسلمين،وحين أصبح واضحا لنابليون أن القوة التي يقودها لم تكن كبيرة بحيث تستطيع أن تفرض نفسها على المصريين،حاول أن يجعل الأئمة،والقضاة،ورجال الإفتاء، والعلماء،يؤولون القرآن بما يخدم مصلحة الجيش العظيم،وتحقيقا لهذا الغرض،دعي أساتذة الأزهر العلماء الستون إلى مجلسه،واستقبلوا استقبالا عسكريا رسميا،ثم منحوا فرصة أن يتمتعوا بإطراء نابليون وإعجابه بالإسلام وبمحمد،وبإجلاله الواضح للقرآن،الذي بدا على إلفة تامة به،وقد نجحت خطة نابليون،وسرعان ما بدا سكان القاهرة وكأنهم فقدوا ريبتهم بالمحتلين(٢٦٥).

ومن ثم بعد دخول الفرنسيين،لم تعد في القاهرة سلطة:لاباشا ولا مماليك،والمشايخ الأكثر تمثيلا كانوا هم أنفسهم قد رحلوا،ويعبر الجبرتي عن هذه الحالة بقوله:" وفي يوم الاثنين وردت الأخبار بان الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوة نواحيها والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء"(٢٦٦) ،ولما كان خطاب نابليون قد تضمن إعطاء المشايخ واعيان البلد تولي المسؤولية"بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لايستثنى احد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها"،فقد اجتمعت مجموعة من أهل العلم في الأزهر لمناقشة الوضع ولتدارس المستقبل،والحال ان العلماء وحدهم هم الذين كان بوسعهم لعب دور الوساطة بين الغازي والسكان المصريين،سعيا إلى تجنيب العاصمة ما هو أسوأ(٢٦٧).

---

(٢٦٥) سعيد، الاستشراق، ص ٨٨.

(٢٦٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١١.

(٢٦٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٢.

وفي ٨ صفر ١٢١٣هـ/ ٢٢ يوليو/ تموز ١٧٩٨م،أرسل العلماء رسالة إلى نابليون ليستفهموا منه ما ينوي فعله،فكان جواب نابليون" وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش في وجوههم فقالوا نريد أمانا منكم... أنتم المشايخ الكبار فاعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأي شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية" (٢٦٨).

نجح نابليون في كسب رأي النخبة في مصر وهم العلماء،الذين أصدروا فتوى لجيشه بجواز عدم الختان لجنده،والسماح لهم بشرب الخمر،بعد أن طلبوا منه أن يكون قائد الجيش الذي سيدافع عن بيضة الإسلام،وأصبح الرأي العام المصري آنئذ ينظر إلى نابليون بأنه المخلص الذي جاء لإنقاذ المسلمين من الظلم والاضطهاد الذي مورس بحقهم،وأشار نابليون إلى أن الشائعات بدأت تنتشر بان نابليون رأى النبي محمد في منامه،الذي أوصاه بان يدافع عن المسلمين إذا دخل هو جيشه الإسلام،وبدأت النخبة بمراسلة شريف مكة آنئذ،فكتبوا في (١٨ ربيع الثاني ١٢١٣هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٧٩٨م)،ذكروا فيها أن نابليون وجيشه قصدهم إخراج البلاد مما هي فيه من الفساد والخراب،وان شريف مكة لايجب أن يقلق على مصر من جيش نابليون،لأنه جيش مسلم(٢٦٩).

---

(٢٦٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٣.

(2 6 9) Cuno , "The Napoleonic Moment",p.509 ; Elliott Colla ," "Non, non! Si, si!": Commemorating the French Occupation of Egypt (1798–1801)",JBE,1999, Vol. 9,p.35 ; see also: Christian cherfils , Bonaparte et l'Islam d'après les documents François arabes ,(paris:A.pedone:1914).p.249 and passim ;

هنري لورنس،الحملة الفرنسية في مصر،بونابرت والإسلام،ط١،دار سينا للنشر،(القاهرة:١٩٩٥)،٣،١٥٣؛ الجبرتي،عجائب،٣/ ٣٥؛وللمزيد عن العلماء في تلك الفترة،ينظر رجاءا:

والحقيقة أن هذا الأمر من الخطورة بمكان،إذ كيف استطاع نابليون أن يكسب ود-أو على الأقل تفهم-نخبة العلماء،ووضعهم في صفه،وبالتالي قد أنهى بذلك العقبة الأكثر خطورة،وهي "الرأي العام المصري"،فهو في نظرهم قد أصبح مسلما،وهذا يقودنا إلى أن الغرب استطاع أن يفهم الشرق وان يعرف المكنونان التي يمكن أن يدخل من خلالها إلى العقل العربي الإسلامي،ويقودنا إلى أن العرب المسلمين،لم يفهموا الغرب كفهمه لهم،وإنما اعتمدوا على حسن الطوية في التعامل،جراء الظروف التي مروا بها،ويقودنا إلى التساؤل في هل كان لنخبة العلماء دور في "تجذير الإستشراق"،وإذا كانت الإجابة نعم،فربما يجب أن نعيد حساباتنا في قضية مهمة هي"مدى مسؤولية العلماء المسلمين في التأصيل الغربي في الشرق"،ومهما يكن من أمر،فقد كان موقف عبد الرحمن الجبرتي،وهو الوحيد في تلك الفترة الذي استطاع فهم الغرب ممثلا بالفرنسيين،بصورة مختلفة تماما.

لقد قدر نابليون حق قدره الأثر الذي سيتركه هذا الحدث على العلاقات بين أوربا،والشرق،وأفريقيا،وعلى الملاحة في البحر المتوسط،وعلى مصير آسيا،وأراد نابليون أن يقدم مثلا أوربيا نافعا للشرق،وأن يجعل حياة السكان،في نهاية المطاف،أكثر سعادة،وأن يستحضر إليهم أيضا جميع المزايا الكامنة في حضارة وصلت إلى درجة الكمال،ولم يكن ممكنا تحقيق شيء من هذا كله دون التطبيق المستمر على المشروع للآداب والعلوم،أن ينقذ إقليما من بربريته الحاضرة،ويعيده إلى عظمته الكلاسيكية السابقة،أن يلقن الشرق لمصلحته هو طرائق الغرب الحديث،أن يحل القوة العسكرية محلا أدنى،أو يقلل من أهمية دورها تعظيما لمشروع المعرفة الممجدة التي اكتُسِبَت أثناء عملية السيطرة السياسية على الشرق،أن يصوغ الشرق،يعطيه شكلا،وهوية،وتحديدا يصحبه اعتراف كامل بمكانه في الذاكرة،وبأهميته بالنسبة للإستراتيجية الإمبراطورية،وبدوره الطبيعي من حيث هو ملحق

Mary Ann Fay, "From Concubines to Capitalists: Women, Property, and Power in Eighteenth-Century Cairo", JWH,1998, Vol. 10 No. 3 (Autumn).pp.128-131 ; Marsot ,The Political",pp.139-143 ; Livingston, "Shaykh Bakrī",pp.141-143.

لأوربا،أن يحل المعرفة المجمعة خلال الاحتلال الاستعماري ويشرفها بتسميتها ((إسهاما في نمو المعرفة الحديثة))،في حين لم يكن السكان الأصليون قد استشيروا أو عوملوا إلا بوصفهم ذريعة لخلق نص لاتعود الفائدة منه على السكان الأصليين،أن يشعر المرء بنفسه أوربيا في مركز القيادة،كيف شاء تقريبا،للتاريخ الشرقي،والزمن الشرقي،والجغرافية الشرقية،أن يؤسس مجالات جديدة للتخصص،وان ينشئ فروعا جديدة للمعرفة،أن يقسم،ويوزع ويجدول،ويصنف مؤشرات،ويسجل كل ما تتناوله الرؤيا وما لاتتناوله،أن يشكل كل جزئية تلاحظ تعميما،ومن كل تعميم قانونا لايتغير للطبيعة الشرقية،والمزاج الشرقي والعقلية الشرقية،والنمط الشرقي[٢٧٠].

إن شكل الحكم الذي ينتظره الجبرتي،كان الديوان الذي أنشأه نابليون يعطي الجبرتي،الصورة الأكمل،للحرية التي ينتظرها،فالديوان هو الساحة التي يتداول فيها أهل الحل والعقد أحوال الرعية والبلد،ويحق فيه إبداء الرأي دون الخوف من الإقصاء أو القتل،ولايتحكم احد فيه ولا يستولي على السلطة بمفرده،وإنما تتم فيه المشاورات،ولا يفرض عليهم شخص وإنما ينتخب باستفتاء يجريه أعضاء الديوان[٢٧١].

لقد مر الجبرتي في صراع داخلي كانت أطرافه،المماليك والعثمانيين،وما قاموا به،وخصائصهم وشؤونهم من جهة،والفرنسيين المتمثلين بالعقل والحكمة والعدل،من جهة أخرى،ولم يكن ليخفى على الجبرتي أن الفرنسيين غير مسلمين،وحتى الجنرال مينو الذي أعلن إسلامه وبدل اسمه إلى عبد الله جاك مينو،لم يخفَ على الجبرتي انه إجراء يهدف إلى

(2 7 0) Cuno,"The Napoleonic Moment",p.510 ; هيرولد، بونابرت، ص ٢٢٦

(٢٧١) سعيد،الاستشراق،ص١١٣؛ درويش، احمد،الاستشراق الفرنسي والأدب العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة:١٩٩٧)،ص١١ ؛ ريمون، اندريه،القاهرة،ص١٩٠،بحث في كتاب الشرق الأوسط الحديث،ألبرت حوراني،ط١،دار طلاس،(دمشق:١٩٩٦)، ج٢ ؛ مواريه، جوزيف ماري،مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر،ترجمة:كاميليا صبحي،المجلس الأعلى للثقافة،(بيروت:١٩٨٤)،ص١٠٦ ؛ الوصيف،فرج محمد،مصر بين حملتي لويس وبونابرت،ط١،دار الكلمة للنشر والتوزيع،(القاهرة:١٩٩٨)،ص ٣٥.

إخفاء الهدف الحقيقي،وحتى قضية سليمان الحلبي ومحاكمته،لم يكن الجبرتي ليعلن فيها انه قد رضي كل الرضا عما جرى،ولكن أدرك في مخيلته ومن خلال تتبعه لطبيعة النظام القائم في فرنسا والذي طبق في مصر،انه ربما يصلح هذا النظام على المصريين،ويكون بديلا للنظام الذي اتبعه المماليك والعثمانيين،ذلك النظام الذي لم يرضَ عنه الجبرتي قط،مع كون الحاكمين مسلمين،ولكن قد يكون الصراع الفكري الذي عانى منه الجبرتي هو هل أن الإسلام هو الشكل الأمثل للحكم العادل،فالفرنسيين قد احتكموا للعقل ولادين لهم (٢٧٢).

لقد راهن نابليون على هذه الحاسّة فخاطب الشعب المصريّ بظلم المماليك، وانتبه الجبرتي إلى انقلاب محاور التاريخ؛ فكتب الجبرتي في تاريخه مأخوذاً بالإجراءات القانونية لمحاكمة (سليمان الحلبي) كما جاء في وصف المؤرخ البريطاني (توينبي) فان الجبرتي كان يتمتع بحس حضاري ـ فلم يخلب لب الجبرتي فرقعات النيران والألعاب بل المرافعات القانونية،إذاً الذي خلب لبّ الجبرتي هو دولة الحقّ والقانون التي حاول نابليون تعميمها، والتي تستند على المعرفة والعلم والتمدن وليس نيران مدافع نابليون وبسالة جنوده(٢٧٣).

مع ذلك كان الجبرتي مقتنعا بالدور البارز الذي يتعين على العلماء لعبه كناصحين لذوي النفوذ والسلطة،لكن مفهومه الارستقراطي للمجتمع قد جعله يحتقر العامة ويزدري الجماهير وحركاتها،وقوة ذهنه النقدي،والذي ألهمه تصورا قليل التأييد من

---

(٢٧٢)الجبرتي،عجائب،٣/ ٣٧-٣٨ ؛

Sami A. Hanna, "The Egyptian Mind and the Idea of Democracy", **IJMES** ,Vol. 1, No. 3 (Jul., 1970),p.243.

(2 7 3) Toynbee, Civilization on trial,77 ; cherfils,Bonaparte et l'Islam,261.

جانب زملائه عن الفئة الحاكمة المغلقة على نفسها،لامراء في أنهما قد أبعداه عن الانخراط في الحياة السياسية قبل عام ١٧٩٨،مع انه كان آنذاك قد وصل إلى النضج والرشاد،وبما أنه قد بدأ في كتابة تاريخه لمصر،فلابد أنه قد أغراه أن يروي الأحداث الاستثنائية التي كان بلده مسرحا لها،و اقتناعه بتفوق الإسلام وعداوته بالطبع لأيدلوجية ولعادات الغزاة،إلا انه كان يتميز بذهنية منفتحة وحرة بما يكفي لتقدير بعض التجديدات التي جاء بها الفرنسيون،ولهذا الغزو روايتين متعاقبتين حيث تظهر بينهما اختلافات مهمة في تقديم الإحداث،إلا انه في كلا العملين،كانت النظرة العامة واحدة:ليس بالإمكان عمل شيء في الساحة ضد محتل متفوق من الناحية العسكرية،ومن ثم فان التمردات محكوم عليها بالفشل وليس من شأنها سوى مفاقمة شقاء البلد،وفي نظام الفرنسيين السياسي والإداري،وفي تقنياتهم،توجد عناصر يمكن أن تكون محل تفكير مفيد[٢٧٤].

ومع أن فضوله كمؤرخ وضرورة حصوله على المعلومات المفيدة لابد أنهما قد قاداه إلى رصد الفرنسيين عن قرب،إلا انه لم يكن هناك ما يلزم الجبرتي بالتعاون معهم،وهو لم يكن عضوا في الديوانين الأولين،ولا حتى في ديوان الستين،ودخوله ديوان مينو يدعو إلى الحيرة،لان الجبرتي لم يكرر،بعد عام ١٨٠١،هذه التجربة الخاصة بالمشاركة في الحياة السياسية الايجابية،وسوف يظل معارضا حازما لمحمد علي،ويبدو أن حضوره كان متصلا،ولكن مشاركته كانت قليلة النشاط،ففي السجل المحفوظ للجلسات الأخيرة،والتي نقلها الجبرتي في كتابه عجائب الآثار،لم يشر سوى مرة واحدة،إلا انه قام بالطبع بالاستماع وبالتسجيل وبجمع الوثائق بفضل صديقه الخشاب دون شك،وربما توجب الاكتفاء بتصور أن الجبرتي قد قرر اغتنام الفرصة التي أتيحت له،في ظروف نجهلها،لكي يرى عن قرب سير عمل مؤسسة أقامها الفرنسيون،دون أن تدخل هذه المشاركة تعديلا على حرية النظر

(٢٧٤)أنيس،الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار،ص ٦٣ ؛

Hanna, "The Egyptian Mind",p.244 ; Livingston, "Shaykh Bakrī",p.139.

النقدية التي ألقاها المؤرخ عن تلك الفترة المضطربة وعلى لاعبي الأدوار في الدراما الجارية" (٢٧٥).

وكانت فلسفة الجبرتي للتاريخ أنّ الرجال العظام من أمثال نابليون أو سواه هم الذين "يحقّقون العقل في التاريخ وينجزون التقدم البشري ويقفزون بالمجتمع خطوات إلى الأمام. إنهم عملاء للتاريخ أو وكلاء له. بمعنى أنهم مكلّفون بأداء مهمة تتجاوزهم وتتخطّى أشخاصهم. إنهم مجرّد أداة للتاريخ يحقّق من خلالهم مآربه". فقد حاول نابليون أن يدغدغ مشاعر المسلمين في خطابه،فكانت فاتحة عهده مع المصريين "بسم الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه" (٢٧٦).

وحتى مع النظام العلماني الذي أراده نابليون لمصر،لم يكن الجبرتي أكثر من مراقب للحدث،ولكنه يستبطن التصورات التي كونها عن الفرنسيين،فيتأنى في وصف ذكرى الثورة الفرنسية التي أجراها جنود الحملة في القاهرة،في (١١ سبتمبر/ايلول ١٧٩٨م)،فالفرنسيين قد تباحثوا في من سيمثل الشعب في الديوان،ولم يفرض عليهم أحد وإنما ترك لهم الوقت الكافي لاختيار ممثليهم (٢٧٧).

لقد راهن الجبرتي على أن الشعب يجب أن يتطلع إلى التغيير،ويجب أن يفهم التغيير الحاصل،فقد جاء الفرنسيون وأثروا فيها بخيرهم وشرهم،وكان من نتيجة ذلك أن تغيرت نظرة المصريين إلى الحياة،وأخذوا يفهمون بعض المعاني الجديدة،كمعنى الحرية الشخصية ومعنى المساواة،ومعنى الشعب وحقوق الشعب،ونظام الحكم،،يورد الجبرتي نصا يقارن فيه بين العثمانيين والفرنسيين في مسألة جباية الضرائب، فيقول :" مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا في الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة

(٢٧٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨٦.
(٢٧٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤ .
(٢٧٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧١.

ورأوا ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة في ري الأراضي وعدمه فاختاروا والأصلح في أسباب العمار وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك"(٢٧٨).

ولم يعد المصريون حسب رأي الجبرتي يتحملون النظام الذي يمارسه العثمانيون الذي يقوم على القوة و الفوضى و الفساد : "انظر إلى عقول هؤلاء المغفلين يظنون أنهم استقروا بمصر ويتزوجوا ويتأهلوا مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها أهون من الورطة التي نحن فيها الآن"(٢٧٩).

وحتى النساء كان لهن نصيب في حرية الفرنسيين،فقد انتبه الجبرتي إلى الفرنسيين،لما دخلوا القاهرة ومعهم نسائهم:" لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة"(٢٨٠).

وليس معنى ذلك أن الجبرتي يحض على التبرج والسفور،وإنما ذلك يعني أن المجتمع المصري قد دخل مرحلة تحولات لا يمكن أن يعود عنها،أو أن يرضى بغيرها حلا لمشكلاته.تلك القضية التي راهن عليها الغرب،وهي"الفراغ الاجتماعي والسياسي"في المجتمعات العربية الإسلامية.

(٢٧٨) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٤٦.
(٢٧٩) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٧٨.
(٢٨٠) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٢٥.

المبحث الثالث

المنجزات و الآثار الحضارية الفرنسية في مصر كما رآها الجبرتي

لان مصر كانت مفعمة بالدلالات والمعنى بالنسبة للفنون،والعلوم،والسياسة والحكم،فقد كان دورها أن تكون المسرح الذي تدور عليه الأحداث ذات الأهمية التاريخية العالمية، وبالاستيلاء على مصر،فان القوة الحديثة كانت تجلو شدة بأسها وتُسوِّغ التاريخ؛وكان قدر مصر ذاتها أن تلحق بأمة أخرى،يفضل أن تكون أوربية،وفضلا عن ذلك،فان القوة الحديثة ستدخل أيضا تاريخا حددت العنصر المشترك فيه شخصيات في عظمة هوميروس،والاسكندر، وقيصر، وأفلاطون، وفيثاغورس الذين باركوا الشرق بوجودهم،ماضيا،فيه،وبإيجاز،فقد وُجد الشرق من حيث هو طقم من القيم مرتبط لا بحقائقه الحديثة،بل بسلسلة من الاتصالات المثبتة التي كانت قد تمت بينه وبين ماض أوربي قصي[٢٨١].

لقد فهم الجبرتي احتواء نابليون الاستشراقي الصرف لمصر،باستخدام أدوات المعرفة التي امتلكها وورثها عن أبيه،فيبدي الانفتاح حين يتحدث عن الأدوات التي جاء بها الفرنسيون،ففي حديثه عن أعمال التحصين التي جرى الاضطلاع بها بعد تمرد القاهرة الأول،يذكر،بإعجاب واضح،ظهور النقالة واستخدام أدوات جيدة النوعية:((يستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ،السهلة التناول،المساعدة في العمل وقلة الكلفة،كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيمليها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشق وكذلك

(281)Fourier , Joseph , Perface Historique ,Description de L' Egypt , Imprimer Imperial , (Paris : 1809) , Vol.1.P.1.

لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع، كما اعتبر الجبرتي أن النظام الذي يسمح لمدفع بأن يضرب فيحدد،كل يوم،وقت الزوال،"شيئا مبتكرا"))[٢٨٢].

لقد حاول الجبرتي أن يفهم تلك العلمية التي حيرت عقله،وأراد أن يتعقل أصول تلك العلوم ومن أين جاءت،فقد كان يقف مراقبا للأحداث والأعمال التي يقوم بها الفرنسيين،وقد حاول الجبرتي أن يسمو بتفكيره ويتغاضى عن المحتل لاكتشافه،وحاول فهم الثورة الفرنسية بطريقته،وحاول تعلم لغتهم،أن الجبرتي لم يستطع أن يقف في فترة الحملة المبكرة إلا موقف المراقب،الذي ينظر ليكتشف،فالأفكار التي جاء بها الفرنسيون جديدة في مفهومها وتطبيقها،لم يألفها من قبل،وحتى في محاولته لتفسير دوافع ثورة القاهرة الأولى،لم يستطع إلا أن يلوم العلماء ويحملهم المسؤولية في الثورة ضد الآخر الفرنسي الذي إن ثبتت رؤية الجبرتي ربما سيكون المخلص،فقد وصل إلى مرحلة التمييز بعد الأشهر الأولى من الحملة،وفهم فيها الفرنسيين على أكمل وجه[٢٨٣].

وغالبا ما دار كلام كثير حول الأثر الذي أحدثته على المشايخ عجائب العلم والمؤسسات العلمية التي نظم الفرنسيون زيارات إليها وتوضيحات لها،بحيث لايكاد يكون من الضروري التوقف عند هذا الموضوع،وقد حضر عدد من سكان القاهرة جلسات (المعهد العلمي)،واهتموا بالمناقشات التي دارت فيها،والحال أن الجبرتي قد زار((مرارا))المكتبة ومن الواضح أنه قد تأثر بما شاهده،ويمكننا أن نحكم على ذلك من خلال الوصف الطويل والدقيق الذي قدمه لقاعة الاطلاع وللمؤلفات المحفوظة في خزانات الكتب،وهو يقول عن الكتب التي شاهدها أنها((مما يحير الأفكار))، و يشير بالطبع الى كتاب كبير حول سيرة النبي مزين بصورة له رسمت((على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم...،وهو قائم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى

---

(٢٨٢)الجبرتي،عجائب، ج ٣ / ص ٥٣.

(٢٨٣) الجبرتي،عجائب،ج ٣/ ص ٢٧، ٣٠، ٣٨، ٤٧.

السيف وفي اليسرى الكتاب حوله الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم السيوف)) (٢٨٤).كما يكتب عن الترجمات الموجودة لكتب إسلامية،وعن المعاجم اللغوية لأكثر من لغة:((وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت)) (٢٨٥).

لقد مثل المعهد العلمي الذي أنشأه نابليون قمة الإستشراق الفرنسي،وتمثلت فيه الصورة الحقيقية للفهم الفرنسي عن الإسلام المتمثل بالشرق،فالشرق كان يعني بالضرورة(الإسلام)،وسنتناول عن هذا المعهد وعن رؤية الجبرتي عنه،والتي تمثلت بالرؤية التي مثلت رؤية عالم (شرقي)،لعلوم الغرب وتقنياتهم وأسرارهم العلمية،في زمن انقلبت فيه المقادير في مجال العلوم العربية.

يذكر الجبرتي :"فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يرد المراجعة فيراجع فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر"(٢٨٦).

يبدو هنا أن الفرنسيين أرادوا أن يؤسسوا مدرسة بجميع محتوياتها،فقد خصصوا مكانا للمطالعة،وجهزوا الكتب الكثيرة التي قد يحتاجها الباحثون،وفي الحقيقة أن هذا

---

(٢٨٤) الجبرتي،عجائب،ج ٣/ ص ٣٠.

(٢٨٥) يجب أن نلاحظ أن الجبرتي لايستاء من رؤية النبي والخلفاء الراشدين مرسومين،وإنما يعطيهم تبريرا بقوله:على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم. الجبرتي،عجائب،٣/ ٥٧ ؛ المقداد،تاريخ الدراسات،ص٦٧ ؛

Abo – lughod , Arab rediscovery,p.37.

(٢٨٦) الجبرتي،عجائب، ج ٣ / ص ٥٧ .

النص يدل على المكتبة الخاصة بالمعهد العلمي،وبمعنى آخر أراد الفرنسيون أن يوفروا كل المراجع والمصادر حول دراساتهم عن الشرق.

ويضيف الجبرتي أن الجيش الفرنسي كله كان يقرأ ولم يتخلف عنه حتى من الجنود الأقل رتبة:"حتى أسافلهم من العساكر"،وهذا ما لفت انتباه الجبرتي،في مقابل الحالة العلمية المتدنية التي كان يعانيها المصريون من تخلف واشتغال بالأمور غير العلمية مثل الدجل والشعوذة وغيرها من الأمور"الخسيسة" حسب وصف الجبرتي(٢٨٧)،بينما كان الفرنسيون لديهم الفكرة في أن مصر قد أعيدت إلى عهد من الرفاه والثراء،وجددت حيويتها ونضارتها على يد إدارة متنورة،ستغمر بأشعتها الناشرة للحضارة جميع جيرانها الشرقيين(٢٨٨).

ثم يتحول المعهد إلى مؤسسة ناشرة للعلم والتنوير بين الشرقيين،وهذا مما يريح الجبرتي،فالفرنسيين في نظره أصحاب علم ومعرفة:" وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصا أذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودته ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار"(٢٨٩).وهذه هي خصائص الإستشراق المندمج بالتبشير المفعم بالنضوج الذي امتلكه الفرنسيون،فلم يمنعوا شخصا من الدخول،لابل أنهم إذا رأوا فيه إمكانيات ومؤهلات سعوا إلى إعطائه العلم-فيما يبدو-دون مقابل سوى حب المعرفة

---

(٢٨٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤١.

(٢٨٨) سعيد،الإستشراق،ص ١١٣.

(٢٨٩)الجبرتي،عجائب، ج ٣ / ص ٥٧ ؛

Peter , Erin A . The Napoleonic Egyptian Scientific Expedition , Master thesis , Seton Hall University , South Orange, NJ , 2009 , p. 24 – 38.

والعلم،وان ما انتبه إليه الجبرتي هنا،هو الطريقة التي يتعامل بها العلماء مع من يرغب بالعلم،فهم في نظره يمثلون العلم وأخلاقه.وهذه هي الرسالة التي يريد الغرب إيصالها إلى الشرقيين،بأنهم دعاة حب وسلام ومعرفة.

ولكن الذي لم يتنبه إليه الجبرتي أن من ابرز مظاهر التمحور لدى المستشرقين،هو تشويه صورة الشرق أو التقليل من فعالية جهده الحضاري،وهي عملية تمهيد لأفكار من شأنها أن تحرف مجرى ذلك الفعل التاريخي ذهنيا للوصول أخيرا إلى أن هذا التحول والتغير إنما يؤول في نهاية المطاف إلى المحور أو القطب الحقيقي والفاعل في حركة التاريخ،إلا وهو الفكر الغربي أو الحضارة الغربية،والى هنا يكون الأمر من باب التعصب والتزمت والتشدد الذي هو آفة العلم[٢٩٠].

إن ذلك من الخطورة بمكان انه يصف الإستشراق الفرنسي الذي صور الرسول عليه الصلاة والسلام،بصورة الحامل للسيف،وهذه العبارة لها دلالاتها الخطيرة،منها أن الفرنسيين قد وصفوا الرسول بان صاحب السيف ومعنى ذلك أن القتل من أولويات الإسلام ونبيه،والعجيب في الأمر أن الجبرتي قد وصفه حسب مارآه بأنه"كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف"وهو يجتمع معه الصحابة،تلك الصورة الدموية التي مثلت الإسلام في المفهوم الغربي،الذي بنيت عليه اعتبارات خطيرة ومريرة،كان أبرزها الاستعمار الحديث،ولعل الجبرتي لم يدرك خطورة الموقف،ولكنه على اقل تقدير،ساوره الشعور بأنهم يعرفون عن الإسلام الكثير،ولا نعلم لماذا لم يناقشهم الجبرتي في تلك الصورة،أو على الأقل أن يبين لهم عالمية الإسلام الذي لايعتدي على أحد.

وطاف الجبرتي بحجرات المعهد وأروقته،ووقف عند كل مشهد جديد،ولدى كل كتاب طريف،مشدوها مفتوح الفم من الدهشة والعجب،ولم يسعه وهو المؤرخ الثقة إلا أن يثبت وصف ما رأى في تاريخه معلنا دهشته وإعجابه وعجزه،عن فهم هذه الآلات والعدد،فهو قد نشأ بالأزهر وتلقى فيه العلم،والنمط الذي كان يتبعه طلاب العم في مصر

---

[٢٩٠] يفوت، سالم، حفريات الاستشراق،ط١،المركز الثقافي العربي،(بيروت:١٩٨٩)،ص٢٣.

وقتذاك ساذج بسيط وان كان متعبا في نفس الوقت،فالطالب يجلس في المسجد،أو في داره،وينحني على كتاب مخطوط كلما أراد أن يقرأ[٢٩١].

ثم طاف الجبرتي بالقسم الخاص بعلماء الفلك من المعهد،وشاهد مافيه من الآلات عجيبة وصفها بقوله:" وعند توت الفلكي وتلامذته في مكانهم المختص منها الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه وهي تركب براريم مصنوعة محكمة كل آلة عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبير أخذت قدرا من الفراغ وفيها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئي وإذا انحل تركيبها وضعت في ظرف صغير وكذلك نظارات للنظر في الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها واجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظرتها وأنواع المنكابات والساعات التي تسير بثواني الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن"[٢٩٢]

ترك هذا القسم إلى قسم التصوير فشاهد هناك المصورين يصورون الاشخاص والاشياء جميعا،ووصفه بقوله:" ذلك وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى وهم المصورون لكل شيء ومنهم ريجو المصور وهو يصور صور الآدميين تصويرا يظن من يراه انه بارز في الفراغ بجسم يكاد ينطق حتى انه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته في دائرة وكذلك غيرهم من الأعيان وعلقوا ذلك في بعض مجالس صارى عسكر وآخر في مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها"[٢٩٣].

ثم عرج بعد ذلك على قسم الكيمياء والطب فوصفه بقوله:" وسكن الحكيم رويا ببيت ذي الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه في ناحية وركب له

(٢٩١) الجبرتي،عجائب، ج ٣ / ص ٥٨.

(٢٩٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ٥٩.

(٢٩٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٩.

تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الأملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكانا أسفل وأعلى وأمامها رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة وفيها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية وأفردوا مكانا في بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوي وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع والات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلوري المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها أنواع المستخرجات"[٢٩٤]

وقد تعمدنا نقل هذه النصوص الطويلة عن وصف الجبرتي لأقسام المعهد العلمي،لنبين العملية التاريخية التي بلورت تفكير الجبرتي الإستغرابي بعد زيارته لهذا المعهد،والذي ترك أثرا كبيرا في نفس الجبرتي وفي كتاباته،فبدأ يتفحص دائما ما يقوم به الفرنسيون من علوم واختراعات وابتكارات يفتقر لها المجتمع الذي عاشه،وقد برر الفارق بين عقلية الشرق وعقلية الغرب في قوله:" فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"[٢٩٥].

إن نصرا كالذي حققه نابليون لم يكن يمكن أن يعد إلا قبل حملة عسكرية وربما لم يكن قادرا على إعداده سوى إنسان لم تكن له خبرة سابقة بالشرق سوى ما أنبأته به الكتب والباحثين،وإن فكرة اصطحاب مجمع علمي(أكاديمية)كامل هي إلى حد بعيد جانب من جوانب الموقف من الشرق،وقد غذى هذا الموقف بدوره عن طريق مراسيم ثورية معينة،خاصة مرسوم العاشر من شهر جرمنال السنة الثالثة/ ٣٠ آذار ١٧٩٣ القاضي بتأسيس المدرسة الأهلية في المكتبة الوطنية،لتدريس العربية،والتركية،والفارسية[٢٩٦].

---

(٢٩٤)الجبرتي،عجائب،ج٣/ ص ٦٠.

(٢٩٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦١.

(٢٩٦) المقداد،تاريخ الدراسات،ص ٨٣.

كان غرضها غرضا عقلانيا هو تعرية حتى أكثر أنماط المعرفة إبهاما من سريتها وتحويلها إلى معرفة رسمية مؤسَّسة،وهكذا كان عدد كبير من مترجمي نابليون تلاميذ سلفستر دوساسي الذي كان بدءا من حزيران ١٧٩٦،المدرس الأول والأوحد للعربية في المدرسة الأهلية للغات الشرقية،وأصبح ساسي،فيما بعد،تقريبا معلم كل مستشرق بارز في أوربا حيث سيطر تلاميذه على هذا الحقل ما يقارب ثلاثة أرباع القرن،وكان كثيرون منهم نافعين سياسيا،بالطرق التي كان بها عدد آخر نافعا لنابليون في مصر[٢٩٧].

كان للحملة الفرنسية اثارا اجتماعية انعكست على المجتمع المصري، فقد ادخل الفرنسيون عادات جديدة لم تكن معروفة لهم من قبل، وبدأ هذا التبدل بالدرجة الاولى في اوساط الاقباط [٢٩٨]، من سكان القاهرة و امتد تأثيره الى المسيحيين من بلاد الشام الذين كانوا يقيمون في مصر، و اشار الجبرتي الى ذلك التحول بقوله :"فتح نصارى الاروام عدة دكاكين لبيع انواع الاشربة و خمامير وقهاوي وفتح بعض الافرنج البلديين بيوتا يصنع فيها انواع الاطعمة و الاشربة على طرائقهم في بلادهم" [٢٩٩]، كما اشار نابليون الى ذلك في رسالته الى المعلم جرجس الجوهري احد رموز الاقباط في القاهرة، اذ يخبره فيها بانه سوف يضع الاقباط في مكانة لائقة عندما تسنح الظروف، لا سيما وان الاقباط قبل الحملة الفرنسية لم يكن لهم شأن يذكر[٣٠٠] .

ثم صار للاقباط نفوذ اجتماعي كبير في القاهرة، وعيّن الفرنسيون يعقوب القبطي قائدا لجيش الاقباط الذي انشأه وقام يعقوب بدوره بجمع الاقباط و البسهم زيا مشابها

---

(٢٩٧) سعيد،الإستشراق،ص١٠٩.

(٢٩٨) زيادة، خالد، "بدايات التغريب العمراني " مجلة الفكر العربي، بيروت، ع٢٩، السنة الرابعة، تشرين الاول، ١٩٨٢، ص ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢٩٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٩٥ .

(٣٠٠) مراسلات نابليون، م ٢، الرسالة رقم ٢٧٥٣، ٣ اغسطس (اب) ١٧٩٨، نص الرسالة متاح على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) www.Napoleon.com

لزي الجنود الفرنسيين[٣٠١]، و حاول نابليون تغيير الاوضاع الاجتماعية للاقباط وصرح لهم بحمل السلاح، وركوب البغال و الخيول ولبس العمائم وارتداء الملابس بالطريقة التي تحلو لهم، ويدل ذلك على رغبة نابليون بتفعيل افكار الثورة الفرنسية بالمساواة و العدل[٣٠٢].

كما انتهز نابليون كل الفرص للتقرب من المصريين، وعني باقامة الاحتفالات و المهرجانات في المناسبات الدينية و الرسمية مثل عيد مولد النبي وعيد الجمهورية الفرنسية[٣٠٣]، الى جانب عيد وفاء النيل في ١٧ آب ١٧٩٨، وقام الفرنسيون بتزيين المراكب و الشوارع، ودعوا الناس لحضور الاحتفالات و الخروج للتنزه على ضفاف النيل و المقياس بجزيرة الروضة، وذلك على ضوء العادات المتبعة في فرنسا[٣٠٤]، وكان نابليون يدرك حقيقة ميل الشعب المصري الى الابتهاج و الترفيه عن النفس، وهذا ما كان يشاهده من خلال تجمع الالاف لسماع المغنيين، كما حاو ان يحجب عن الشعب النكبة التي مني بها في معركة ابي قير البحرية و تظاهر بانه لا يكترث بها[٣٠٥].

ويبدو ان عيد المولد النبوي الشريف حظي بعناية خاصة من نابليون ومنذ العام الاول للحملة اقام احتفالا كبيرا بهذا العيد، ولا شك ان نابليون اخذ بنصح المستشرقين الذين رافقوا حملته، اذ ان نابليون كان يدرك تماما اهمية مراعاة مشاعر المسلمين، فكانت العقبة الاولى و الاكبر في وجه نابليون هي الاسلام و المسلمين وكيف يمكن ان يحظى

(٣٠١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٥ ؛ ابراهيم، ناصر احمد، مقاومة تحت السطح، المباشرون الاقباط و الحملة الفرنسية، ضمن كتاب : مائتا عام على الحملة الفرنسية، ص ٥٨.

(٣٠٢) مراسلات نابليون، م ٢، الرسالة رقم ٣٨٧٢، ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٧٩٨، نص الرسالة متاح على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) : www.Napoleon.com

(٣٠٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٩.

(304) Geoffroy , Etienne , Letters D'Egypte 1798-1801 , Imperime en france , (paris:2000) , p.55.

(٣٠٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٦.

بتأييدهم، ورغم ان الجبرتي يتحدث عن سذاجة افعال نابليون في هذا المجال، الا انه في الوقت ذاته يعبر عن ارتياحه لمثل هذه الافعال، و الغريب في الامر ان الجبرتي في اكثر من موضع في كتابه، كان يركز على الاشكالية القائمة في نشر العدل وعلاقته بالدين، والموجه الفعلي للعدل، ولذا فقد كان تصريحه الديني اقل حضورا في تعليقاته على افعال الفرنسيين[٣٠٦].

وفي مجال الطباعة، فلم تحظ مصر بالمطبعة و لم تعرفها الا بعد مجيء الحملة الفرنسية[٣٠٧]، اذ حمل نابليون معه المطبعة التي غنمها من روما [٣٠٨]، وكانت تحتوي على حروف فرنسية و يونانية و عربية لاغراضه الاعلامية، واصدرت المطبعة كراسات و منشورات الحملة التي كانت تلصق في الشوارع و الاحياء و على ابواب المساجد كما صدر عنها عشرات الكتب الفرنسية و العربية [٣٠٩]، وفي الاختصاصات كافة مثل وصايا لقمان الحكيم كما طبعت فيها مؤلفات ديجنت Desgenttes كبير اطباء الحملة الفرنسية واهمها رسالته في مرض الجدري ومكاتباته للديوان، وجدير بالذكر ان المنشورات التي كانت تصدرها الحملة الفرنسية مثلت احد اهم المصادر التي اعتمد عليها الجبرتي في مؤلفاته[٣١٠].

واصدر الفرنسيون صحيفتين في مصر باللغة الفرنسية، وهي الجوائب المصرية (Le Courrier De Egypte) في ٢٩ آب ١٧٩٨، وصحيفة العشرية المصرية La Decade Egyptenne في ٧ تموز ١٧٩٩، وكانت الاولى للدعاية و نقل الاخبار و

---

(٣٠٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٩٣.

(٣٠٧) الحصري، ساطع، الحملة الفرنسية و النهضة المصرية، مجلة الثقافة، (القاهرة)، ع ٤٥٠، السنة التاسعة، رمضان ١٣٦٦ هـ، آب ١٩٧٤، ص ٧٨٣.

(٣٠٨) عبدة، ابراهيم، تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨-١٩٤٢، المطبعة الاميرية، (القاهرة : ١٩٤٢)، ص ١٠.

(٣٠٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٩.

(٣١٠) الجبرتي، عجائب، ج ١ / ص ٤١.

توجيه النصح و الارشاد للجنود الفرنسيين في مصر، بينما كانت الثانية صحيفة علمية اهتمت بدراسة الشؤون المصرية في المجالات الاقتصادية و الاجتماعية و الادبية و التاريخية [٣١١].

كما فكر القائد الفرنسي جاك مينو باصدار صحيفة عربية بموجب مرسوم اصدره في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٠٠، واشارت اليه صحيفة الجوائب المصرية في عددها الصادر في كانون الاول ١٨٠٠ وكانت تسمى التنبيه L' Avertissement [٣١٢] وبين في مرسومه بان الهدف منها هو التعريف باعمال الحكومة، وتولى تحريرها اسماعيل الخشاب، واطلق الجبرتي على هذه الصحيفة اسم(الحوادث اليومية) [٣١٣].

اما في التعليم فقد انشأ الفرنسيون مدرستين لتعليم الفرنسيين المقيمين في مصر [٣١٤]، ومن ثم فكروا في تدريس بعض الموضوعات باللغة الفرنسية في مدارس المرحلة الاولى في مصر، ولكن فكرتهم لم تجد طريقها الى التنفيذ لسرعة خروجهم من مصر [٣١٥]، واقترحوا مشروعا لبناء مستشفى تضم مدرسة للطب لتدريب المصريين الا ان شيئا من ذلك لم يحدث[٣١٦] .

(٣١١)لا ديكاد ايجبسين، المطبعة الاهلية، القاهرة، السنة السابعة للجمهورية الفرنسية، الاعداد ١ – ١٠٠.

(٣١٢) الصاوي، فجر الصحافة، ص ٧٨.

(٣١٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٥.

(٣١٤) فرج، عليه علي، التعليم في مصر بين الجهود الاهلية و الحكومية، دراسة في تاريخ التعليم، دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية : ١٩٧٩)، ص ٣٢.

(٣١٥) "اثار حملة بونابرت" مجلة الرسالة، (القاهرة)، ع٢٦٢، السنة السادسة، م٢، تموز ١٩٣٨، ص ١١٥٧.

(٣١٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤٨.

كما انشأ الفرنسيون مرصدا فلكيا وخصصوا فيه مكانا للتقطير و اجراء التجارب الكيميائية التي ادهشت الجبرتي(٣١٧) ـ اضافة الى بناء متحف كبير(٣١٨) . و اسسوا متحفا للطبيعة وضع فيه نابليون جملا تعلق به نابليون كثيرا في مصر و لما مات الجمل عهد الى احسن علماء الطبيعيات في المتحف لحشوه بالقش ووضعه في المتحف، ويذكر ان هذا الجمل قد نقل الى فرنسا بعد خروجهم من مصر(٣١٩).

و اهتم الفرنسيون بالجانب الصحي وواجه ذلك الاهتمام تصدي المصريين له، ولا شك ان ذلك جاء نتيجة تخلف المصريين الثقافي في المجال الصحي، فقد اعتمدوا في مداواة مرضاهم على الخرافات و الخزعبلات (٣٢٠)، وكان من بين التدابير الوقائية التي فرضها نابليون على المصريين، نشر الثياب و الامتعة و المفروشات على السطوح لايام عدة، ورش البيوت بالمواد المضادة للعفونة، خوفا من ظهور الطاعون و انتشاره (٣٢١)، وللتأكد من ذلك رصدوا لجان تفتيشية لمراقبة البيوت و التأكد من الالتزام بتطبيق الاوامر، كما بنوا كرنتينة (دائرة الحجر الصحي) في بولاق للتاكد من سلامة الوافدين، و اقاموا اماكن يحجز فيها القادمون من السفر اياما معدودة (٣٢٢).

كانت تلك الاجراءات الفرنسية الصارمة في المجال الصحي بداية حقيقية لظهور مؤسسات صحية مصرية و مستشفيات وقد الحقت تلك المؤسسات بمؤسسة مكتب الصحة التابع للجيش الفرنسي، التي كان من ابرز مهامها تصريف مجاري القاهرة القديمة و

(٣١٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٩.

(٣١٨) هيرولد، بونابرت، ص ١٥٢.

(٣١٩) الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص٢٥٦.

(٣٢٠) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٣٨٦.

(٣٢١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٣٦.

(٣٢٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٥٢.

بولاق (٣٢٣)، وكان الفرنسيون يؤكدون على كنس الشوارع ورشها وتنظيف الطرقات وضرورة انارة القاهرة بوضع قناديل بالليل في الشوارع و الاسواق وشددوا على ان يكون في كل دار قنديل و على كل ثلاثة داكين قنديل (٣٢٤)، و من الطريف في هذا الامر، ان يهتم الفرنسيون بتنظيف المصريين من الامراض و القاذورات، بينما يثور المصريون عليهم، و الاغرب من ذلك، ان يحاول المصريون المحدثون في كتاباتهم لمز الحملة الفرنسية بكل الاتهامات و رمزها بحملة المنافقين، وهم في الوقت ذاته كانوا اساسا لنهضة المصريين وكان اعتمادهم عليهم في ابسط المجالات حتى في مجال الترفيه، ولكن العقل العربي لا يخلو من التناقض فهو قائم على المتناقضات، و الاخطر ان العقل العربي دائما ما يحاول الانتقاص من الاخر، وهو في الوقت نفسه لا يجرؤ على نقد ذاته وتعريتها .

اما على الصعيد العمراني، فنجد ان الفرنسيين باشروا اعمال العمران منذ ايامهم الاولى في مصر (٣٢٥)، فتحولت القاهرة في عام ١٨٠٠ الى مدينة حديثة شيدت فيها الطريق الواسعة والبنايات على الطرز الحديث، واصبحت ازقتها نتيجة التنظيم الاداري الدقيق الى ازقة نظيفة نضرة، وخلت القاهرة من الكلاب السائبة حين قرر الفرنسيون ابادتها (٣٢٦) .

كما نظم نابليون النقل النهري تحت ادارة خاصة واتخذ من ميناء بولاق النهري في القاهرة خطا لها ثم نظم حركة البواخر، واوكل مهمة حراستها الى الشرطة النهرية تحت اشراف مجلس القاهرة(الديوان)، ثم اسس مكتبا للبريد وزوده بالتقنيات اللازمة (٣٢٧).

---

(323) La Situation Interinalede Canal de Suez , Edition Giards The Repour Le Doctor Old Edudes Historyues, Juridigres , (Paris:1968),p.53.

(٣٢٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٩.

(٣٢٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٣.

(٣٢٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٣.

(٣٢٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٨.

وفي القضاء قام الفرنسيون بتأسيس ديوان جديد عرف بـ (محكمة القضايا) مهمتها النظر في الامور التجارية و العامة و المواريث و الدعاوي وغيرها وتتألف من ستة اعضاء مسيحيين من الاقباط، ومثلهم من المسلمين، وانيطت رئاسة المحكمة الى القاضي الكبير مالطي القبطي (٣٢٨). وكان الفرنسيون يشددون على تطبيق القانون واحترامه، ولم يتوان نابليون عن معاقبة الجنود الفرنسيين الخارجين عن القانون خاصة اولئك الذين قاموا باعمال السطو و الاعتداء على المواطنين المصريين .واتبع الفرنسيون نظام التسجيل الاحصائي الذي عمل على تسجيل نزلاء الفنادق و قوانين التسجيل العقاري و تسجيل المواليد و الوفيات وعقود الزواج(٣٢٩).

وأعرب الجبرتي عن اعجابه الصريح بالنظام القضائي الذي اتبعه الفرنسيون لاسيما في محاكمة سليمان الحلبي الذي اغتال القائد الفرنسي كليبر، وذكر الجبرتي بأنهم لا يتدينون بدين ويحكمون العقل .و ليس الامر بغريب على الجبرتي، فقد عاش في انظمة كان الدين رايتها ولكنها كانت تستخدم الدين واسطة لإغراضها العنفية التي مورست بحق الشعب المصري وغيره.

(٣٢٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٢٥.

(٣٢٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٥.

الفصل الثالث

المصريون في ظل الحملة الفرنسية

"دراسة تحليلية في وصف الجبرتي للتحولات التاريخية و الفكرية "

ان لكل مرحلة تاريخية اثار تفوق تلك الافعال التي حدثت، وقد يكون بعضها قصير المدى فتزول بزوال المؤثر، وقد تستمر الاثار على المدى البعيد و تلك هي الاكثر خطورة، اذ انها تقوم بفعل التحويل الفكري العقلي داخل اللاوعي و اللاشعور الذي تتركه تلك المؤثرات . فقد مثلت الحملة الفرنسية وعيا تاريخيا بكل المقاييس مخلفة اثارا جد عميقة على المجتمع و البنية العقلية المصرية، ولا نكاد نجافي الحقيقة اذا قلنا بان للحملة الفرنسية على العقل المصري اثارا جد عميقة بلغت اعادة تشكيل بنية العقل المصري و فكره، و انتجت - فيما بعد - رؤى و افكار مثلت ذلك التأثير الفرنسي، في الفن و الادب و التاريخ و حتى الجغرافيا و السينما و المسرح .

لذلك جاء الفصل الثالث ليظهر تلك المؤثرات و طريقة استيعابها من قبل المصريين، ثم تحولها الى فكر و بنى عقلية داخل المجتمع المصري . فكان المبحث الاول عن الحكم و الادارة الذي مثلته منذ زمن بعيد طبقة العلماء، ليظهر الاثر الذي تركته الحملة الفرنسية في هذه الطبقة التي تزعمت الفكر المصري منذ زمن بعيد .

وكان المبحث الثاني في الاثر الذي تركته الحملة على المجتمع المصري، ذلك الاثر الذي اظهر طبقات اجتماعية جديدة لم تكن تحلم ان تطفو على السطح لولا مجيء الحملة الفرنسية، لاسيما الطبقات الطائفية و الدينية، ثم التراتبية الاجتماعية التي مكنت طبقات لم يكن لها شأن يذكر من ان تكون طبقات ذات اثر ووعي و ادراك لما هي عليه .

و خلص المبحث الثالث الى التباين بين الانظمة الثلاث التي عاشتها مصر بين حكم العثمانيين و المماليك وثم الفرنسيين وعودة العثمانيين اليها، تلك الصيغ التي صيرت من كينونة المجتمع في عدة انحناءات على الرسم البياني للعقل المصري :

المبحث الاول

النظام السياسي و نخبة العلماء

بين الموروث المملوكي و الحداثة الفرنسية

كان العلماء ينتمون الى السكان الاهليين، وكانوا متجذرين تجذرا عميقا في البلد عبر اصول غالبا ما كانت ريفية، ولكي يدرسوا ويتابعوا مسيرة عمل، كانوا يجيئون للاستقرار في القاهرة و احيانا ما كانوا يحققون الثراء فيها، فمسيرة العالم العملية كانت تشكل وسيلة قوية للصعود الاجتماعي، وبالرغم من كونهم من الرعية، فانهم قد لعبوا دورا مهما لدى السلطات التي كانوا يمثلون حيالها ضامنين لمراعاة مبادئ الدين و مستشارين، وكان بعضهم يقيم في ديوان الباشا، وفي نهاية الامر مراقبين ناقدين، فتمتعوا بمكانة جد مهمة كوسطاء و حائزي سلطة، بحيث يتعين اعتبارهم جماعة خاصة، ذات مهمة خاصة (٣٣٠).

كان المماليك يكنون احتراما مخلصا للعلماء، حائزي التراث الديني و المعرفة، و من ثم كانوا ناصحين مفيدين، كما كان المماليك يعرفون النفوذ الذي كان للعلماء على السكان و من ثم فقد كانوا حريصين على كسب تفهمهم في حالة حدوث المصاعب مع الرعية، ولا مراء في ان هذا الرأسمال من النفوذ قد تعزز في العقود الاخيرة للقرن الثامن عشر التي بدا خلالها ان الدور الذي يلعبه العلماء، وخاصة ابرزهم، قد تطور بشكل محسوس، وكان ذلك نتيجة للمصاعب السياسية التي عرفتها مصر و للنزاعات التي وقعت

(٣٣٠) يتضح هذا الامر من خلال مراجعات قام بها الباحث للتراجم التي كتبها الجبرتي عن العلماء و المشايخ، حيث اتضح ان الكثير منهم حين دخلوا القاهرة قادمين من الارياف لم يكن معهم ما يكفي لحاجاتهم اليومية، ويذكر الجبرتي مثالا على ذلك، محمد المهدي الذي اغتنى بفضل علاقته مع المماليك، فقد كون ثروة ضخمة و تمتع بمسيرة عمل رائعة، و كتب عنه الجبرتي تعليقا في ترجمته له : " لو لم يشتغل بالانهماك على الدنيا لكان نادرة عصره". الجبرتي، عجائب، ج ٤ / ص ٢١٤.

بين الامراء و اسطنبول و للصراعات التي تواجه فيها البعض مع البعض الاخر، ففي هذه الظروف، كان على الحكام ان يلجأوا الى العلماء لنيل تأييدهم (٣٣١)، ومن جهة اخرى فان الاضطهاد الذي مارسه البكوات المسيطرون قد استثار ردود فعل شعبية عنيفة احيانا، الامر الذي جعل تدخل العلماء مفيدا، بوصفهم وسطاء تقليديين بين الفئة المسيطرة المغلقة على نفسها و الرعية (٣٣٢).

لكن الدور الذي اضطر العلماء الى لعبه كان بالضرورة متباين الظلال، ان لم يكن ملتبسا و متناقضا، فمن جهة، لم يكن العلماء طبقة اجتماعية، كما كانوا متنوعين تنوع المجتمع المصري الذي كانوا ينتمون اليه، ولئن كان كثيرون منهم قد ظلوا قريبين من السكان، فان عددا معينا، خاصة الاوسع نفوذا، كانوا ينتمون الى البرجوازية الكبيرة و قد شاطروها وجهات نظرها، ومن جهة اخرى، كان جانب من العلماء يدين بسلطته و بدخوله للفئة الحاكمة المغلقة على نفسها، بأشكال متباينة (٣٣٣).

و الحال ان الحماية التي مارسها المماليك لحساب العلماء قد وضعت هؤلاء الاخيرين في موضع التبعية لهم و خلقت بين الطرفين تشاركا قويا للمصالح وجعلت من الصعب على العلماء ان يتصرفوا بما يتعارض مع مصالح الحكام المصريّين، وذلك ايضا

(٣٣١) حاول الامراء المماليك في مناسبات مختلفة استخدام العلماء لحل ازمات سياسية، ففي عام ١٧٨٣ طلب ابراهيم بك الى عدد معين من المشايخ مقابلة مراد بك الذي كان قد انسحب من القاهرة، للتشجيع على التوصل الى مصالحة، وعند وصول حملة حسن باشا عام ١٧٨٦ ارسل مراد و ابراهيم بك اليه، في رشيد، ثلاثة من مشايخ الازهر واسعي النفوذ، لتأييد قضيتهما . الجبرتي عجائب، ج ٢ / ص ٩٧.

(٣٣٢) الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٦٩.

(٣٣٣) وضع العلماء التابعين لسلطة المماليك انفسهم موضع المعارضة للسلطة العثمانية، لا سيما ضد حملة حسن باشا، اذ رفضوا الانصياع لطلبه بان يقفوا معه ضد المماليك . الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٧٩.

بقدر ما دفعهم تراثهم الثقافي الى اعتبار كل سلطة قائمة شرعية، ومن ثم كان لا بد للمشايخ الميل الى تبني مواقف محافظة بالأحرى(٣٣٤).

ساعدت الاعوام الاخيرة المضطربة، للقرن الثامن عشر على صعود عدد معين من العلماء الذين تتوجب مراعاة شخصيتهم و مسيرة عملهم، و منذ يوليو / تموز ١٧٩٨ اصبحوا مدعوين من جانب الفرنسيين لتحمل مسئوليات في الحكم الذي اقاموه في مصر(٣٣٥).

وهنا ظهر الجبرتي، ومع انه يتخفى بالضرورة وراء قناع الراوية(٣٣٦) الا انه ليس بالإمكان بالطبع المرور مر الكرام على كاتب العجائب، فالجبرتي كان يسعى دوما الى تحديد دور العلماء بدور اكبر في الحياة العامة و السياسة، و ألا يقتصر دورهم على جمع الاموال و الجاه، وكانت علاقاته معه المماليك تفسر النفور العميق الذي كان المؤرخ يكنه لهم لتدميرهم النظام السياسي التقليدي، و هو نفور صبه على غالبية امراء المماليك، وكان بوسع الجبرتي ان يعطف دون شواغل مادية على ميله الى التاريخ، وان يروي تاريخ بلاده في القرن الثامن عشر، وكانت رؤيته للعالم رؤية عالم مدرك لمآثر الجماعة التي ينتمي اليها، رؤية عضو في المؤسسة الازهرية المعادية للمتطرفين المتصوفة الذين يسير خلفهم شعب جاهل على استعداد لتصديق أي شيء، وكانت رؤية برجوازي كبير ناقد للجماهير الشعبية التي يكن لها الاحتقار و يخشى من افعالها الغاضبة العنيفة، و النظرة القاسية التي

(٣٣٤) يشير الجبرتي الى ان العلماء اضطروا في كثير من الاحيان التخلي عن الكثير من الامور الشرعية في مقابل ارضاء السلطة التي هي نتيجة بديهية للحفاظ على المكاسب التافهة . الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٤٨.

(٣٣٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.

(٣٣٦) كنا قد ذكرنا سابقا، ان الجبرتي كثيراً ما يخفي شخصيته في ذكره للاحداث، وحتى من خلال الشواهد التي تحيط بوصفه للحدث و التي تؤكد على تواجده مكان الحدث، وانه عنصرا فاعلا في الحدث، الا انه يكتفي بالاشارة الى رواية الحدث فقط دون ذكر تفصيل يلمح الى تواجده، وهي تقنية استخدمها الجبرتي لاخفاء شخصيته .

يلقيها الجبرتي على الادارة السيئة لشئون مصر من قبل المماليك، تجعل الامر واضحا بان الجبرتي كان يؤثر مراقبة الاحوال السياسية على الانخراط فيها، فغيابه عن الحركات الكبرى لأواخر القرن الثامن عشر مثير للانتباه، ولا مراء في ان هذا الغياب انما يرجع الى نفوره من الجماهير كما يرجع الى شكه الصارخ في الحياة السياسية (٣٣٧).

و العلماء الصغار كما يسميهم الجبرتي بهذا الاسم في عدة مناسبات في كتابه، هم سواد المدرسين و المساعدين ذوي المرتبة المتواضعة و الذين يمارسون عملهم في الازهر و في المدارس و التكايا الرئيسية، حيث يؤدون وظائف قضائية و يقودون الطريق، مع مراعاة ان الانتقال الى نخبة كبار العلماء كان يترتب على الهيبة و النفوذ الشخصيين كما على ممارسة وظائف مهمة(٣٣٨).

و الحال ان صغار العلماء ذوي المكانة الادنى من مكانة كبار العلماء بما لا يسمح لهم بالحصول على المناصب الاوفر عائدا، كان عليهم احيانا ان يعثروا على سبل للعيش بممارسة حرف مرتبطة الى هذا الحد او ذاك بنشاطاتهم، ونجد بينهم كتبة و نسّاخين، و من ثم فان ثروات هؤلاء العلماء كانت متواضعة اذا ما قورنت بثروات كبار الوجهاء .مما

(٣٣٧) وضع الجبرتي العبء الاكبر على العلماء و على الامراء المماليك، وعلى تحملهم الانحطاط و التخلف و الدمار الذي اصاب مصر، وكان من اسباب ذلك التخلف هو مجيء الفرنسيين . الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ص ١٢-٤٦.

(٣٣٨) يسمي الجبرتي بعض العلماء بـ (العلماء الصغار) وقد تبين من خلال مراجعة بعض تراجمهم التي كتبها الجبرتي، انهم كانوا من الطبقة الدنيا داخل طبقة العلماء، ويوضح ذلك وجود تراتبية و نخبة داخل نخبة العلماء، بمعنى ان طبقة العلماء بدأت تتشكل داخلها دوائر دوائر، مما يدعو الى صراع هؤلاء العلماء على كسب احد الامرين، فالعلماء الكبار كانوا يسعون دوما الى كسب ود الطبقة الحاكمة، بينما اكتفى العلماء الصغار الى كسب ود الشعب، وقد كون ذلك بالنسبة لهم، نوعا من السلطة . الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٩٦.

جعلهم جد قريبين بالطبع من السكان الذين عاشوا بين ظهرانيهم وتقاسموا معهم حياتهم المتواضعة، الامر الذي كان من شأنه ان يمنحهم نفوذا ملحوظا (٣٣٩).

تمتعت طبقة العلماء بامتيازات كبيرة جداً، تمثلت في كونهم اولا الوسطاء بين الرعية و الحاكم، و من ثم المنبر الاول الذي يخشاه الحكام، وكان ار ضاء هذه الطبقة من قبل السلطة حاجة ملحة للحفاظ على التماسك السياسي و الاجتماعي لمصر، اذ مثلت تلك الطبقة حجر الزاوية في ذلك التماسك، لا سيما و ان العلماء في ظل الموروث الديني الاسلامي قد مثلوا صيغة تقترب من القداسة اذ كانوا "ورثة الانبياء" (٣٤٠) .

و قد راهن الجبرتي على دور العلماء في صلاح الامة، و حدد دورهم بدقة، ولكن ذلك الدور لم يتمثل بعلماء عصره، او كما سماهم "المشايخ" (٣٤١)، الذين لم يقدروا على صد الاذى عن الامة المصرية بعد دخول الفرنسيين، اذ دعوا الى التضرع الى الله في المساجد و الاكتفاء بقراءة القران و الحديث النبوي، بينما كان يتعين عليهم دورا اكثر عمقا و توجيها للرعية، اذ يقول : "وقد كانت العلماء عند توجه مراد بيك تجتمع بالازهر كل يوم ويقرءون البخاري و غيره من الدعوات ..." (٣٤٢)، في حين كان الاجدر بهم ان يحرضوهم على ما هو اكبر من ذلك، فقد كان الرسول و الصحابة و المجاهدين، انما كانوا يقاتلون بالسيف و الحراب و ضرب الرقاب، لا برفع الاصوات و الصراخ و النياح، ولكن الجبرتي كان موقنا بان دورهم لن يتعدى ذلك، ثم استدرك " ومن يقرأ و من يسمع" (٣٤٣) تعقيبا على تلك الحالة الرثة التي شهدها العامة بعد اغفال العلماء لدورهم الحقيقي.

و بالوقوف على نص البيان الذي حدد فيه بونابرت "غاياته السلمية" لاستهلاك الراي العام المصري الذي كان يحلم بكسب تصالحه، و الحال ان هذه القطعة الجميلة من

(٣٣٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٧.
(٣٤٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٨.
(٣٤١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦.
(٣٤٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.
(٣٤٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٠.

قطع البلاغة السياسية المكتوبة باسلوب الحرب على القصور و السلم للاكواخ، انما تشهد على عمق الفهم النابليوني للوجدان الشعبي المصري، فهي حملة موجهة ضد المماليك الذين اهانوا الامة الفرنسية و حاصروا تجاررها بالمظالم : " **من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الابازا والكرجستان يفسدوا في الإقليم الاحسن الذي يوجد في كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شي قد حتم على انقضاء دولتهم**" (٣٤٤).

لقد جاء الفرنسيون لانصاف المصريين : " **انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ... من اليوم فصاعدا لايستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها**"(٣٤٥) .

وهم يحترمون الدين الاسلامي : " **ايها القضات والمشايخ والايمة ويا ايها الشورباجية واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرانساويه هم ايضا مسلمين خالصين**"(٣٤٦) .

---

(٣٤٤) نص البيان الذي اورده الجبرتي يقترب جدا من النص الوارد في مراسلات نابليون الاول، ويقترب ايضا مع بعض الاختلافات من نص المنشور الذي تم نشره بين المصريين . الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤ - ٦ ؛

Correspondence de napoleon , vol.1 , No.2698. P.245.

نص المنشور الاصلي، والذي اطلع عليه الباحث في دار الكتب و الوثائق القومية في القاهرة تم ارفاقه في الملاحق .

(٣٤٥) مثل هذا النص اول دعوة من نابليون للعلماء و للرعية على الدعوة للمشاركة السياسية، وان اساس المشاركة في الحياة السياسية انما يستند على الكفاءة و المساواة .

(٣٤٦) رغم ان المصريين كانوا على دراية تامة بان ما يدعو اليه نابليون من انه مسلم يحب الدين الاسلامي و نبيه، الا ان الجبرتي يذكر ان لغطا حصل بين الناس بان نابليون مسلم وانه جاء لتخليص المسلمين من الظلم و الاضطهاد . الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.

و الخلاصة ان الفرنسيين قد جاءوا لاستعادة سلطة العثمانيين : " **الفرانساوية في كل وقت من الاوقات صاروا المحبين الاخلصين لحضرة السلطان العثمانلي واعدا اعدايه ادام الله ملكه وبالمقلوب المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غير ممتثلين لامره**" (٣٤٧).

و خلافا لذلك تتميز بوضوح كامل مقاصد تلك الفقرات التي يعبر فيها الجبرتي عن شكه حيال دعاوى الفرنسيين الدينية رغم اعتقاده بوجود تعارض صارخ بين الاسلام و الرسالة الجمهورية المحمولة الى المصريين، و هو يشير الى تماشي الصيغ التي استخدمها بونابرت مع مبادئ الديانات الثلاث، لكنه يبين تعارضها مع الاسلام فيما يتعلق بنقاط اساسية مختلفة، كالشهادتين و رسالة محمد النبوية، و يرصد عددا معينا من الصيغ الخاطئة ايضا فيما يتعلق بالاسلام، كما يشير الى ان ممارسة السياسة للثوار لا تتماشى ايضا مع احترام المسيحية، واستنتاجه من زاوية النظر المزدوجة هذه، استنتاج سلبي تماما : " فهؤلاء القوم خالفوا النصارى و المسلمين و لم يتمسكوا من الاديان بدين، فتراهم دهرية معطلون و للمعاد و الحشر منكرون وللنبوة و الرسالة جاحدون " (٣٤٨)، ثم تتضح الازدواجية " وهؤلاء لايتدينون بدين، ولكنهم يحكمون العقل" (٣٤٩).

ولاشيء في ممارسة الفرنسيين السياسية [اقامة جمهورية و اختيار نواب الى احترام المساواة و الحرية (التي يجري تفسيرها على نحو غريب على انها تعني«ليسوا أرقاء

---

(٣٤٧) علم نابليون على ان المصريين رغم دعواتهم المتواصلة للتخلص من حكم المماليك الظالم، الا ان انتمائهم للدولة العثمانية كان شيئا لا مفر منه، لذا جاء هذا النص ليؤكد انه ايضا ما جاء الا للحفاظ على هذه السلطة.

(٣٤٨) رغم عدم وجود اشارات قوية تؤكد بان الجبرتي مطلع على الثورة الفرنسية، الا ان الباحث يفترض ان الجبرتي قد تعرف على الثورة الفرنسية من خلال بعض الجنود، وربما قام الفرنسيون بتوزيع الكراسات التي تشرح عن الثورة الفرنسية و قيامها و مبادئها، فقد علم الجبرتي ان الفرنسيون قاموا ضد الكنيسة و ضد السلطة الدينية.

(٣٤٩) يؤكد الجبرتي على اعجابه بالعقلانية الفرنسية، وقد ذكر في اكثر من موضع استخدامهم العقل و الحكمة، على الرغم من موقفه الحاد تجاه علمانيتهم .

كالمماليك»] يظهر انه يثير استهجان الجبرتي على نحو خاص، لكن الذم النهائي الصادر عن المؤرخ في شكليته، انما يتميز باستحالة الرجوع عنه : "عجل الله لهم الوبال و النكال، واخرس منهم عضو المقال، وفرق جمعهم و شتت شملهم، وافسد رأيهم واخمد انفاسهم، انه على ذلك قدير و بالاجابة جدير" (٣٥٠).

و اذا كان من المستحيل بالطبع اعتبار الجبرتي ممثلا لمجمل المجتمع المصري في تنوعه، الا ان بالامكان الاعتراف بانه يجسد بشكل مشروع البرجوازية المثقفة، التي توجه اليها بونابرت في البداية و طمح الى اغرائها لكي تخدمه في مشروعه الخاص بالسيطرة على البلد، وفي رد الفعل الاول من جانب الجبرتي على الاطروحات التي طرحها بونابرت، نرى ارتسام ريبة عميقة تجاه اهداف الفرنسيين، وادراكا بالغ الحدة للتنافر الديني الذي يفصلهم عن المصريين المسلمين، ايا كانت المحاولات التي قام بها بونابرت لتخفيف حدة هذا الاختلاف(٣٥١).

في المقابل و على مستوى سياسي بشكل ادق، فلا شيء في تعليق الجبرتي يوصد الباب امام تعاون معين ما دام الشك مستمرا حول رأي الباب العالي في مشروع بونابرت، واما فيما يتعلق بالمماليك، فان الجبرتي غالبا ما كان قد اعرب بالفعل عن استياء المصريين من الوحشية الاستبدادية و الاستغلال المنفلت اللذين فرضوهما على البلد، و الى هذه الشكايات القديمة سوف يضاف كره عميق لحكام تكشّف عجزهم عن حماية البلد من غزو مسيحي، وفيما يتعلق بمشكلة الحداثة، بامكانية العمل على تطوير البلد في اتجاه نظام مختلف، لم يعبر الجبرتي عن عداوة مبدئية بقدر ما عبر عن الشك النابع من جهله العميق

---

(٣٥٠) الجبرتي، مظهر، ج ٢ / ص ٤٧، وجدير بالملاحظة هنا، ان هذا النص ورد في مظهر التقديس و لم يرد في عجائب الاثار، ويجب ان نتنبه الى ان الجبرتي اراد من مظهر التقديس التملق الى العثمانيين، ولا يعني ذلك بالضرورة ان هذا الراي يمثل الراي الحقيقي للجبرتي، اذ ان ارائه الواردة في مظهر التقديس كانت دائما ضد الفرنسيين، في حين ان اعجابه و مدحه للفرنسيين كان كامنا في عجائب الاثار، وقد ذكرنا هذا في المبحث الثاني من الفصل الاول.

(٣٥١) حاول نابليون التقرب من المصريين بشكل كبير، من خلال اقامة الاحتفالات الدينية .

بالعالم الذي لا يعرف منه سوى الدولة العثمانية، و هي كيان مطمئن و خانق في آن واحد كانت مصر جزء منه منذ ثلاثة قرون، وحيال هذا الجهل و هذا الشك كان هامش المناورة الذي يتمتع به بونابرت محدودا : ((قوله : 'انني ما قدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين'، هذه اول كذبة ابتذرها و فرية ابتكرها))(٣٥٢).

في القاهرة، من الطبيعي ان وصول نبأ الفرنسيين الى الاسكندرية قد سبب صدمة قوية و انزعاجا عميقا، وبين الحكام انفسهم كان الذهول عظيما، و في ذلك اليوم نفسه، عقد ابراهيم بك 'شيخ البلد' اجتماعا في قصر العيني، حضره الباشا العثماني و مراد بك و الامراء الموجودين في العاصمة و القاضي و المشايخ الرئيسيون : عبدالله الشرقاوي و خليل البكري و محمد المهدي و سليمان الفيومي و مصطفى الصاوي و احمد العريشي و محمد الامير و عمر مكرم، نقيب الاشراف، و الشيخ السادات، الى جانب مشايخ عديدين من 'العلماء الصغار' تلك الشخصيات التي كانت الاحداث السابقة على عام ١٧٩٨ قد وضعتها في الصدارة (٣٥٣).

وتشير المناقشة التي كان الديوان مسرحها الى وجود شيء من التشويش حول طبيعة الحملة، فقد راى عدد من المتحدثين(من بينهم مراد بك) ان الفرنسيين ما كان بوسعهم ان يجيئوا دون اتفاق مع الباب العالي، وهو رأي اعترض عليه الوالي العثماني، و اعرب بعض المشايخ،بقدر من القوة،عن شكاياتهم ضد المماليك الذين اهملوا تأمين البلد، وكان الشيخ السادات قويا في شكايته بشكل خاص : 'كل هذا من سوء فعلكم و ظلمكم، وآخر امرنا معكم ملكتمونا للافرنج، ثم اتجه الحديث الى مراد بك بالاخص : وخصوصا بأفعالك و تعديك انت و امرائك على متاجرهم و اخذ بضائعهم وإهانتهم(يقصد بهم الفرنسيون)'(٣٥٤).

---

(٣٥٢) الجبرتي، مظهر، ج ١ / ص ١٤.

(٣٥٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦.

(٣٥٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.

و بعد ان اقترح الباشا العثماني حجز الاوربيين في القلعة(لحمايتهم دون شك كما لمراقبتهم)، اقترح بعض الامراء قتل مسيحيي القاهرة قبل الزحف ضد "الكفار"[٣٥٥] ، وهو اقتراح عارضه ابراهيم بك و الباشا العثماني موضحين ان المسيحيين "رعية مولانا السلطان" [٣٥٦] ، وقد وافق الشيخ السادات و نقيب الاشراف، وبعض العلماء االصغار على هذا الرأي، واتخذ الاجتماع قرارا بارسال تقرير الى اسطنبول وباتخاذ تدابير دفاعية، فخرج مراد بك لملاقاة الفرنسيين في ٦ تموز ١٧٩٨ بينما تحصن ابراهيم بك في بولاق [٣٥٧].

و في الايام التالية، اكدت الانباء اقتراب الفرنسيين وساد الارتباك في القاهرة حيث راجت شائعة مزعجة، واستفاد قطاع الطرق من ذلك لكي ينشطوا على اطراف المدينة و تردد الناس في الخروج من بيوتهم، وسعيا الى الحفاظ على حياة طبيعية و الى طمأنة السكان، امرت السلطات بان تظل الاسواق و القهاوي مفتوحة ليلا و باضاءة البيوت و الدكاكين، وفي ٩ تموز وصل نص بيان بونابرت الامر الذ اجج المناقشات حول هدف الحملة و حول الدور الذي قام به الباب العالي في ذلك في نهاية الامر[٣٥٨].

و عندما وردت اخبار في ١٥ تموز تفيد هزيمة مراد بك، قبل ذلك بيومين، قرب الرحمانية في شبراخيت، كان الانزعاج عظيما في القاهرة، فالفرنسيون قد اقتربوا بحيث صاروا على بعد مسافة ١٣٠ كيلو متر، وفي يوم ١٧ وجه ابراهيم نداءً الى السكان لكي يشاركوا في الدفاع عن المدينة، ببناء تحصينات من بولاق الى شبرا، فاغلق الناس الدكاكين و الاسواق و اتجهوا الى بولاق" : فكانت كل طائفة من طوائف اهل الصناعات يجمعون

---

(٣٥٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤.

(٣٥٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٢.

(٣٥٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٦.

(٣٥٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦ ؛ الحنفي، يسرى محمد عبد الهادي، اثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في شبه الجزيرة العربية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١، ص ٢٣٥.

الدراهم من بعضهم و ينصبون لهم خياما ويجلسون في مكان خرب او مسجد و يرتبون لهم بما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التي جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالانفاق على البعض الاخر ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة او الشوام بالسلاح و الاكل وغير ذلك بحيث ان جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما في قوتهم و طاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق اموالهم فلم يشح في ذلك الوقت احد بشيء يملكه"(٣٥٩).

هكذا وصف الجبرتي تلك التعبئة العامة للسكان، الاعيان و الفئات الفقيرة كتفا لكتف، في مناخ زخم وطني عززته حمية التظاهرات الدينية، وخلال ايام الحمى الوطنية و الدينية كانت القاهرة و كأنها خلت من سكانها القادرين على القتال، فالاطفال و العجزة قد اعتكفوا مع النساء في البيوت، وكانت الشوارع خاوية من المارة، وغطتها الاتربة كلها لعدم كنسها و رشها، وفي هذه الحماسة الدينية، لم يشعر مسيحيو القاهرة بالارتياح و خافوا من تجسد التهديدات التي كانوا عرضة لها، فقد كان يقال لهم :"اليوم يومكم، قد حل قتلكم ونهبكم و سلبكم"(٣٦٠)، وسعيا الى تهدئتهم، اكثر الباشا العثماني و ابراهيم بك من التطمينات وامر بان يتم في المدينة الاعلان عن حظر ازعاجهم او التعدي عليهم و ارسل جنودا لحمايتهم، ومما لا مراء فيه ان هذه الاحتياطات لم تكن عديمة الجدوى، ويلاحظ الجبرتي ان العامة كانوا يفتشون بيوتهم و كنائسهم بحثا عن الاسلحة، و العامة "لاترضى الا ان يقتلوا العامة"(٣٦١)، اما فيما يتعلق بالإفرنج فقد كانوا في مأمن من ذلك في القلعة (٣٦٢).

لكن هذه الحركة الوطنية كانت غير ذات فائدة، فعندما وصل بونابرت في صباح ٢١ تموز ١٧٩٨ الى ام دينار سحق القوات المملوكية قرب امبابة، خلال مواجهة منحها اسم معركة الاهرام الاكثر ايحاء، مع ان الاهرام كانت تبعد بمسافة ١٢ كيلو مترا، الا انها

---

(٣٥٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٥.
(٣٦٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٧.
(٣٦١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٣.
(٣٦٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٤.

كانت مرئية تماما، ومن ضفة بولاق كان بوسع القاهريين ان يتابعوا المعركة و ان يسمعوا بشكل خاص القرقعة المهولة[٣٦٣]، وبينما اتجه الباشا العثماني و ابراهيم بك وحاشيتهما شمالا صوب العادلية، ارتد السكان صوب القاهرة يملؤهم الخوف و اليأس، وقد رسم الجبرتي لوحة آسرة لهذا الارتداد : " ولوا الادبار كامواج البحار وصار الشاطر فيهم هو الذي يسبق رفيقه، وترك غالب الاعيان مطابخهم وخيامهم وفروشهم، وعلا الصراخ و النحيب من البعيد و القريب، ودخلوا المدينة افواجا اافواجا و النساء يصرخن من الطيقان فرادى و اوزواجا"[٣٦٤].

وفي القاهرة كانت الليلة كئيبة ظلماء وبينما انهمك **الجعيدية و اوباش الناس** في نهب بيوت ابراهيم بك و الامراء، قرر عدد من الشخصيات المهمة في النخبة المصرية مغادرة المدينة، تلك كانت بوجه خاص حالة المشايخ الشرقاوي و السادات و عمر مكرم و الامير و البكري و تجار معروفين وموظفين في مناصب ادارية رفيعة، وبالنسبة للبعض كان ذلك نفيا نهائيا، اذ غادر الشيخ احمد الطرابلسي رئيس رواق المغاربة في الازهر الى القدس ومات فيها، لكن الغالبية لم تذهب بعيدا جدا، فلكثرة تعرضهم للهجوم و النهب من البدو كانوا يعودون الى القاهرة[٣٦٥].

ومن ثم لم تعد في القاهرة سلطة لا باشا و لا مماليك، و المشايخ الاكثر تمثيلا كانوا هم انفسهم قد رحلوا، وفي صباح الاحد ٢٢ تموز اجتمعت مجموعة من اهل العلم في الازهر لمناقشة الوضع و لتدارس المستقبل، و الحال ان العلماء وحدهم هم الذين كان بوسعهم لعب دور الوساطة بين الغازي و السكان المصريين، سعيا الى تجنيب العاصمة ما هو اسوأ، وكان هذا الدور تقليديا تماما بحيث انه لا مراء في انه لم يكن صعبا عليهم جدا اتخاذ قرار بتكوين وفد يقابل الفرنسيين للبحث معهم في استسلام القاهرة، وهو الحل

(٣٦٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣١.
(٣٦٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٢.
(٣٦٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢١٣.

الوحيد الممكن في الظروف القائمة، ومن جهة اخرى فان فهذا الرأي الذي اشار به الافرنج المحتجزون في القلعة الذين جرت استشارتهم، ويبدو ان الشيخين مصطفى الصاوي و سليمان الفيومي هما اللذان كلفا بهذه المهمة الصعبة المحفوفة بالمخاطر[٣٦٦].

ومازال هناك بعض الشك حول مسار هذه المهمة، فالمصادر المصرية و الشهادات الفرنسية الرئيسية ليست على اتفاق دائما، وبما ان الجيش الفرنسي كان مرابطا على الضفة الغربية للنيل، فقد كان من الضروري ان تحدث رحلات ذهاب و عودة للوسطاء لإيجاد الاتصال، وعندما اجتاز الوفد النهر، التقى اولا بالجنرال دبوي، حاكم القاهرة فيما بعد ثم ذهب الى الجيزة حيث مقر بونابرت، وقد سئل الشيخ عن الزعماء الباقين في المدينة، فأجاب بان : " الحكام ولت و الرعية ذلت، وقد اتينا من قبل علماء البلد والاعيان تطلب لهم الامان"[٣٦٧].

هنا اعاد الفرنسيون الى الاذهان انهم سبق لهم ان قدموا بالفعل ضمانات، وان لا خصوم لهم سوى المماليك، وانهم ينوون التعامل بالحسنى مع المشايخ و العلماء و الوجهاء و الرعية، وكانت هذه التطمينات الجديدة موضوع بيان صادر عن بونابرت، الذي اورده الجبرتي، وموجه الى سكان القاهرة، اكد من جديد ضمانات الامن للأشخاص و للبيوت وللمتلكات "ولاسيما لدين النبي الذي احبه" [٣٦٨]، وكل ذلك باسلوب "كلماتهم المحرفة والفاظهم المعجرفة" [٣٦٩]، كما اكد بونابرت على انشاء ديوان مؤلف من سبعة اشخاص يكونون مستشارين ومديرين ويتولون تعيين مباشرين لاداء المهام الحكومية و الادارية الرئيسية، وعندئذ ابلغه المندوبون ان : "ان مشايخنا الكبار فزعوا و خرجوا من

(٣٦٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٨.
(٣٦٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦.
(٣٦٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٥.
(٣٦٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٧.

مصر، فقال : لأي شيء خرجوا ؟ اكتبوا لهم بالحضور " (٣٧٠)، وعلى الفور جرى تحرير مكاتبات بالأمان و ارسالها(٣٧١).

و عندئذ اصبح بوسع المشايخ ان يعودوا الى القاهرة، وانتقل الجنرال دبوي الى بولاق مع مائة جندي "حيث كان العلماء بذلك الاتفاق، وساروا قدامه بالمشاعيل الى ان دخلوا المدينة و المنادية تنادي أمامه بالامان على الرعية و الاعيان" (٣٧٢)، واقام الجنرال في بيت ابراهيم بك الصغير، الواقع في شارع الظلام في حي بركة الفيل الراقي، وامر بالاستيلاء على قلعة القاهرة، وعادت الطمأنينة الى السكان الذين كانوا منزعجين طوال غياب الوفد(٣٧٣).

و من ثم اصبح يتعين على العلماء القيام بالدور الاكثر مسؤولية في حفظ وجود الفرنسيين، وتطبيقا لما جاء في بيان بونابرت الى المصريين : " **فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها**"، و ماكاد بونابرت يستقر في القاهرة، في قصر محمد بك الالفي، على ضفاف الازبكية، حتى اتجه من فوره الى انشاء مؤسسة شكلت عماد التنظيم الفرنسي في مصر : الديوان، ذلك الديوان الذي صاغه من حيث الجوهر المستشرقان فينتور و ماجللون، هؤلاء المشايخ الذين اعادوا ذات الدور الذي مارسوه في زمن المماليك، كتابعين للسلطة، وممهدي طريق السلطة لفرض الظلم على الرعية، من خلال التسويغات الشرعية، اذ اورد الجبرتي منشورا على لسان المشايخ، يتعين علينا ذكره كاملا لما فيه من الاهمية في اثبات الدور الذي لعبه العلماء كأبواق [مثلما كانوا من قبل مع المماليك] للفرنسيين اذ صدر بعد ثورة القاهرة الاولى في ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ :

(٣٧٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٨.

(3 7 1) Courrier de l'Egypte , No.2. 29 , aout , 1798.

(٣٧٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٧.

(٣٧٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٠.

"نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد، نعرف اهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية و اشرار الناس، حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعدما كانوا اصحابا و احبابا بالسوية،وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين، ونهبت بعض البيوت، ولكن حصلت الطاف الله الخفية، وسكنت الفتنة بعد شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرته، وارتفعت هذه البلية، لانه رجل كامل العقل عنده رحمة و شفقة على المسلمين، ومحبة الفقراء و المساكين، ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة، ونهبت جميع الاموال، وقتلوا كامل اهل مصر، فعليكم ان لاتحركوا الفتن، ولاتطيعوا امر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولاتتبعوا الاشرار، ولاتكونوا من " الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب، لاجل ان تحفظوا اوطانكم، وتطمئنوا على عيالكم واديانكم، فان الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء، ويحكم ما يريد، ونخبركم ان كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة، قتلوا على اخرهم واراح الله منهم العباد و البلاد، ونصيحتنا لكم ان لاتلقوا بايديكم الى التهلكة، واشتغلوا باسباب معايشتكم وامور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة، والسلام"[٣٧٤].

كان هذا الدور الاكثر سوءا بين الادوار التي لعبها العلماء في ذلك العصر، و كثيرا ما سعى العلماء من خلال ابراز المفاسد التي تترتب على أي فعل يؤدي الى الثورة على الظلم" **نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها و ما بطن، ونبرأ الى الله من الساعين في الارض بالفساد**"، جاعلين من الناس خاضعين بالكلية لأحكام الطبيعة، يحملون الاسباب دوما الى "عامة الناس واسافلهم" لدوافعهم البالية التي لا تتعدى الفهم الاستشراقي "**الجعيدية و اشرار الناس**"، فهم -العلماء- بهذا الخطاب الذي يدفع اللاشعور لدى الرعية بضرورة التراجع عن أي دور محفز للثورة ضد الظلم، وليس الامر بجديد على العلماء، ليس فقط علماء السلطة، بل حتى العلماء الصالحين -الساكتين عن الحق-، فالمكاسب التي قد تزول

(٣٧٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٠.

من بين ايدي العلماء نتيجة لان العامة و شرار الخلق " **حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنساوية بعدما كانوا اصحابا و احبابا بالسوية** "، هذا الخطاب الذي ظل دوما عبئا على العقل العربي و الذي جعل منه عقلا خاضعا لمقدرات كونية كان بالامكان تجنبها اذا ما ثار الوعي ضد الظلم، وتحفيزا لنزعة القبول للاستعمار، التي مارسها العلماء بشكل متقن، فهي اولا قابلية نفسية تتمثل بالاحباط النفسي و اللاجدوى من التغيير، وبالشعور بالعجز عن أي ابتكار او توليد، وفيها تنتعش الاخيلة الانكفائية التي تنطوي الى الداخل، لتبعث عن المعوض النفسي للضعف و الانكسار في قصص الماضي التي ليس لها حيوية حاضرة الا ما تثيره من معاني الانبهار، ولا صلة لها بالواقع، وغير قابلة للحضور مرة اخرى، ولكأن إنسان الاخيلة خارق لا سبيل لتشكيله مرة اخرى(٣٧٥).

من ثم فان العلماء و العامة على حد سواء كانوا في خندق واحد، فالعلماء الذين توقفوا عند الحصول على المكاسب، و تجيير الدين لأجل تلك المكاسب، كان ذلك بالضرورة يؤدي الى تشتيت العقل العربي و تجميده عند حد معين من القابلية للابتكار، فلا يوجد بين طيات الفكر العربي في عصر الحملة الفرنسية اكثر من الايمان بالخوارق، وجدير بالذكر هنا الموقف بين احد العلماء المصريين و العالم الفرنسي الذي كان يحدثه عن التجريبية العلمية و تقنياتها، فقال العالم الازهري للعالم الفرنسي : هل في علمكم الجديد ما يجعل الانسان موجودا هنا موجودا في الغرب في وقت واحد، فاجاب بان ليس في علومهم، لانه محال، فاجاب الازهري : لكن ذلك ممكنا في علومنا الروحانية، تلك الغيبية التي نادى بها العلماء المسلمين التي جعلت النفس العربية تائهة بين الروح و المادة، ثم تنيء عن العجز في الابتكار(٣٧٦) .

---

(٣٧٥) المدرس، فارس عزيز، الرؤية الان، دراسة تحليلية لعملية التغيير الحضاري للواقع السياسي المعاصر، دار الكتاب الثقافي، (الاردن : ٢٠٠٥)، ص ٤٥ .

(٣٧٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٣.

لقد كان مجيء الاستعمار بمثابة القنبلة التي هزت الامة، اذ رأت نفسها امام واقع جديد من التحدي تجتمع فيه القوة و العلم و الغرابة في التصورات و المعتقدات و الاخلاق، وكان من شظايا هذه القنبلة ان نسفت معسكر الصمت و اجترار الماضي، ولكن لتدع الانسان مشدوها امام هذا التحول في حركة التاريخ فعّرت ضعفه و انكساره، وخصوصا كون هذه الهجمة اتت من حيث لم تحتسب، اتت من الغرب الذي لم يكن يشكل عبر قرون الماضي مثل هذه الوطأة في حركة التاريخ و الحضارة الاسلامية رغم ما افرزته الحروب الصليبية من خراب و عوق، ان هذا التحدي الجديد فرض حالة ملحة الى الخروج من واقع التخلف و الضعف لانه بات تحديا مصيريا.

من هنا برزت المهمة الكبرى للاصلاحيين الرواد -العلماء- الذين كان عليهم ان يشكلوا من ذلك الركام في جو الظلام و الاستكانة الموهنة معالم حركة تغيير وانبعاث جديد، لكن الامر لم يكن بهذه الصورة، فالعلماء استمر و استقر دورهم في تنمية التخلف و الخوف و التسليم بجبرية الاحداث " ولاتكونوا من ' **الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب، لاجل ان تحفظوا اوطانكم، وتطمئنوا على عيالكم واديانكم، فان الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء، ويحكم ما يريد، ونخبركم ان كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة، قتلوا على اخرهم واراح الله منهم العباد و البلاد، ونصيحتنا لكم ان لاتلقوا بايديكم الى التهلكة، واشتغلوا باسباب معايشتكم وامور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة، والسلام**'[٣٧٧].

وقد أكد الجبرتي على مسألة بالغة الاهمية، من حيث هي سبب في تخلف العرب المسلمين، وهي تخلف النخبة، تخلف قادة الفكر، وعرض لمعالم هذا التخلف الفكري جريا على منهجه في اختيار النماذج البشرية التوضيحية لكل من اجيال العصور الوسطى و العصر الحديث، فاوضح ان علماء العصور الوسطى من رجال تلك المرحلة كانوا من اصحاب العلم المتبحر الذي عرفوه في كتب المتأخرين، والذي ما زال يطبع بتأثيرهم عقول

(٣٧٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٠.

الملايين بطابع الجمود و ضيق الافق، اما النماذج التي عرضها عن دعاة العصر الحديث فكانت هي التي تدعو الى التمسك بذلك التراث القديم، والتي تمارس التخلف و الجمود الفكري باشكاله المتعددة، التي تمسكت بالاباطيل و الاوهام (٣٧٨).

وكان اهم شيء ذكره الجبرتي عن هؤلاء العلماء التقليديين هو انهم قصروا جهودهم على الدراسات الدينية من حديث و تفسير وجدل العقائد دون اجتهاد، وانهم نسوا ان الاجتهاد كان سببا في ازدهار الحياة الفكرية ايام مجد المسلمين، فكان كل همهم متابعة الحواشي، وحواشي الحواشي، دون فهم او تبصر، والترديد الاصم للكلمات، وربما اباح هذا النفر لنفسه الاخذ قليلا بعلم الحساب، ولكن بقصد الاستعانة به في علم الميراث ـ، اما العلوم الاخرى التي ظهرت اهميتها نتيجة الصراع الفكري في اوربا من الجبر و الهندسة و علم الطبيعة و الكيمياء، فقد بدت لهم غير جديرة بان تسمى علوما، وارجع الجبرتي فساد اخلاق العامة في سائر البلاد الى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى و الوعظ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس او يميزون لهم بين الحق و الباطل، والحلال و الحرام(٣٧٩).

وبذلك يكون العلماء قد لعبوا الدور الاكبر في تعزيز التخلف العقلي العربي و رجعيته الى العصور الظلامية، و الى دعوة الناس الى ترك الامر معقودا بالعلماء، اما العامة فقد قيل لهم : **"اشتغلوا باسباب معايشتكم وامور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة"**. اما التنوير و الابتكار و الثورة على الظلم و الاستبداد الذي كانوا

---

(٣٧٨) من خلال مقاربة اجراها الباحث على علماء ما قبل الحملة الفرنسية و علماء ما بعدها، يتضح التشابه في الدور و ثبات حركة التاريخ في الافعال و النتائج التي مارسها العلماء، ويتضح دورهم السلبي في ركود العقل المصري خاصة و العقل العربي عموما، وركز الجبرتي على هذه القضية من خلال تراجمه للعلماء، وجدير بالذكر ان التراجم التي كتبها الجبرتي تستحق الدراسة المتعمقة للوصول الى نتائج وفيرة لاسباب التخلف و الركود، لانه وضع بين تلك التراجم الكثير من الشواهد التي اعتبرها هو سببا في التخلف و الركود.

(٣٧٩) الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ٤٧.

انفسهم سببا فيه، فهم من صنع الطغاة و الظلمة، وهم من مهد الطريق لولادة عصور الاستبداد التي ما تزال قائمة فينا، هم العلماء وحدهم من يتحمل تلك المسؤولية على تدهور عقول العرب المسلمين.

وبونابرت الذي اتقن هذا الفهم العربي المتجمد حجريا، كان قد اعلن ان التدخل الفرنسي في مصر موجه ضد المماليك الذين كان نظامهم الاستبدادي قد اساء الى المصالح الفرنسية، واضطهد السكان، وليس ضد السياسة العثمانية، التي اساء المماليك انفسهم اليها من جهة، وفي هذا المشروع، ابدى الفرنسيون حرصا كبيرا على احترام معتقدات المصريين، ففي ٢٢ يونيو / حزيران ١٧٩٨، اعلن بونابرت لجيشه :"ان الشعوب التي سوف نحيا معها شعوب محمدية، احترموا رجال الفتوى بينهم واحترموا ائمتهم، ولتبدوا تجاه الشعائر التي يوصي بها القران، وتجاه المساجد، التسامح الذي ابديتموه تجاه الاديرة المسيحية و المعابد اليهودية، تجاه ديانة موسى وديانة يسوع المسيح "[٣٨٠]، وهي عبارات عمومية اضفى عليها برتيبه شكلا اكثر عسكرية في امره اليومي الصادر في ٣ يوليو / تموز " :ان القائد العام يريد ان يؤدي الاتراك شعائر دينهم في المساجد كما في السابق، وقد حظر حظرا شديدا على جميع الفرنسيين العسكريين و غير العسكريين دخول المساجد و التجمع عند باب مسجد من المساجد" [٣٨١]، ولم يتردد بونابرت نفسه في ابداء ما هو اكثر من الاحترام و الامتنان حيال الدين الاسلامي، الى درجة بدء حوار مع ممثليه يسمح لهم بافتراض انه بسبيله الى اعتناق الاسلام، كما ان المراعاة التي ابداها للأعراف المحلية قد قادته الى التفكير في ارتداء الزي الشرقي في حضور الديوان[٣٨٢].

كان المشايخ يشكلون القلب من الطبقة الوسطى باعتبارهم احدى القوى الحية التي تشكل منها المجتمع المصري في هذه الاونة ؛ اذ كانوا نخبة العلماء و المثقفين و الكتاب

(3 8 0) Courrier de l'Egypte , No.1.29 aout 1798.

(3 8 1) Courrer de l'Egypte , No.1.30 aout 1798.

(٣٨٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٥.

و المؤرخين وتكونت لديهم ثروات ضخمة دون دفع ضرائبها، ورغم هذه الحقيقة الواضحة الا ان البعض يتصور ان نفوذهم لم يبرز سوى بعد الحملة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص بعد اشتراكهم في الديوان الذي انشأه نابليون، تاريخيا نعرف ان الازهر ومشايخه ظل عبر اشتداد الظلم، وقام المشايخ بادوار مختلفة بين العامة و المماليك، وعمل اغلبهم بالتجارة، وكانوا في مأمن من مصادرة اموالهم ؛ وتراوح دورهم بين السلبية و الايجابية قبل مجيء الحملة، واثناء الحملة تعرف المشايخ و التجار بحنكة كبيرة حفظت لهم مصالحهم واموالهم، اذ تخلو الكتابات التاريخية من أي دور لعبه المشايخ الكبار ضد زحف الفرنسيين من الاسكندرية وحتى القاهرة، وكذا لم يشاركوا في المعارك الاساسية(شبراخيت،امبابة، الاهرام)، وكان العامة و الحرافيش الى جانب فرسان المماليك في مقدمة المتصدين،كما لعب مشايخ وعلماء القاهرة الكبار الدور الاكبر في تسليم القاهرة للفرنسيين بعد فرار المماليك، وهم الذين اخذوا الامان من بونابرت[٣٨٣].

ان سياسة بونابرت الهادفة الى اجتذاب النخبة المحلية، أي اساسا كبار العلماء الذين يمثلونها، قد احرزت قدرا من النجاح، فالمشايخ قد تمكنوا بصعوبة من ان يخدموا كوسطاء بين الفئات الشعبية و محتل اجنبي، والدين ايا كانت الإحتياطات التي اتخذها بونابرت، كانت بشكل رافعة جبارة لتعبئة الجماهير التي كانت معادية للاحتلال بشكل تلقائي، وفي هذه المساحة، قلما كان بوسع بونابرت الاعتماد على تفهم المشايخ، ناهيك عن قدرتهم على التأثير.

شكلت نخبة العلماء الذين شاركوا في الدواوين الثلاثة التي تشكلت الواحد اثر الاخر جماعة صغيرة : الشرقاوي و البكري و الصاوي و الفيومي و السرسي و المهدي و العريشي و الدواخلي و الامير، الذين اضيف اليهم الجبرتي في عام ١٨٠٠، و كانوا كلهم علماء مهمين و اغنياء كانت مسيرتهم العملية- العامة- قد بدأت قبل عام ١٧٩٨ بوقت طويل، والحال ان التعاون الذي قدموه قد بدا لهم متماشيا مع رسالتهم التقليدية، الا انه،

(٣٨٣) الجبرتي، عجائب، ج٣ / ص ٣٠- ٤٢ ؛ عبد الحافظ، مجدي، "الوعي السياسي" ص ٤٣.

بالرغم من التقديرات المتفائلة للسلطات الفرنسية، كان مصحوبا في الغالب بممارسة حق النقد او بتحفظ مهيمن اذا ما اخذنا بعين الاعتبار بأية قوة كان بوسع المحتلين ان يردوا اذا ما صادفوا عقبة في طريق سياستهم. الا ان هؤلاء المشايخ اعتبروا عموما بانهم من المشايخ الاكثر تعاونا مع الفرنسيين، و الذين انتزعوا اكثر المغانم من الاحتلال(٣٨٤) .

و الحال، ان العلماء في زمن الحملة الفرنسية قد لعبوا الدور الاكثر سوءا في اتمام عملية الانهاك المعرفي على المجتمع المصري، فبينما كان يتعين عليهم ان يلعبوا الدور الحقيقي الذي يلازم صفة العلم، تقوقعوا حول الحصول على المكاسب الرثة، كما سعوا الى الحصول على الثروات التي كانت رهينة الارتباط بين السلطة السياسية و السلطة الدينية، وجدير بالذكر ان السياسية الدينية التي اتبعها اولئك العلماء و اسلافهم على مر عهود طويلة، كانت سببا اكيدا في تكون صورة ذهنية لدى الغرب النابليوني، الذي سعى بكل جهد الى احلال سياسته الاسلامية للانقضاض على الشعب المصري، ولو كان العلماء-الشرعيين- يفهمون معنى العلم بمقدار اكثر حكمة، وان يربطوا بين العلوم الشرعية و العقلية، لما كانت تلك الصورة قد تكونت لدى الغرب، اذ ان كل ما كان يخيف الغرب هو تلك العقلية الدينية المتراوحة حول نفسها، والتي مزجت منذ وقت طويل بالخرافات و الخوارق، والاعتماد على الغيبيات في تفسير الاحداث، وترك عجلة التاريخ تسير بتراجع مستمر نحو الهاوية(٣٨٥).

ان العاقل المدرك لخفايا التاريخ، ليعلن ان العلماء كانوا جزءا مكينا من تخلفنا وتدهور عقليتنا وجمودنا الفكري و المعرفي، فعلى غرار الدور الذي مارسته طبقة رجال

(٣٨٤) يطرح التشكيل الدقيق لاول ديوان مشكلة، اذ ان القوائم الواردة في الامر اليومي(تسعة اعضاء)، وفي كتاب المدة للجبرتي وكتاب العجائب (عشرة)، وعند نقولا الترك(ثمانية)، تتباين بشكل ملحوظ سوى فيما يخص الشرقاوي و الصاوي و البكري و الفيومي الذين يرد ذكرهم في كل هذه الوثائق، انظر حول هذه المسألة : لورنس، هنري، الحملة الفرنسية في مصر،بونابرت والإسلام،ط١،دار سينا للنشر،(القاهرة:١٩٩٥)، ص ٤١٥.

(٣٨٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ص ١٤-٥٢.

الدين في اوربا العصور الوسطى، كان الدور الظلامي الذي مارسه علماء المسلمين اكثر تأثيرا - سلبيا - على المجتمع العربي الاسلامي، وهذه دعوة لإعادة دراسة كل الفتاوى الشرعية المتعلقة بالعلوم و التي صدرت عن علماء الاسلام، ودعوة لمراجعة تشتمل على تفسير التاريخ و العقل الانساني من منظور كوني، مبتعدين فيه عن المسلمات، و ما حصل في مصر زمن الحملة الفرنسية خير مثال على ذلك، والتساؤل هو الان : لماذا لا نفكر في اسباب مجيء الغربيين الينا، ونظل نهتم فقط فيما فعله الغرب فينا ؟ ولماذا لا نفكر في الوصول الى وعي مشكلتنا و تخلفنا التاريخي، ونظل نتباكى على اطلال قبور من مضوا ؟

ان الدور الذي يتعين على العلماء الربانيين لعبه في المجتمع العربي الاسلامي، يتعدى الكثير من الادوار التي يلعبها السياسيون، يتعين على العلماء السعي الى فتح ذهنية الناس نحو ادراك الحقائق من منظورها الفعلي، وترك التحولات الفكرية التي تقود الى دوامة عشوائية لا نتيجة لها، ان الجدل الذي مارسه العلماء و يمارسوه حتى يومنا هذا، في مسائل فرعية لا تأثير مباشر لها على الاحداث، جعلت من خلال اللاوعي و اللاشعور العقل العربي مرتهن بما لا فائدة منه، وترك الامور لاهليها، واصبح الانسان العربي دوما يدع الامور و الاسباب وفهمها و تفسيرها الى غيره، الى الطبقة الاعلى في المجتمع، وهم طبقة العلماء، ولكن ما لا يعرفه العامة، ان الخلل كامن في العلماء و انفسهم .

و هكذا دار الفكر الديني دورة كاملة، فاستخدمه العثمانيون و المماليك لاستعادة ملكهم الذي ضاع منهم، واستعمله نابليون ليجعل من حكمه حكم الله و من امره امر الله، وهذا و ذاك، نتيجة التأويل الفاسد لأحكام الدين و التفسير الخاطئ لآيات القران، فهل يجد المسلمون مخرجا من ذلك ؟ حتى لا يستغل الدين احد لاستعبادهم و استذلالهم، بعدما كان الدين منبرا للتحرر.

المبحث الثاني

المجتمع المصري في ظل الحملة الفرنسية

"التنوير"

شكّل " العامة " المستودع الاكثر غليانا للحركات الشعبية، كما يتضح ذلك جيدا في العقود الاخيرة للقرن الثامن عشر و خلال فترة الاحتلال الفرنسي القصيرة و في الاعوام الاولى للقرن التاسع عشر، و من الصعب التوصل الى تعريف دقيق لهذه الفئة الضخمة من السكان الحضريين لأنها ترتبك من ناحية بعالم الحرف الذي يستوعب شرائحها الاكثر بؤسا وترتبط من ناحية اخرى بعالم محروم و هامشي و متمرد يبدو انه يفلت من كل تحليل اجتماعي-اقتصادي دقيق (٣٨٦) .

و هذا الجزء من السكان الحضريين لا تتوافر عنه معلومات جيدة، فأرشيفات المحكمة الشرعية، و التي تعد سجلات التركات فيها ذات عون كبير في تعريف الوضعية الاجتماعية-الاقتصادية للتجار و لأصحاب الدكاكين و للحرفيين، نادرا ما تقدم معلومات عن جماعة سكانية محرومة تماما من الممتلكات، والجبرتي لا يذكر هذه الجماعة الا في فترات الازمة لكي يصف، بشكل معادٍ عادة، تصرفاتهم التي تتميز بالعنف(التمردات،اعمال النهب، المعارك)، ونادرا ما يجري ذكر قادتها، الى حد ان هذه الحركات و كأنها جماعية دون وجود مسئولين عنها او قادة (٣٨٧).

(3 8 6) Winter , Michael , Egyptian Society Under Ottoman Rule,1517-1798 , Rutledge , First Published , (New York:1992) , pp. 65-68.

(3 8 7) Zolondek , Leon , Ash-Sha□b in Arabic Political Literature of the 19th Century , WI ,

كان العمال الاكثر فقرا يكتسون بقميص ازرق، مصنوع من الصوف، وسكنهم عبارة عن كوخ، و كل اثاثهم يتألف من قطعة من الحصير، كانوا ينامون عليها مع زوجاتهم و اطفالهم، وهؤلاء التعساء لا ياكلون اللحم بالمرة، فهم يشترون الخبز و شيئا من الخضراوات المطبوخة او بيضا، والمرأة ايضا تلبس أزرق، اما الاطفال فانهم يمشون عرايا او متدثرين بالاسمال(٣٨٨).

و المجمل بالغ التنافر لهذه العناصر انما يؤلف " العامة " الذين يصور لنا الجبرتي فعلهم في حركات اواخر القرن الثامن عشر، وفي معرض تشخيصهم، علاوة على كلمات ((محايدة)) نسبيا كالعامة و السوقة، و التي تتميز مع ذلك بقيمة انتقاصية، فان الجبرتي قد استخدم الفاظا اكتسبت كلها معنى تحقيريا مثل : الاوباش، الغوغاء، الجعيدية، الحرافيش، الزعر، ومن المثير للملاحظة ان غالبية هذه الكلمات كانت قد استخدمت بالفعل لوصف الجماعات الشعبية التي عرفت نشاطا عظيما اواخر العصر المملوكي، حيث كانت كلمة الزعر انذاك الاوفر استخداما، وهذه الالفاظ الفظة انما تترجم بشكل بالغ الدقة شعور التقزز لدى الطبقة البرجوازية حيال جماعة سكانية فقيرة كات تظاهراتها مصحوبة باعمال العنف (٣٨٩).

و مواقع سكن هؤلاء السكان انما تخضع للقواعد الاساسية للتنظيم الحضري في المدن العربية الكبرى، فهم يحتلون المحيط الخارجي للمدينة او مناطق السكن الفقيرة المجاورة لمناطق الحرف و التي نأى عنها السكان الميسورون بينما كان على الفقراء ان يتكيفوا معها، وهي، في اقصى الشمال : ضاحية الحسينية، التي تتميز بوجود السلخانات، وفي شرق المنطقة المحورية للنشاط الاقتصادي : العطوف، منطقة باب الوزير، و الاحياء المحيطة

Vol. 10, Issue 1/2 (1965) , p 13.

الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ص ١٢ - ٣٢، ج ٣ / ص ١٦.

(٣٨٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٨.

(٣٨٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٨.

بالقلعة، الحطابة، والحبالة و الرميلة، وعرب اليسار و ابن طولون حيث كان بيع الخضراوات نشاطا مهيمنا، ومنطقة الجنوب : دروب الخليفة حيث توجد سلخانات، وفي غرب باب اللوق، حيث توجد سلخانات و مدابغ، وباب الشعرية، وهي منطقة تجارة في الحبوب و الفواكه، وخريطة وصف مصر ترصد هذه المناطق، وهي ساحة سكن فقيرة تلتف حول فناء و "عششا" و "اكواخا" و"خرابات"، كما ان هذه الاحياء الخارجية غالبا ما كانت المكان الذي انغرست فيه نشاطات تسلية مستحبة الى هذا الحد او ذاك (خرابات الحسينية و الرميلة و باب اللوق) (٣٩٠).

و بوجه عام، فان هؤلاء " العامة " بقدرتهم على تعبئة صفوفهم عندما يرهقهم الظلم و النوائب، وبالروح القتالية التي أبدوها احيانا، في ظل المماليك و الفرنسيين و الاتراك، لا يتطابقون مع تقديرات نيقولا الترك الذي وصفهم بأنهم بحكم طبيعتهم غير

(٣٩٠) الجبرتي، عجائب، ج ٢ / ص ١٥١ ؛ بالإمكان الاطلاع على خارطة القاهرة في كتاب وصف مصر، ج ١ / ص ٢٦.قام الباحث بزيارة جميع هذه المناطق، و الجدير بالذكر انه رغم الفارق الزمني بين الحملة الفرنسية والفترة التي زار فيها الباحث هذه المناطق في ٢٠١١/٧/١٤، تبين من خلال المعاينة المباشرة ان هذه الاماكن لا تزال قريبة جدا من مميزات ذلك العصر من حيث اشتغال السكان بتلك الحرف، والناظر اليهم يكاد يعتقد انهم لما يزالوا في فترة عهود متأخرة،، وحتى الناس فيها، يكادون يكونون بعيدين جدا عن مجريات الاحداث، فهم منغمسون في الاعمال اليومية، والكثير منهم جالس على الطرقات يحتسي المشارب و الدخان، ورغم وجود مؤهلات الحياة الكريمة، الا ان التقدم و التطور يكاد يكون بعيدا عنهم، كما رصد الباحث ضمن زيارته الكثير من الاحاديث و التقاليد المرتبطة تماما بذلك العصر، ولا تزال خرابات الحسينية عامرة بنشاطات التسلية و تتجمع فيها القهاوي بشكل ملحوظ، وحتى تلك الاكواخ و العشش لا يزال مثيلها قائما، وقد كتب الباحث مقال نشر على الانترنيت بتاريخ ٢٢-١٠-٢٠١١ بعنوان : "مشاهداتي عن القاهرة لحظة انهيار النظام"، بالإمكان الرجوع اليه للإطلاع على تفاصيل اوفى حول هذه الطبقة المعدومة في مصر.

ميالين الى القتال و لا يقدرون الا على الانكباب على النهب و اعمال العنف، فأحداث عام ١٧٩٨ و ١٨٠٠ تشكل تكذيبا لهذا الوصف التقليدي(٣٩١).

مع دخول الفرنسيين القاهرة، بدأت حالة من الفزع تنتشر بين اوساط العامة، فمنهم من كان يتجه الى السلب و النهب، انتقاما من الامراء و الطبقات العليا التي كان العامة ينظرون اليها من بعيد بعين الخوف و القلق، فشكل غياب الامن، وحالة الفوضى، فرصة جد قوية للانقضاض عليهم، فحدثت اضرابات و سرقات، وعمليات نهب و سلب اجتاحت القاهرة، وعمت الفوضى، وجانب اخر من العامة، التزم المشايخ و الجوامع، ومنهم من حمل سلاحه الخشبي و اتجه لمساندة الامراء المماليك (٣٩٢).

بعد فترة الفزع و الخوف، التي ميزت وصول الفرنسيين، نشأت علاقة اكثر انفراجا بين المحتلين و ضحايا الاحتلال، ولابد من افتراض ان العودة الى النظام، والتي فرضها الجيش الفرنسي، والتدابير المتخذة ضد النهب الشامل، قد اسهمت في تهدئة الخواطر و في اعادة الثقة، فأعادت الدكاكين فتح ابوابها وعادت النشاطات التجارية الطبيعية الى استئناف مجراها في القاهرة(٣٩٣).

وقد اتجه المحتلون و ضحايا الاحتلال الى تعرف كل طرف على الاخر، و على الجانب الفرنسي، كانت خيبة الامل عظيمة، فواقع القاهرة لم يكن يتماشى مع الامال الناشئة عن قراءة كتب الرحالة المتفائلين، و الحال ان هؤلاء العسكريين، ضباطا او جنودا عاديين، قد اكتشفوا مدينة رأوا انها قذرة و فقيرة و سيئة البناء، وذات البيوت وصفوها بانها اشبه ما تكون باكواخ كريهة، يتسكع وسطها سكان بؤساء : "لاتقع العين الا على اشياء مؤسفة و منفرة، ونساء مصفرات و داكنات البشرة لاينزاح قميصهن الازرق الا

---

(٣٩١) الترك، نيقولا، ذكر تملك الجمهور الفرنساوية الاقطار المصرية و البلاد الشامية، تحقيق : ياسين سويد، الفارابي، (بيروت:١٩٩٠)، ص ١٧.

(٣٩٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥.

(٣٩٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٤.

لكي يكشف عن جرابين طويلين لرق قذر ينزلان على البطن، والشوارع مكتظة باطفال كسيحين هزيلين و بؤساء يبدو ان الموت يطاردهم و ينتظرهم، و هذه المدينة كريهة، ان الشوارع فيها انما تتنفس الطاعون بقاذوراتها، والشعب منفر و مخبول، اه، لكم انتظر بفارغ الصبر ان اعود لرؤية لا ليجيري"(٣٩٤) .وهذان جنرالان، لكن بريكار، وهو جندي مدفعية، قد اعرب عن رد الفعل نفسه :"لقد اصبنا بالدهشة بل و بالهلع عندما رأينا سكان مصر، ان عاداتهم و اعرافهم قد سببت لنا ذعرا حقيقا، فالاغنياء وحدهم هم الذين يتمتعون ببعض اسباب الراحة، اما صغار التجار و طبقة المياومين منهم فهم ينامون على حصر من القش، وينام الاهالي في القذارة كالبهائم في اوربا"(٣٩٥).

و من جهتهم، يكتشف القاهريون بعجب اولئك العسكريين الاجانب الذين يغزون المدينة تدريجيا ويقيمون بينهم في بيوت المماليك، شبان تثير عاداتهم الاستغراب، وغالبا الصدمة، وتبدو على اية حال غير لائقة و عبثية، كالجري الطويل على ظهور الحمير و الذي كان العسكريون يقومون به عبر المدينة، للفرجة او لتزجية الوقت، وهو موضوع لابد من ظهوره في كل شهادة عن بدايات الاحتلال، وبوجه عام، بدا السكان غير مبالين، و لطفاء غالبا، وان كان من الواضح ان الصعوبة الوحيدة هي صعوبة التعامل معهم)

و يسجل الجبرتي هذا الانفراج، فيكتب ان الفرنسيين قد شعروا بالأمن التام بحيث انهم راحوا يتحركون دون اسلحة ويتضاحكون مع السكان، ومن جهة اخرى فان وجود الفرنسيين الذين زودتهم حملاتهم ببعض الاموال، قد اسهم في تنشيط التجارة، ويقدم الجبرتي حول هذا الموضوع تفصيلات يصعب مجادلتها : ان الجنود الفرنسيين "

(3 9 4) Vincennes , MR , 525 , Letters de general Morand , II Septembere 1798 .

(٣٩٥) مواريه، جوزيف ماري، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة : كاميليا صبحي، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٠)، ص ٤٩.

(٣٩٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٩.

يشتروا البضائع بزيادة عن ثمنها، ففجروا السوق و صغروا الخبز و طحنوه بترابه وباعوا البضة بنصف فضة بعد ان كانوا اربعة بنصف، وفتح الناس دكاكين تجاورهم لأصناف المأكولات كالفطير و الكعك و السمك المقلي و غير ذلك(٣٩٧) وفتح اليونانيون المسيحيون عدة دكاكين لبيع المسكرات من الشراب و خمارات و قهاوي، ولا يبدو الجبرتي مرتاحا لهذا فقد "فَحُشَ ذلك جدا"(٣٩٨).

و سعيا الى تدعيم هذه العلاقة الطيبة بين الفرنسيين و المصريين، اجتهد بونابرت في تشجيع التظاهرات التي تسمح له بإثبات احترامه للتقاليد المحلية، خاصة للتقاليد الاسلامية، و الحال ان وفرة الاعياد التي راكمتها صدف التقويم في الاسابيع الاولى للاحتلال قد ساعدت سياسة التقارب هذه، حيث شكلت هذه الافراح ايضا طريقة مناسبة للحفاظ على الروح المعنوية للجنود و التي تأثرت من جراء الاقامة التي بدا انها سوف تكون طويلة في مصر البعيدة، فالقضاء على الاسطول الفرنسي في ابو قير، في الاول من اغسطس / اب ١٧٩٨، قد اختزل الى العدم كل احتمال لعودة سريعة الى فرنسا (٣٩٩).

و كل الاشياء تسمح بافتراض ان بونابرت، وهو صاحب سياسة عربية اسلامية متماسكة، قد وضع في بداية هذه التظاهرات ثقة اكبر مما لدى دوبوي الذي وصف هذه الاعياد، في مراسلاته مع صديقه دوفيل، وهو تاجر في طولون، بنبرة ناقدة كانت تتماشى بالتاكيد مع الحالة الذهنية لدى مرءوسي القائد العام : "نحتفل هنا متحمسين باعياد محمد، ونخدع المصريين بابداء تعلقنا المزعوم بديانتهم التي لا يؤمن بها بونابرت و لانحن باكثر من ايمانه او ايماننا بديانة المرحوم بيوس" (٤٠٠).

(٣٩٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٨.

(٣٩٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٨.

(٣٩٩) هيرولد، بونابرت، ص ٢٦٥.

(4 0 0) Vincennes , B6 , Dupuy a Deville , 11 aout :MR , 529 , Luagier , 21 aout 1798. ١٠ بيوس السادس هو بابا روما الذي خلعه الفرنسيون بعد دخولهم روما في

و من ثم فقد تتابعت الاحتفالات في القاهرة خلال صيف ١٧٩٨، ففي اغسطس/اب، امر الفرنسيون بالاحتفال بعيد فتح الخليج بكل البذخ المعهود، وذلك بصرف النظر عن الظروف التي وجد الجبرتي انها غير مؤاتية، واتجه بونابرت الى الاحتفال، في حضور اعضاء الديوان و السلطات، بكل الابهة المعهودة [٤٠١]، وفي عددها الاول (الصادر في ٢٩ اغسطس /اب)، فان الكورييه دوليجيبت ترسم بالطبع لوحة زاهية لنجاح العيد بجمهورة"عدد غفير من الناس الذين راحوا يلهجون بالثناء على النبي و على الجيش الفرنسي وهم يلعنون البكوات و استبدادهم، فقد قالوا : اجل لقد جئتم لتخليصنا بمشيئة الله الرحمن الرحيم " [٤٠٢]، اما الجبرتي فهو يقدم خبرا اقل حماسة، فبعد ان وصف ابهة الاحتفال الذي ازدان بهدير المدافع و بالالعاب النارية، يلاحظ انه لم يذهب للفرجة في الصباح غير عدد قليل من المتسكعين"بقلوب منكسرة و نفوس ضعيفة" وان احدا من الناس لم يخرج في تلك الليلة في المراكب على الخليج كالعادة، سوى المسيحيين الشوام و الاقباط و الافرنج، بصحبة نسائهم[٤٠٣].

و هذا التحفظ من جانب المصريين انما يؤكده ما حدث بالنسبة لاحتفال مولد النبي(ﷺ)، فعند اقتراب الموعد المعتاد(١٢ ربيع الاول، الموافق لـ ٢٤ اغسطس/آب) سأل القائد العام المشايخ عن السبب في عدم اعداد شيء لاحياء المولد، و من الواضح ان المشايخ قد رأوا ان الظروف ليست مناسبة لمثل هذه الاعياد، فاجاب الشيخ البكري بان الموقف ليس مؤاتيا و ان الاموال اللازمة ليست متوفرة، فقال بونابرت "لابد من عمل

فبراير/شباط ١٧٩٨، ومات في فالنسيا في عام ١٧٩٩، أي بعد شهور من كتابة دبوي السطور الساخرة السابقة.

(٤٠١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٦ ؛

(4 0 2) Courrier de l'Egypte , No.1 29 ,1798.

(٤٠٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤٥.

ذلك(٤٠٤)، وقدم ٣٠٠ ريال فرانسة مساعدة لتنظيم المولد، ولم يبق امام المشايخ الا ان يتحركوا وينفذوا، فجرى تنظيم مواكب تحمل مشاعل و اضيئت الازبكية و جرى تنظيم عروض للتسلية في الساحات العامة، وفي يوم العيد حضر بونابرت في ابهة عظيمة عند الشيخ البكري و ألبسه فروة و جعله نقيبا للاشراف، بدلا من عمر مكرم، الذي نزح عن القاهرة منذ يوليو / تموز، وفي المساء حضر القائد العام"عشاءا فاخرا أعد وفقا لعادات البلد" (٤٠٥)، بينما قام صانعوا السهام النارية في البلد باطلاق صواريخ العاب نارية، و حتى لا يجهل احد ما حدث، جرى طبع ملصق و توزيعه بالعربية و قامت الكورييه دوليجبت بعد ذلك ببضعة ايام بنشر تقرير حماسي عن الاحتفال(٤٠٦).

و قد انتهى ذلك الفصل بالاحتفال، في الاول من فاندمير(٢١ سبتمبر/ايلول)، بعيد الجمهورية، الذي رأى بونابرت ان من حسن السياسة اشراك المصريين فيه، وجرى اخراجه بالاهتمام الذي احيطت به الاعياد الثورية في فرنسا، ففي ساحة الازبكية، اقيم قوس للنصر يضم، بالعربية، نقش الشهادتين"لا اله الا الله محمد رسول الله"، ومسلة من الجرانيت ارتفاعها ٧٠ قدما، وبين المواكب العسكرية في القيادة العامة و مسابقة خيل (فاز فيها جواد فرنسي)، وانوار و العاب نارية ن استقبل القائد العام الضباط و الوجهاء المصريين في مأدبة لمائة و خمسين مدعوا، وتكتب الكورييه دوليبجيت :"ان الاعلام الفرنسية قد اجتمعت مع الاعلام التركية، وكانت قلنسوة الحرية و الهلال و لائحة حقوق الانسان و القران موجودة جنبا الى جنب"، ثم تستطرد :"لقد تركت للمسلمين حرية المأكل و المشرب، وبدوا مرتاحين جدا الى المراعاة التي ابديت لهم"، الا ان بوسعنا ان نتخيل بسهولة، كما يلاحظ تقرير الصحيفة، ان "البهجة الفرنسية" قد "خفف منها الوقار التركي" (٤٠٧)، وفي

(٤٠٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٥.

(٤٠٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤.

(4 0 6) Courrier de l'Egypte . no.1 , 29 aout , 1798.

(4 0 7) Courrier de l'Egypte . no.9 , 27 septmpere , 1798.

التقرير الشامل الذي يقدمه الجبرتي عن ذلك الحدث، يكرس عدة سطور لوصف تفصيلي للثياب الفاخرة التي ارتداها الاعيان الاقباط (فجرجس الجوهري، زعيم الاقباط،قد ارتدى ثوبا من الفراء يظاهي ثياب الباشوات الفاخرة) و للاضاءات التي تمت في القاهرة، وفيما يتعلق بالمأدبة نفسها، فهو يتحدث باختصار دال : أمر القائد بإعداد عشاء فاخر لأعضاء الديوان فأكلوا و انصرفوا(٤٠٨).

كان المحتلون يشعرون بالثقة في ان الحضارة الاحدث التي جلبوها معهم سوف تلقى القبول من جانب السكان المصريين، الذين رأوا انهم سوف يقابلون هذا التطور بالتأييد، وعلى محك التجربة رصدوا ان الامور الاكثر تعقيدا من ذلك، فمن جهة، لم يكن المصريون غافلين عن دوافع الفرنسيين العميقة، و من جهة اخرى استاءوا من المساوئ المترتبة على البدع التي فرضت عليهم باسم الحداثة، ولم يكن هناك مفر من ان ينفروا لأنهم كانوا على وعي بان هويتهم و مصالحهم قد اصبحت، في هذه الظروف، مهددة، و من هنا وقعت سلسلة من الحوادث المحدودة التي كشفت عن التدهور التدريجي للعلاقات بين المحتلين و ضحايا الاحتلال(٤٠٩) .

لقد اختلت حياة القاهريين اليومية من جراء بعض التدابير التي تتماشى مع شواغل حضرية حقيقية، لكن القاهريين قابلوها اساسا بوصفها تعديات على اسلوبهم التقليدي في العيش واشتبهوا، ليس دون مبرر في اغلب الحالات، في ان مصالح الفرنسيين هي التي تبررها (٤١٠)، ومنذ الاول من اغسطس / آب، أمر الفرنسيون بنزع البوابات التي كانت تسمح بإغلاق حارات المدينة، فبأكثر من الحرص على تسهيل حركة المرور في داخل المدينة، كان العسكريون حريصين على الحيلولة، في حالة نشوب تمرد، دون استخدام هذه البوابات لوقف تحرك الجنود، وعلى جعل السيطرة التي يمارسها الفرنسيون على المدينة

(٤٠٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٧.

(٤٠٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٧.

(٤١٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٥٣.

اسهل، لكن فتح الحارات، انما يعني ايضا التعدي على الحميمية شبه العائلية التي تكفلها للحياة الخاصة للسكان، والمنفصلة انفصالا بيّنا عن الحياة العامة التي تدور في مركز المدينة، ولم يجرِ تقدير هذه البدعة و سرت الشائعات في المدينة بان الفرنسيين ينوون قتل الناس خلال صلاة الجمعة، ويرى الجبرتي ان هذه الشائعات حمقا، تماما، لكنه يلاحظ الناس بعد عودة الثقة التي ظهرت في الايام الاولى للاحتلال، قد مالوا من جديد الى الانكماش و الانغلاق على انفسهم(٤١١).

و قد حدث الشيء نفسه بالنسبة لتدابير صيانة الشوارع و الابنية العامة و التي لم تشكل بدعة حقيقية في القاهرة، انما اصبح عدم الالتزام بها سببا لعقوبات قاسية احيانا، كالغرامات بل و عقوبات الحبس، فاضاءة الشوارع و الاسواق كانت تتطلب مصباحا لكل بيت و مصباحا لكل ثلاثة دكاكين، وكنس الشوارع كان يجب ان يتم مرتين في اليوم، ويرصد الجبرتي الفرق بين هذه الشواغل الصحية و" ما هم فيه من القذارة في بيوتهم و ازقة مساكنهم، وكثرة الاتربة المسبخة وما يختلط بها من ريش الطيور و مصارين الحيوان و فضلات مأكلهم و رايحة شرابهم و حموضة مسكراتهم و بولهم وغايطهم، بحيث ان المار يسد انفه حتى يتجاوزهم.. وبوسع المرء ان يفترض ان هذه الجملة الثأرية توضح انزعاج القاهريين من التدابير الصحية التي فرضها المحتل(٤١٢).

من الصعب تحديد رد فعل المصريين على محاولات الاغراء التي بذلها الفرنسيون، و جزء مهم مما نعتقد اننا نعرفه عن هذا الموضوع مستمد من مصدرنا الرئيسي، الجبرتي، والذي لا يجوز اعتبار وجهة نظره ممثلة لوجهة نظر مجمل السكان، ولا حتى متماشية مع الاسلوب الذي نظر به المنتمون الى فئته الى الوضع، لأن مزاجه الانتقادي قد قاده الى التمايز عن نظراته و الى اصدار حكم قاس عليهم، وهو لا يولي اهمية تذكر للأسلوب الذي وردت به "الكتلة الجماهيرية" التي يتجاهلها ويحتقرها، و من ثم فان رؤيته للامور

(٤١١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٢.

(٤١٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٢.

شخصية تماما، اما فيما يتعلق بالمصادر الفرنسية فانها تعيد انتاج تحيزات اصحابها الذي يميلون علاوة على ذلك الى الانتشاء هم انفسهم باستهلاك دعايتهم الخاصة، والحال ان قراءة الكورييه دوليجيبت و كتب من سجلوا مذكراتهم غالبا ما تعيد انتاج الرؤية التي تمنت السلطات الفرنسية تقديمها للاحداث و لموقف المصريين(٤١٣).

لا جدال ان المصريين، أو على الاقل اولئك الذي كان بوسعهم التعامل مع الفرنسيين بندية نسبية، قد اعترفوا لهم بعدد من المزايا، ويرصد الجبرتي بين سمات الشخصية الايجابية هذه، شجاعتهم وانضباطهم و بساطتهم، وهي صفات يبرزها في مواجهة عيوب المماليك الذي يشجب غطرستهم وغرورهم (٤١٤)، واذا امكن ان نصدق الكورييه، في هذا الصدد، فانه يبدو ان بساطة الخدمات التي اعتمد عليها بونابرت في زيارته الى السويس في ديسمبر/كانون الاول ١٧٩٨، قد اثارت عجب المصريين، اذ يقال ان تاجرا شارك في الرحلة قد قال للترجمان : "يخدمني احد عشرة شخصا، انا الذي لست غير تاجر فقير، و هذا (يقصد نابليون) بوسعه ان يستمتع بكل ماهو موجود في البلد و مع ذلك يكتفي بثلاثة خدم، ان المماليك لم يتعودا على مثل هذه البساطة وهذه الحياة القاسية، ولاغرابة في انهم قد انهزموا" (٤١٥)، ويبدو ان هناك شيئا من الصدق في هذه الرواية، لان الجبرتي، عند ذكره للرحلة، يلاحظ من جانبه، باهتمام، ان بونابرت لم يأخذ معه "غير ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة في ورق" (٤١٦)، ولم يكن معه طباخ و لافراش لفرش و لاخادم لفرش خيمته، والحال ان بساطة بونابرت وروحه الودية، وبشاشته هي سمات

(٤١٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٦.

(٤١٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٨٩.

(4 1 5) Courrier de l'Egypte . No.24 , 11 Janvier 1799 .

(٤١٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٩٨.

شخصية كثيرا ما قدرها المصريون الذين اتصلوا به، وقد قارنوها، لصالحه، بالميل الذي اكده كليبر فيما بعد الى البروتوكول و الابهة[٤١٧].

و على صعيد الاثار الاجتماعية التي ابرزت على السطح اقليات دينية كانت في عهد المماليك تعاني من الاضطهاد و التمييز القاسي، فقد ناخت مشكلة الاقباط على العلاقات بين الفرنسيين و المصريين المسلمين، و بقدر ما ان الحملة الفرنسية قد بدت للاهالي كشكل جديد للعلاقات الصراعية بين الاسلام و العالم المسيحي، فلم يكن بوسع الطوائف المسيحية المحلية ان تفلت من ان تكون ضحية ربط اسهم فيه الفرنسيون ايضا بسياستهم [٤١٨].

و بمجرد ذيوع نبأ الانزال الفرنسي في القاهرة، علت اصوات في الديوان تقترح، قبل الزحف ضد الكفار، البدء بإبادة المسيحيين و أظهرت العامة في المدينة النية في قتل المسيحيين و اليهود، فقامت السلطات بتهدئة هذه التوترات، ومن ثم فلا يمكن للمرء ان يندهش من ان المسيحيين المحليين، من جهتهم، قد اعتبروا ان الاحتلال يتيح لهم فرصة للتحرر من وصاية المماليك القاسية، بصرف النظر عن الضمانات التي اتاحتها لهم[٤١٩] .

و من ثم فقد استخدم الفرنسيون المسيحيين على نطاق واسع كمترجمين لا غنى عنهم لدى السلطات و الادارات، و هو موقع استراتيجي، لكنه بالطبع مصدر تورط عظيم في نظر المصريين، و الحال ان المسيحيين الشوام الذي كانت لديهم دراية افضل باللغات الاوربية (الفرنسية و الايطالية) قد استخدموا بشكل خاص، فكان يوسف الياس

(4 1 7) Kleber en Egypte 1798–1800 , Kleber et Bonaparte , Etude Historique , Presentation et notes par : Henry Laurens , Institut Francais D'archeologie Orintale . (caire :1988) , Vol.2 , 347.

(٤١٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٦٨.

(٤١٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٤٣.

فرعون ترجمانا لبرتييه، اما دون رافاييل (رفائيل ١٧٩٥-١٨٣١) [٤٢٠]، وهو رومي كاثوليكي ينحدر من حلب، وان كانت اسرته قد استقرت في القاهرة منذ ما قبل عام ١٧٩٨، فقد كان ترجمان الديوان، وكان ايضا العضو الشرقي الوحيد في المجمع العلمي بالقاهرة[٤٢١].

اما الاقباط - الوحيدون المطلعون على احوال القرى - فقد واصلوا لعب دور المباشرين، ومنذ ٣٠ يوليو / تموز عين بونابرت جرجس الجوهري مباشرا عاما لجباية الميري من جميع مصر، وفي الاقاليم جرى تعيين عدد معين من المسيحيين الشوام في مثل هذه الوظائف، في تنافس مع الاقباط، ولم يتخلف هذا الوضع عن اثارة تعليقات الجبرتي الحادة : فالاقباط "هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة، وتقاسموا الاقاليم، والتزموا لهم بجميع الاموال، ونزل كل كبير منهم الى اقليم و اقام بسرة الاقليم مثل الامير الكبير"[٤٢٢].

(٤٢٠) الاب روفائيل : اسمه الاصلي زخورة راهبة، وهو من اسر سورية ولد في مصر وتعلم فيها ثم سافر الى روما ليكمل تعليمه الديني هناك واجاد الايطالية و الفرنسية اضافة الى العربية ثم عاد لمصر، وبعد دخول الفرنسيين انضم اليهم وكان الشرقي الوحيد الذي عينه الفرنسيون عضوا بالمجمع العلمي بالقاهرة في لجنة الفنون و الاداب، كما اصبح كبير مترجمي ديوان القاهرة في عهد مينو، ثم ارتحل بعد الحملة الى فرنسا حيث عمل بالتدريس في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وفي عام ١٨٠٣ غادر مصر الى فرنسا و اتصل ببونابرت الذي عينه استاذا مساعدا بمدرسة اللغات الشرقية بباريس، على ان يقوم بالقاء دروس في اللغة العامية، وترجمة للمحفوظات العربية الموجودة في المكتبة الخاصة بالاداب و التاريخ المصري، وقد استفادت من هذه الترجمات اللجنة التي كانت تعمل لاخراج "وصف مصر" و قد عاد الى مصر بعد سقوط نابليون وامضى بقية حياته في عهد محمد علي، وقد توفي في ١٣ اكتوبر ١٨٣١ بالقاهرة، الشيال، تاريخ الترجمة، ص ٤٥.

(٤٢١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٥.

(٤٢٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٧٦.

على ان الدور الذي لعبه الاقباط كمباشرين كان دورا تقليديا تماما، الا ان الاقباط، قبل عام ١٧٩٨، لم يكونوا غير مساعدين للامراء ولم يحتلوا وظائف رسمية، والحال ان المسيحيين، وخاصة الشوام، الذين كانوا يحوزون رؤوس اموال مهمة، قد شاركوا بنشاط في التزام الضرائب، وفي بيان حسابات الملتزمين، المصاغ في اغسطس/ آب ١٧٩٩، يبرز الدمشقيون بحسابات تزيد عن ٣ مليون، الامر الذي يعد اكبر بكثر من حسابات الاقباط[٤٢٣].

و الفضيحة الاكبر بكثير من وجهة نظر المسلمين، هي اشتراك المسيحيين في الادارة الفرنسية، و يمكننا افتراض ان تعيين اثنين من المسيحيين الشوام، هما يوسف فرحات و ميخائيل كحيل، عضوين في ديوان ديسمبر / كانون الاول ١٧٩٨، قد طرح مشكلات لان هذه التجربة لم تتكرر عند تكوين ديوان مينو(اكتوبر/تشرين الاول ١٨٠٠)، الذي كان كله من المسلمين[٤٢٤].

و قد لاحظ الجبرتي بين الاحداث و الوقائع المهمة : " ترفع اسافل النصارى من القبط و الشوام و الاروام واليهود، وركوبهم الخيول وتقلدهم السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين، ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول و استذلالهم المسلمين، كل ذلك بما كسبت ايديهم و ما ربك بظلام للعبيد"[٤٢٥].

و قد رد السكان على ذلك بقوة عندما اتيحت لهم الفرصة، فخلال تمرد اكتوبر / تشرين الاول، وقعت مشاهد نهب في الجوانية، وقد لاحظ الجبرتي بعد ذلك بقليل حول هذا الموضوع انه "ماقصدهم المسلمون ونهبوا مالديهم إلا لكونهم منسوبين اليهم(الفرنسيين)" [٤٢٦]، وهو ما يعني تبرير ما حدث، وخلال انتفاضة ١٨٠٠ سرعان ما

(4 2 3) Vincennes , B6 , 15 aout 1799 .

(٤٢٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٦٥.

(٤٢٥) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٦٨.

(٤٢٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٧٨.

تجاوبت العامة مع تحريض نصوح باشا على نهب الاحياء المسيحية في المدينة، لقد جرى تدمير حي الافرنج و الاحياء المجاورة ولم ينج من الحي القبطي من هذا المصير نفسه الا عبر دفاع قوي عنه، وكان الشوام الكاثوليك مستهدفين بشكل خاص و كانت خسائرهم جسيمة، الا ان من الضروري ملاحظة ان عثمان كتخذا الدولة، ممثل الباب العالي، قد شجب بقوة تلك التصرفات بعبارات عادة ما استخدمها العثمانيون في مثل هذه الظروف : " ولا حضرة مولانا السلطان يرتضي بذلك " (٤٢٧)، ومن جهته اورد الجبرتي وقائع النهب و العنف المرتكبة، الامر الذي يعني عدم تأييده لها(٤٢٨).

و من ثم فان الاحتلال الفرنسي قد انعش المشكلات الطائفية في مصر، واستشعر المسلمون بقوة الاذلال الذي مثله بالنسبة لهم النفوذ الذي تمتعت به الاقليات، وكان من الوارد ان يخشى المسيحيون من ان تؤدي هذه الاحداث الى جعل وضعهم في البلد مسألة غير محسومة، ومن ثم يلفت الانتباه ملاحظة ان قليلين من المسيحيين قد قرروا الرحيل في عام ١٨٠١، و خاصة القليل من الاقباط، و في كتائبهم، نشأت حركة هروب قوية عندما اقترب العثمانيون في عام ١٨٠١، واختفى كثيرون من الجنود الاقباط قبل رحيل الجيش الفرنسي حتى يتجنبوا الجلاء، وأخيرا، فان عددا ملحوظا من اولئك الذين رحلوا قد تركوا الجيش الفرنسي في الطريق و عادوا الى القاهرة، كما يجب ان نلاحظ، فيما عدا بعض الاستثناءات التي تتعلق بأفراد كانوا قد لعبوا دورا ملحوظا في الادارة الفرنسية بمشاركتهم في المصادرات، ان تدابير العفو التي اتخذها الصدر الاعظم قد روعيت(٤٢٩).

كانت مشكلة النساء اكثر ايذاءا بكثير بالنسبة للعلاقات بين المحتلين و ضحايا الاحتلال، فبالنسبة للفرنسيين كانت الرغبة في الحصول على نساء هاجسا استوعب جانبا من طاقاتهم و اموالهم، ولم يكن قد رافق الجيش غير قليل جدا من النساء الفرنسيات، و

(٤٢٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٤٥.

(٤٢٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٤٨.

(٤٢٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٧٦.

قد حقق بعضهن مكانة رائعة لدى كبار الضباط، او لدى بونابرت نفسه، ومن ثم فقد تعين البحث عن نساء في الساحة، ويلاحظ النقيب جوزيف مواريه بمرارة : أما فيما يتعلق بمسرات الغرام، فاننا لم نجد في القاهرة الموارد التي اتاحتها لنا ميلانو و بادوا و ليفورنو وروما وفيرونا و جراتس "(٤٣٠)، لم تكن التسهيلات التي وفرها حريم المماليك جد وفيرة كما تخيل العسكريون، و على اي حال فانها قد نضبت بسرعة بالغة، و لا مراء في ان الامال التي راودت الجنود بغرور بالغ السذاجة، في امكانية القيام بمغامرات مع سيدات البلد، كانت واهمة، بصرف النظر عما يمكن ان يسمح بافتراضه (ريبورتاج) للكوريبه حول عيد الاول من فانديمير (٢٢ سبتمبر / ايلول ١٧٩٨) : "ملأ عدد ملحوظ من السيدات التركيات البيوت التي تحيط بساحة ايلبيكيه، وقد ابدى الفرنسيون الموجودون هناك لهن حسن الالتفات و المجاملات التي تميز امتنا بشكل خاص، وقد بدا انهن غير مستاءات من ادراك الفرق الموجود بين عاداتنا الاجتماعية وعاداتهم"(٤٣١).

و قد اضطر العسكريون الى شراء رفيقات باسعار تتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ فرنك للجواري السود، و٣٠٠٠ للجواري البيض، وهي مبالغ كبيرة، حتى بالنسبة للضباط، ومن ثم فقد لجأت غالبية الجنود الى المومسات، الامر الذي طرح على الجيش مشكلة جسيمة تتصل بالصحة العامة، فخلال العامين الاولين للحملة (من يوليو/ تموز ١٧٩٨ الى سبتمبر/ايلول ١٨٠٠) فقد الجيش ٣٥٦١ رجلا في المعارك، بينما فقد ٢٤١٩ جنديا على اثر امراض الزهري، ولم تفلح التدابير المتعددة المتخذة ضد هذا الوضع في علاجه، وفي يونيو/حزيران ١٧٩٩، استشار الضابط الفرنسي(دوجا) بونابرت في اغراق النساء المومسات اللاتي يتم العثور عليهن في الثكنات، وقد رد بونابرت بالموافقة مع تكليف

(٤٣٠) مواريه، مذكرات، ص ٤٧.

(4 3 1) Courrier de l'Egypte , No.8 , 27 Septembre 1798.

الاغا بذلك، وسرعان ما نفذ هذا الاجراء، لكن المومسات واصلن تسميم الجنود، الامر الذي برر احتجاز النساء و القوادين في سجون الموقع(٤٣٢).

و تشير جميع الشواهد الى ان وضع النساء كان واحدا من الموضوعات الرئيسية للحزن بالنسبة للمصريين، واحد اعمق اسباب السخط على المحتلين، الذي انتهك موقفهم في هذا الموضوع تقاليد جد قوية، وولد شعورا بالمهانة العاجزة، ومما له دلالته ان نلاحظ ان الجبرتي و نقولا الترك، قد ردا فيما يتعلق بهذه المشكلة، باسلوب واحد، فقد صدم المصريون بإباحية الفرنسيس، والتي تمثل رمزها في الحرية التي اعطوها لنسائهم : فالفرنسيون " يمشون في الشوارع مع نسائهم و هن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات و المناديل الحرير الملونة، ويركبن الخيول و الحمير و يسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك و القهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة - ومع النساء يتميز الفرنسيون - بخضوعهم لهن و موافقة مرادهن و عدم مخالفة هواهن و لو شتمته او ضربته بتاسومتها" (٤٣٣)، " لكون ان الجنس الفرنساوي له مداخلة و موانسة لجنس النسا بنوع اخر عن باقي الاجناس الموجودة في العالم باسره"(٤٣٤).

و ما كان موضع استغراب يصبح على الفور محل استهجان عندما يرى المصريون الفرنسيين و قد اخذوا يعاملون نساء البلد بالشكل نفسه، وذلك بإلباسهن الملابس الاوربية، وبتركهن يسرن في الشوارع حاسرات الوجوه، ويلاحظ نقولا الترك ان هذه المشاهد "كانت تجعل الاسلام يتنفسوا الصعداء و يطلبوا الموت في كل ساعة" (٤٣٥)، وقد اعترف الفرنسيون بان مشهد هؤلاء النساء المتنزهات في الشوارع مع الرجال حاسرات

(4 3 2) Vincennes , B 6 110 , Dugua a Bonaparte , 20 , 23 Juin 1799 .

(٤٣٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٥٢ .

(٤٣٤) الترك، ذكر، ص ٣١.

(٤٣٥) الترك، ذكر، ص ٤٥.

الوجوه كان "مصدر اكبر دهشة و صدمة بالنسبة للمصريين، وبان المرأة التي كان يمكن ان تسمح لنفسها بمثل هذا المسلك قبل وصول الفرنسيين كان من الممكن ان ترجم"(٤٣٦).

كما غضب المصريون غضبا شديدا من رؤية الفظاعات التي انهمك في ارتكابها الجنود الذين اهانوا النساء في عرض الطريق و ضربوهن والقوا القبض عليهن بل وقاموا احيانا بخطفهن بالقوة كما تشهد على ذلك سجلات السجون، والواقع ان اعمال العنف هذه كانت جد متكررة بحيث ان جاك مينو قد اضطر، في امره اليومي الصادر في ٥ سبتمبر/ايلول ١٨٠٠، الى الاشارة الى الشكايات المثارة ضد مسلك الجنود و حثهم على احترام السكان "احرصوا على احترام النساء، فما هو المجد الذي ستفوزون به، عندما تسيئون معاملة رجل يرتعد لمجرد مرآكم، حين تخطفون او تهينون امرأته؟" (٤٣٧)، والحال ان الدفاع عن شرف حريم المماليك كان احدى المهام التي تكفل بها مشايخ الديوان بتحمل اعبائها(٤٣٨).

وعلى ضوء تعليقات الجبرتي، يتضح ان المصريين قلما كانوا اكثر ارتياحا الى الزيجات العقودة بين الفرنسيين و بنات الاعيان الذين عللوا انفسهم بامل الفوز بنفوذ ما جراء ذلك، في مقابل اعتناقات للاسلام بدت لهم هزلية، اذ يلاحظ الجبرتي :"فيظهر حالة العقد للاسلام و ينطق بالشهادتين لانه ليس له عقيدة يخشى على فسادها" (٤٣٩)، وقد جاء المثل من اعلى مقام، فالجنرال مينو كان قد تزوج في ٢ مارس/اذار ١٧٩٩ من زبيدة و هي ابنة اسرة جد متواضعة من الاشراف من رشيد، كانت مطلقة من سليم اغا، وتحول الى اعتناق الاسلام، وهكذا اصبح اسمه عبدالله جاك، ومع ان المعني قد اعترف بالدوافع السياسية الاساسية لهذا الزواج، فانه قد اجتهد في لعب اللعبة، ولكن دون ان يقنع لا

(٤٣٦) مواريه، مذكرات، ص ٨٥.

(4 3 7) Vincennes , B6 60 , Order du Menu ,7 Decembre 1800 .

(٤٣٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٢١.

(٤٣٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٦٢.

اخوانه الجدد في الدين ولا زملاءه الذين اعتبروا هذه الزيجة مدعاة للسخرية الى حد ما (٤٤٠).

ومن جهة اخرى، لا يبدو ان الزيجات الاسلامية كانت كثيرة جدا، ولا شك ان السبب في ذلك ان اعتناق الاسلام كان شرطا مطلوبا من الزوج، وهناك كل ما يدعو الى افتراض ان هذه الزيجات بين فرنسيين و نساء محليات، كانت تتم في الاغلب مع مسيحيات، وتلك حالة قائد اللواء لامير الذي تزوج مسيحية، هي مارتا جيكوب، اوعاش معها بالاحرى في معاشرة غير شرعية(٤٤١).

وايا يكن الشكل الذي اتخذته هذه الزيجات، فمن المؤكد انها قد اسهمت في تكدير العلاقات بين المصريين و العسكريين، و لا مراء ان الاغنية الشعبية التي اوردها الجبرتي على لسان احد العامة قد ترجمت هذا الشعور :

اوحشتنا يا ساري عسكر

تشرب القهوة بالسكـــــــر

وعسكرك داير يسكـــــــر

وفي البلد حبو النسوان(٤٤٢).

اما عمق الجرح الحادث و المهانة المحسوسة، فبالإمكان قياسه بقسوة المصير الذي حل بالنساء اللاتي تورطن مع المحتلين خلال تمرد ١٨٠٠ وبعد تحرير القاهرة، ان عددا كبيرا من النساء اللتي كانت لهن علاقة مع الفرنسيين قد اعدمن، بحسب الاشكال التقليدية، أي بوضعهن في زكائب و القائهن في النيل(٤٤٣).

---

(٤٤٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٥٣.

(٤٤١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٨٦.

(٤٤٢) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٥٦.

(٤٤٣) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٨٧.

و يظهر هذا الانحلال الذي شهدته مصر خلال فترة الحملة الفرنسية، بانه ليس وليد تلك الفترة، وانما طفا على السطح، لغياب الرادع الذي كان سببا في ذلك الانحلال، ولما اصبحت الفرصة متاحة لمثل هذه المشاهد، لم يكن منهم سوى ان استخدموا الفرصة بكل امكانية متاحة . ان النظام القمعي الذي استخدمه المماليك و العثمانيون على حد سواء، قد ولد ردة فعل اجتماعية عنيفة بعد انحلال الامن و حلول الفوضى في المجتمع .

المبحث الثالث

مصر
و انظمة الحكم الثلاث
(المماليك - الفرنسيين - العثمانيين)
كما صورها الجبرتي

استثارت احداث العقدين الاخيرين من القرن الثامن عشر ضد المماليك عداوة جرى التعبير عنها عبر حركات شعبية عديدة، وعبر الامل الذي افرزته حملة حسن باشا في عام ١٧٨٦، و لا شك ان عجز المماليك عن التصدي للفرنسيين في عام ١٧٩٨ قد زاد من سخط المصريين على المماليك، وعندما جمع الامراء المشايخ لأخذ رأيهم، لم يخف الشيخ السادات رأيه و فضح مسئولياتهم عما حدث، كما ان الكثير من ابناء القاهرة قد تقاسموا حول هذه النقطة المشاعر التي اعرب عنها سكان القدس عندما استقبلوا صالح بك،امير الحج، الذي كان قد بدل اتجاه قافلة الحج في عام ١٧٩٨ :"أخرجوا عنا يا ملاعين، انتم الذين سلمتم بلاد الاسلام الى الكفار، وبسببكم و بسبب ظلمكم خربتم البلاد المصرية و الشامية"(٤٤٤) .

لكن علاقات النخبة بالمماليك كانت جد قوية بحيث انها لم يكن بوسعها ان تتنصل تماما من الفئة الحاكمة السابقة المغلقة على نفسها كما دعاها الفرنسيون الى ذلك، وقد رفض مشايخ الديوان تعيين مسئولين ليسوا مختارين من بين اعضاء "البيوت المملوكية القديمة"(٤٤٥) القادرين وحدهم، بحسب قولهم، على الزام السوقة الطاعة، وعلى اثر ذلك، وهو ما استثار عظيم استغراب الفرنسيين وضيقهم الواضح، غالبا ما تولى العلماء الدفاع

(٤٤٤) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١١.

(٤٤٥) هكذا يسميهم الجبرتي في عجائب الاثار .

عن مصالح الوجاقلية و الامراء وحريمهم، حيث توسطوا من اجل عدم نهب ممتلكاتهم ووقفوا الى صفهم خلال منازعاتهم مع الادارة الفرنسية وتولوا حماية المهـــــاجرين، وطالبـــــوا بإخــــلاء سبيل المحتجزين [٤٤٦].

و لا مراء من ان المشايخ كانوا يسعون الى تكوين ارصدة في حالة وقوع حدث، الا اننا يجب ان نرى ايضا في ذلك النتيجة الطبيعية للتضامن الذي كان موجودا بين المصريين و المماليك، الذين اصبحوا فيما بعد محررين ممكنين، وقد استثارت معارك مراد بك امالا قوية بين السكان و ادت الى افراز الكثير من التكهنات، كما استثارت مراسلات ابراهيم بك شبه تمرد في القاهرة في سبتمبر / ايلول ١٧٩٨، ثم ان دخول المماليك المدينة في مارس / اذار ١٨٠٠، الى جانب العثمانيين قد اسهم بقدر غير قليل في التمرد الذي اجتاح المدينة[٤٤٧].

و قد اخذ الفرنسيون انفسهم في الحسبان وجود ولاء للعثمانيين عندما حرصوا - عند نزولهم - على التأكيد على ان الحملة ليست موجهة البتة ضد الباب العالي الذي سوف تتأكد سلطته على العكس من ذلك بهزيمة المماليك [٤٤٨]، و لا جدال ان الالتباس الذي تمكنوا من الابقاء عليه لبعض الوقت حول هذه المسألة قد سهل بدايات مشروعهم، الا انه ما ان اصبح واضحا ان الباب العالي في حالة حرب مع فرنسا، وانه يستعد لاسترداد مصر، اظهر المصريون تعلقهم بالدولة العثمانية من خلال حزنهم الواضح الذي ترتب على نجاحات بونابرت في بلاد الشام او هزيمة العثمانيين في ابو قير، و في المقابل، فان افق تسوية من اجل الجلاء عن مصر في اوائل عام ١٨٠٠ قد استثار في القاهرة امالا عظيمة[٤٤٩].

(٤٤٦) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٧.

(٤٤٧) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٧٨.

(٤٤٨) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٢.

(٤٤٩) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٨٦.

على ان الشعور بالظلم و الاضطهاد الذي عبر عنه الجبرتي بعد دخول العثمانيين القاهرة مرة اخرى عام ١٨٠١، يكاد يخفي كل ذلك الشعور بالارتباط بالدولة العثمانية، فبعد ان عاشت مصر حالة من التحرر من القيود التي فرضها النظام المملوكي المدموج بالظلم العثماني، في ظل الحملة الفرنسية، عادت ممارسات الاعتداء و الظلم ضد الشعب المصري من جديد، فيذكر الجبرتي الكثير من مظاهر هذا الظلم، والاستعانة بالرعية، فيذكر في كتابه حادثة راح ضحيتها تسعة اشخاص بسبب شربة عرق سوس، فيما يؤكد على الممارسات العنفية التي يمارسها الجنود الاتراك من التعدي على اصحاب الدكاكين والمارة بين الطرقات[٤٥٠].

لا يسهب الجبرتي في الحديث عن التظاهرات الحماسية التي لا شك انها قد رافقت اعلان اتفاق جلاء الفرنسيين ووصول القوات العثمانية (المحررة)، وهو يكتفي ببضع اشارات الى الفرحة التي تجلت عن اعلان نبأ الصلح [٤٥١]، ففي ٣٠ يونيو / حزيران، رفرف العلم العثماني على (قلعة) الظاهر، واعرب السكان عن فرحتهم، وفي الاول من يوليو / تموز قضى الناس الليل في انتظار وصول القوات العثمانية املين في سماع صوت الجنود الاتراك، واخيرا رحل الجنود الفرنسيون، خلال الليل، وتدفق العثمانيون على القاهرة، ويشير الجبرتي الى هذه اللحظة : ففرح الناس كعادتهم بالقادمين، وظنوا فيهم الخير، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم، والنساء يقلقلن بألسنتهن من الطيقان و في الاسواق، وقام للناس جلبة و صياح، وتجمع الصغار و الاطفال كعادتهم ورفعوا اصواتهم بقولهم نصر الله السلطان، وهو يشير على الفور تقريبا

(٤٥٠) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٣٥.

(٤٥١) الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦٥.

الى ان دخول العسكر الاتراك، قد أدى الى الابتزازات المالية التقليدية المفروضة على اصحاب الدكاكين(٤٥٢).

كان الصدر الاعظم قد وصل القاهرة يوم الجمعة ١٠ يوليو / تموز ١٨٠٠، فأدى الصلاة في المشهد الحسيني، ولبى الدعوة التي وجهها اليه الشيخ السادات لزيارته في منزله، القريب من المسجد، ثم قام بزيارة الى الازهر الذي كان قد اعيد فتحه منذ اول يوليو/تموز وكان قد اعيد اصلاحه، الا انه في ١٦ يوليو / تموز، غداة رحيل الفرنسيين، دخل يوسف باشا العاصمة دخولا مهيبا، يورد الجبرتي تفاصيله :"لقد سارعت جماهير غفيرة الى مشاهد الموكب، خرجت البنت من خدرها، واكتروا الدور المطلة على الشارع باغلى الاثمان، وجلس الناس على السقائف و الحوانيت صفوفا"(٤٥٣).

والحال ان الموكب الذي بدأ من باب النصر و اجتاز الوسط، وخلف الصدر الاعظم الذي ارتدى ملابس ثمينة، كان رجلان ينثران عملات فضية مسكوكة في اسطنبول، جريا على العادة القديمة "فكان ذلك اليوم مشهودا وموسما و بهجة وعيدا عمت المسلمين فيه المسرات ونزلت في قلوب الكافرين الحسرات ودقت البشائر وقرت النواظر"(٤٥٤).

و الحق ان الامور في القاهرة كانت قد ساءت بالفعل، فبمجرد دخول العسكريين العثمانيين المدينة ابدوا عدم انضباطهم المعتاد، وقد دخلت قوات الصدر الاعظم وهي تطلق الصيحات و الرصاص في الشوارع، مبدية جميع اعراض الفوضى الاكثر انفلاتا، وسجل الجبرتي مختلف الاوزار التي انهمك الجنود في ارتكابها، وقد طلبوا الى الناس توفير

(٤٥٢)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦٧.

(٤٥٣)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦٨.

(٤٥٤)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦٩.

المشرب و المآكل واعداد القهوة لهم، وفرضوا حمايتهم برسمهم على ابواب المحال شارات وحداتهم، وهو ما يبرر اقتسام الايراد اليومي مع شركائهم (٤٥٥).

و قد انكب الجنود الاتراك على تجارة المواد الغذائية، وسرقوا الناس في بيوتهم، ولم يكف الجبرتي عن الاستفاضة في سرد اعمال العنف هذه التي سرعان ما اضيفت اليها مطالب اعادت الى الاذهان ذكريات كانت ما تزال قريبة، ففي ٢٦ يوليو/تموز، طلب الصدر الاعظم من التجارة مبلغا قدره ٢٧٥٠٠٠٠٠ بارة من عشر التوابل، وفي ٢١ اغسطس / آب، طلب من الملتزمين دفع متأخرات عن عامي ١٧٩٨ و ١٧٩٩ كانوا قد اعلنوا انهم لم يحصلوها(٤٥٦).

وفي هذا المناخ المتحرر من الاوهام الى حد ما، بدأت تسوية حسابات الاحتلال، فقد عرفت القاهرة، ككل بلد خضع لاحتلال اجنبي طويل، فترة تأكد خلالها انتصار المقاومين و انزال العقاب بمن يشتبه في تحالفه مع المحتل، على انه لا يسعنا الاشارة في القاهرة عن (تطهير) او قمع منهجيين، فقد قدم العثمانيون ضمانات في الاتفاق الخاص بالجلاء، ثم اكثروا من البيانات التي تدعو الى الاطمئنان(٤٥٧).

و من ثم فقد سيطرت الفكرة التي تذهب الى ان تعاونا معينا مع المحتلين كان شيئا لا مفر منه، وقد جنبت المشايخ خاصة اية ملاحقة، وحالات التواطؤ الاكثر وضوحا مع المحتل هي وحدها التي سوف تجر الى العقاب، وفي كثير من الحالات، لم يكن العقاب سوى نتيجة ثارات خاصة استثارتها احداث محددة في زمن الاحتلال(٤٥٨).

و قد قوبلت عودة ابرز المقاومين بشهادات مراعاة استعراضية، ففي ١٥ يوليو/ تموز، وصل عمر مكرم و احمد المحروقي الى القاهرة وهما يرتديان ثياب تشريف من

(٤٥٥)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣١٢.
(٤٥٦)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣١٤.
(٤٥٧)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٠٢.
(٤٥٨)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٢١.

فراء السمور خلعت عليهما، والحال ان المحروقي - الذي تمتع باعتبار كبير لدى الصدر الاعظم - كان موضع تظاهرات تعاطف من جانب المسلمين و المسيحيين، وقد استأنف نشاطه كشاهبندر للتجار، وتلقي في منزله زيارة من جانب الصدر الاعظم، الذي كرمه بذلك على الدور الذي كان قد لعبه في تمرد ١٨٠٠، الا ان من اللافت للغاية ان عمر مكرم لم يعد الى مهامه كنقيب للاشراف الا بعد ذلك بكثير في ابريل / نيسان ١٨٠٢، بعد ان كان الباب العالي قد حاول ان يفرض في هذا المنصب تركيا من القاهرة، لا يتمتع بالمستوى المحلي بتقدير يذكر، هو يوسف افندي(٤٥٩).

ويذكر الجبرتي دون ان يتوقف كثيرا عند ذلك، عودة بطل اخر من ابطال المقاومة المصرية الى القاهرة، في ١٨ اغسطس / آب،هو السيد بدر الدين المقدسي، والذي لم يشعر الجبرتي نحوه-والحق يقال-الا بالقليل من التعاطف، والذي اصبح دوره السياسي محدودا للغاية، ويشير الجبرتي باستفاضة اكبر عن حالة المسيحيين اليونانيين الذين كانوا قد خدموا الفرنسيين وعادوا مرتدين الزي العثماني وتعاملوا بغطرسة مع المسلمين، انهم مقاومو الساعة الخامسة و العشرين (٤٦٠) بشكل ما.

و في الايام التي تلت رحيل الفرنسيين، حدثت في القاهرة بعض التسويات للحسابات التي يذكرها الجبرتي، ففي ٢٠ يوليو / تموز، جرى اعدام المدعو حجاج في الرميلة، كما اعدم اخوه، وكانا قد لعبا دورا في ادارة بولا وادينا بارتكاب مظالم واعمال عنف، وقتل عدد من الافراد في الازبكية وفي احياء مختلفة من القاهرة، ثم ان عرفة ابن المسيري الذي قبض عليه في اواخر يوليو/تموز لان اخاه كان قد شارك ي جباية الفرده وقد تمكن من انقاذ نفسه بدفع غرامة باهظة قدرها ٣٧٥٠٠٠ بارة، اما مصطفى الطاراتي الذي كان قد ساعد في جباية الفردة واشرف على ضرب التجار، فقد القي القبض عليه في اغسطس/آب وقطعت رأسه اخيرا في باب الشعرية في اكتوبر / تشرين الثاني، وقد تركت

(٤٥٩)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٢٢.

(٤٦٠)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٢٦.

جثته معروضة في الشارع لمدة ثلاثة ايام، وفي ٢ اكتوبر / تشرين الثاني، جرى اعدام صاحب دكان في سوق الصاغة، هو مصطفى الصيرفي، بأمر من الصدر الاعظم، لانه كان قد شارك في جباية الفردة، ومن الواضح انه كان هناك عدد من تدابير العقاب من هذا النوع، وعلى مدى فترة طويلة، ولكن لم يكن هناك قمع منظم!!![٤٦١].

وبين المتعاونين مع الفرنسيين، كان البعض مفضوحا بشكل خاص، وفي الاول من يوليو/تموز، كان الشيخ البكري قد عاش في الظل حتى موته في ١٨٠٨-١٨٠٩، وكانت العقوبة التي حلت به معتدلة عموما، لكن مصير ابنته زينب أكد الصلات الوثيقة التي كانت للشيخ مع الفرنسيين، مثلما أكد سوء سلوك الشابة، وبما انها متهمة باقامة علاقات مع الفرنسيين، بل باختصار، مع الاول بينهم (بونابرت)، فقد القي القبض عليها في ٤ اغسطس / آب وجرى التحقيق معها، فاعربت عن توبتها، فسئل والدها : ماتقول انت ؟ فقال : اقول اني بريء منها، فكسروا رقبتها عندئذ[٤٦٢].

وقد بدا في البداية ان الامور جميعها تسير على ما يرام بالنسبة لاحمد الزرو، فيما عدا بعض المصاعب مع احمد المحروقي، بسبب تصفية امور تجارية، وفي أكتوبر / تشرين الاول، رأى الزرو ان من الحكمة ان يختفي، لكنه عاود الظهور في مارس / آذار ١٨٠٢ لكي يطالب بمبالغ مهمة لدى تجار مختلفين، فحلت به المصائب من جراء ذلك، ففي ٨ مارس / آذار، عند ابلاغ الباشا بان الزرو قد تعاون مع الفرنسيين، أمر بقطع رأسه، الا اننا نشتبه في ان الامور المالية جنبا الى جنب ذكريات الاحتلال كانت في اساس هذه النتيجة المأساوية، وفيما عدا هذه الحالات جد الاستثنائية، لم تنزل أي عقوبة ليس فقط بالمشايخ الذين شاركوا في الدواوين وانما ايضا بالشخصيات التي خدمت الفرنسيين في وظائف رسمية، والحال ان حسن آغا، الذي مارس وظائف المحتسب، قد عزل من منصبه وسجن في أغسطس/آب سعيا الى ارغامه على رد ٥,٠٠٠,٠٠٠ بارة هي القيمة المقدرة

(٤٦١)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦٧.

(٤٦٢)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٣٥.

لإيراد الحسبة خلال تلك السنوات الثلاث، الا انه افرج عنه في نهاية الامر في ١١ سبتمبر/ ايلول دون شروط، وربما يكون قد سوى الامر ماليا مع السلطات عبر تعاملات غير رسمية(٤٦٣).

وهذه الرقة الفعلية تتعارض مع التدابير القاسية التي حلت بالنساء المتهمات بالضعف حيال المحتلين، لانهن، بهذا الشكل، لا مراء في انهن قد انتهكن محرما اجتماعيا ودينيا في آن واحد، وهي تهمة كانت تعتبر افدح بما لا حد له من تهمة التعاون العادي مع المحتل، وقد اشرنا للتو الى حالة زينب ابنة البكري، كما يروي الجبرتي في شيء من التفصيل، المصير المؤسف الذي حل بـ هوى التي كان زوجها اسماعيل كاشف الشامي، قد غادر القاهرة خلال فترة الاحتلال، فقد تزوجت عندئذ العقيد نيكولا و عاشت معه، وقبل وقت قصير من رحيل الفرنسيين، هربت من القلعة و اختفت في المدينة، وبعد وصول العثمانيين، عادت الى زوجها وعفا عنها، الا ان اسماعيل، بعد ايام قليلة، ذهب الى الصدر الاعظم وطلب منه السماح له بقتلها فاجيب الى طلبه، فقام الكاشف على الفور بخنقها، هي(وجاريتها البيضاء ام ولده !!)(٤٦٤).

و يلاحظ الجبرتي انه في اليوم نفسه جرى قتل امرأتين اخريين، ومن المستحيل بالطبع تقدير مدى اتساع عملية التطهير هذه، والحال ان الفرنسيين الذين هالهم الثمن الذي دفعه الجنس اللطيف بسبب هذه العلاقات المحرمة،(والذين شعروا بالطبع بمسئوليتهم عن ذلك)، لا شك انهم قد بالغوا في تقدير حجمه، وقد علم جالان في رشيد، عندما وصل اليها، خلال الجلاء، بالنهاية المؤسفة التي حلت في مدينة القاهرة بجميع النساء اللاتي كانت لهن علاقات مع الفرنسيين، و الحال ان ظاهرة اثارت انتباه الجبرتي اذ روى ان عددا من سكان المدينة رتبوا زيجات للنساء اللاتي كانت لهن علاقات مع الفرنسيين من عسكر عثمانيين، وذلك سعيا الى الهدف المزدوج الذي يتمثل في (غسل)

---

(٤٦٣)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦٨.

(٤٦٤)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٥٣.

هؤلاء النسوة من سوء مسلكهن السابق وعقد مصاهرات مفيدة، وفي ٢٤ اغسطس / آب نودي على السكان بعدم تزويج بناتهم ونسائهم للجنود العثمانيين، ويلاحظ الجبرتي انه هذه الزيجات كانت قد تكاثرت، خاصة من النساء اللاتي كانت لهن علاقات مع الفرنسيين(٤٦٥).

اما المصاعب التي عرفها المسيحيون في الفترة التي تلت الاحتلال، فقد ارتبطت بالانقلاب الاجتماعي الذي احدثه وجود الفرنسيين الذين وضعوا الذميين على قدم المساواة مع المؤمنين ربما بأكثر من ارتباطها بالسخط الذي استثارته علاقاتهم مع المحتلين، ويشير تكاثر التطمينات التي اصدرها العثمانيون بعد دخولهم القاهرة الى عمق الصدمة التي اصابت تنظيما اجتماعيا - دينيا لم يكن بوسع الاقليات ان تستفيد فيه من تسامح فعلي، من جهة اخرى، الا اذا لزمت وضعيتها، وفي هذا المجال، كان قد جرى انتهاك احد المحرمات، وفي ١٩ يوليو / تموز، جرى الاعلان عن تحريم قيام احد بايذاء مسيحي او يهودي او قبطي او يوناني او شامي، (فانهم من رعايا السلطان و الماضي لا يعاد) (٤٦٦).

و في ٢٦ يوليو/تموز راجت شائعات بانه كتب فرمان يأمر المسيحيين بالاقتصار على لبس الالوان المفروضة (الازرق و الاسود) وبدأ ازعاجهم بتجريدهم من الطرابيش و الاحذية الحمراء، وقد اشتكى المسيحيون من ذلك، فنودي بانه لا يجب ايذاء المسيحيين وان كل فريق له الحق في مواصلة اتباع طرائقه المعتادة، وفي اغسطس/آب رصدت مصادرات ضد المسيحيين، وفي ٢٤ من الشهر ذاته، نودي بالامان للذميين، وطولبوا بدفع جزية اربع سنوات، على انه لم يتخذ أي اجراء انتقامي او فردي او جماعي ضد المسيحيين، والاعدامات التي حدثت فيما بعد، والتي طالت مسيحيين لعبوا دورا في الادارة الفرنسية،

---

(٤٦٥)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٧٨.

(٤٦٦)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦٨.

كانت من فعل الباشوات الذين طال استبدادهم ووحشيتهم جميع السكان المصريين، دون ان تكون لذلك اية صلة باحداث فترة الاحتلال(٤٦٧).

الا انه بوسعنا ان نفترض بشكل مشروع ان الاحتلال قد غذى المشاعر المعادية للمسيحيين، والتي كانت تحرك الفئات الاكثر شعبية بين السكان المصريين، وعند اعدام ثلاثة من المسيحيين بامر من محمد باشا خسرو في عام ١٨٠٢ "اجتمعت جعيدية مصر و اسلام ما ينيف عن عشرة الاف يتفرجون ويتهللون ونسايهم يزلغطون ويهللون ... وعندما تساءل الباشا عن هذه التظاهرة، قيل له، اهل مصر فرحانين على موت هؤلاء النصارى"(٤٦٨).

و الواقع، اننا اذا استثنينا البكري، المتورط الى حد بعيد بحيث لم يكن بوسعه التخلص من مأزقه، فمن المثير ملاحظة ان سمعة و هيبة المشايخ لم تتأثرا طويلا بالدور الذي لعبوه في المجالس التي انشأها الفرنسيون، فعودتهم الى مكانتهم، بالرغم من انها كانت تدريجية، لم تكن مع ذلك اقل سرعة، ومن المؤكد ان (كبار العلماء) الذين كانوا قد شاركوا في الدواوين، قد ظهروا قليلا في الاسابيع الاولى لاستعادة السلطة العثمانية، بعد اللقاءات الفائزة الى حد ما، والتي جرت في اوائل يوليو/ تموز، الا انه في المصاعب التي عرفتها مصر، مع النزاع الذي بدأ بين العثمانيين و المماليك، استعاد المشايخ تدريجيا هيبتهم ودورهم (٤٦٩).

لم يعرف التاريخ احتلالا ميمونا سعيدا، واحتلال الفرنسيين مصر لا يشكل استثناءا لهذه القاعدة، وقد جرى تصويره عبر فن الاعلام و الدعاية الناجزة التي اجادها بونابرت، على انه يتميز بخصائص خاصة يقال انها تجعل منه استثناءا، فقد قال الغزاة انهم يريدون هناء مصر، وقد اشركوهم بشكل ما، في حكم البلد، ومن هذه الزاوية، فان تجربة

(٤٦٧)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦٥.

(٤٦٨)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٨٩.

(٤٦٩)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٣٦٨.

الدواوين خاصة ديوان مينو، لا يجب اعتبارها تافهة، وفي النهاية، اثمر اهتمام الفرنسيين بالبلد عملا علميا، هو وصف مصر الذي انجزت طبعته الاولى في عام ١٨٢٢، على ان هذه الثمرة المتأخرة لا تملك تبرير مغامرة [الفتح العسكري لنابليون]،وان كان هذا الكتاب يشكل اثرا خالدا (٤٧٠) .

وعلى الرغم من ذلك، ولم يعد المصريون [حسب رأي الجبرتي] يتحملون النظام الذي اقامه العثمانيون الذي يقوم على الفوضى و الفساد : " انظر إلى عقول هؤلاء المغفلين يظنون أنهم استقروا بمصر ويتزوجوا ويتأهلوا مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها أهـــون من الورطـــة التي نحـــن فيهـــا الآن"(٤٧١) .

وحتى مع النظام العلماني الذي أراده نابليون لمصر،لم يكن الجبرتي أكثر من مراقب للحدث،ولكنه يستبطن التصورات التي كونها عن الفرنسيين،فيتأنى في وصف ذكرى الثورة الفرنسية التي أجراها جنود الحملة في القاهرة،في (١١ سبتمبر ١٧٩٨م)(٤٧٢)،فالفرنسيين قد تباحثوا في من سيمثل الشعب في الديوان،ولم يفرض عليهم أحد وإنما ترك لهم الوقت الكافي لاختيار ممثليهم(٤٧٣) .

لقد راهن الجبرتي على أن الشعب يجب أن يتطلع إلى التغيير،ويجب أن يفهموا التغيير الحاصل،فقد جاء الفرنسيون وأثروا فيها بخيرهم وشرهم،وكان من نتيجة ذلك أن تغيرت نظرة المصريين إلى الحياة،وأخذوا يفهمون بعض المعاني الجديدة،كمعنى الحرية الشخصية ومعنى المساواة،ومعنى الشعب وحقوق الشعب،ونظام الحكم،،يورد الجبرتي نصا يقارن فيه بين العثمانيين والفرنسيين في مسألة جباية الضرائب، فيكتب : " مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة

(٤٧٠)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٢٣.

(٤٧١)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٧٨.

(٤٧٢)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢٦.

(٤٧٣)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٥٦.

الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا في الدفاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا ذلك كان يقبض أثلاثا مع المراعاة في ري الأراضي وعدمه فاختاروا والأصلح في أسباب العمار وقالوا ليس من الإنصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك(٤٧٤).

و قدت ادت سنوات الفوضى و العنف الاربع التي عرفتها مصر بعد رحيل الفرنسيين الى الاسهام في اسدال ستار من النسيان على الذكريات المريرة التي كانت لدى المصريين بشكل مشروع عن الاحتلال و الى تضميد الجراح التي كانت مفتوحة بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠١، الا انه لم تبقى اية مؤسسة او اية مدونة تشريعية او ادارية اية اثار من شأنها تأكيد فكرة ان بوسع التنوير و الحداثة تحقيق احياء مصر، لكن الشعور بان التحديث شرط لتقدم مصر، وذكرى العلاقة التي اوجدتها الظروف بين الحداثة و تأثير مصر، قد تجذرا في مصر و فرنسا، وكانا عنصرين في المشروع الذي دشنه محمد علي في مصر اعتبارا من عام ١٨٠٥(٤٧٥).

وايا كان واقع و عمق هذا التأثير، فقد كان الاحتلال الفرنسي حدثا حاسما في تاريخ مصر الحديث، وذلك بقدر ما ان الفرنسيين قد وجهوا ضربة قاضية لنظام حكم كانت قد تقطعت انفاسه في ظل حكم مراد بك و ابراهيم بك الثنائي، وكانت هزيمة المماليك جد ساحقة بحيث ان اية عودة الى الماضي كانت مستبعدة بعد عام ١٨٠١، ولم يكن بالإمكان تصور عودة مملوكية، فالمماليك الذين انهكتهم الحرب ضد الفرنسيين، و

(٤٧٤)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٢٣.

(٤٧٥)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٧٨، للاطلاع على ظروف تولي محمد علي السلطة في مصر، الرجاء مراجعة : ابو الفضل، مارسو، عفاف لطفي السيد، مصر في عهد محمد علي، ترجمة : عبد السميع عمر زين الدين، ط١، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٤) .

طالهم الخراب من جراء ضياع ممتلكاتهم، ودبت الفرقة العميقة بين صوفهم، كانوا عاجزين عن استعادة النظام الذي عرفته مصر قبل ١٧٩٨[٤٧٦].

اما العثمانيون فلم يكن بوسعهم ان يكرسوا لاستعادة سلطتهم في مصر الامكانات الضرورية لذلك، ولم يكن من الوارد ان تحدث عودة خالصة وبسيطة الى وضع ١٥١٧، ولم يجر تصوير وتطبيق نظام حكم احدث في الولايات العثمانية الاخرى الا بعد ذلك بوقت طويل، في عصر الاصلاح (التنظيمات)، ومثل هذه العودة كانت مستحيلة في عام ١٧٨٦ وفي ١٨٠١-١٨٠٥ كانت الظروف اقل مؤاتاة لذلك بكثير، مع ظهور العنصر المربك الذي مثله وجود جيش بريطاني، والذي لم يتخلص منه المصريون نهائيا الا في عام ١٨٠٧ [٤٧٧].

و الواقع ان القوى المختلفة المائلة قد حيدت بعضها البعض، وفي وضع مأزوم، كان بوسع تدخل سكان القاهرة ان يكون عاملا حاسما، اذ كانت مصر مؤهلة لان تكون من نصيب من يتوصل من بين المنافسين عليها الى كسب الاهالي، الجماهير الشعبية التي قدمت كتائب المتظاهرين والعلماء الذين يملكون الاضفاء الضروري للشرعية الدينية على السلطة، و الحال ان محمد علي كان يملك القدرة على فهم ذلك وعلى استثمار مجمل الخبرة المتراكمة خلال العقود الاخيرة للقرن الثامن عشر و لسنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث، وكان العلماء قد لعبوا بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٩٨ دورا سياسيا متزايدا، وقد علمتهم تجربة المشاركة في الدواوين ان يشاركوا في السلطة، كما قادوا الحركات الشعبية بحظوظ متباينة، وكانت الجماهير الشعبية قد اخذت تتحرك قبل عام ١٧٩٨ وفي ظل الاحتلال، خاضت تجربة الكفاح الاليمة[٤٧٨].

(٤٧٦)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ١٧.

(٤٧٧)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٦٩.

(٤٧٨)الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٤٨٦.

الخاتمة

تميزت الحملات العسكرية و الفكرية الاوربية على العالم العربي - الاسلامي بكونها اعتمدت على موروث نصي،ومعرفي تراكمي تم تسخيره بكل الامكانيات لتحديد ملامح الشرق، للوصول الى حالة من التلاؤم الذي يمنح الغرب القدرة على اعادة الصياغة و التشكيل للتمكن من استحكام توثيق الشرق بصورة لا تجعله قادرا على الاستمرار و المواصلة في مواجهة الغرب .

لقد مثل الجبرتي انموذجا حيا لعكس تلك الصورة، الذي بدأ بمراقبة الفرنسيين بعدما حلوا بأرضه، لفهمهم وإدراك ماهيتهم على حقيقتها، وكانت محاولته تلك تنبعث من الحاجة الى رصد الاخر الغربي لاستكشافه وفهمه و اتقانه، ولتحويله الى مجال قابل للدراسة، كما فعل الغرب من قبل، حينما حولوا الشرق الى مجال "نصّي" تسهل دراسته، و من ثم تكون عملية السيطرة عليه جد بسيطة وسلسة .

ان اول عقبة تواجه التواصل بين الاطراف هي معرفة الاخر، واكتشافه تنهي كل العقبات امام التواصل وايجاد طريقة للتلاؤم، لقد حاول الجبرتي من خلال تأريخه عن الحملة الفرنسية اثبات صورة الاخر الذي ظل الى فترة طويلة خيال يلوح على الافق الشرقي، و بالإمكان اعتبار الجبرتي اولى الصور التي نقلت عن الغرب من خلال عقلية العربي المتدين العاقل المدرك للاحداث وتوابعها، ولقد رأينا في هذه الدراسة الكثير من التعليقات النقدية التي قدمها الجبرتي عن الفرنسيين و عن مقارناته لهم مع ما قد عاشه من انظمة سياسية واجتماعية وثقافية، وحاول المزج بين الثقافات، الوافدة و الاصيلة، للخروج بطريقة جديدة تقوم على مبادئ انسانية سامية تجعل من العقل و العلم طريقا وغاية، لا وسيلة وطريقة للمكاسب الدنيوية التي جعلت من المعرفة مطية وأكسبتها اثواب لا تحتملها البتة .

ان عمق الصدمة التي عانى منه الجبرتي بعد نزول الفرنسيين الى مصر، قادته في كثير من الاحيان لنقد المؤسسات التي لم يجرؤ احد من قبله على نقدها او حتى البحث فيها، المؤسسة الدينية و السياسية، مؤسسة الازهر، التي اعتبرها الجبرتي عاملا مكينا من عوامل احتلال مصر، و من ثم المؤسسة السياسية التي استطاعت ان تحوز شرعيتها من المؤسسة الدينية والتي انبثقت عنها وشائج جد عميقة ساهمت في جعل تلك المؤسسة عبثا على الفكر و الدين .

وجدير بالذكر ان الصدمة تلك، قادت الجبرتي بالضرورة الى تحويلها الى نص، وهنا استطعنا ان نثبت من خلال دراستنا امرا يبدو مهما وهو تحويل الاحداث الى نصوص، ومن ثم التعديل عليها بما يتلائم و الواقع، ليسهل التحكم في طرح الافكار، فقد حول الجبرتي - كما فعل الفرنسيون من قبل - الحملة الفرنسية الى نص تمكن من رسم معالمه بطريقة رغم بساطتها احيانا الا انه استطاع ان يجعل الغرب مجالا للدراسة من خلال رصد افعاله و اقواله .

كما ان الجبرتي قد عكس احداث الحملة الفرنسية على واقعه الاجتماعي وبين الكثير من الشواهد التي تستحق دراسة تفصيلية معمقة، عن المجتمع المصري، وعن مكوناته البنيوية التي تشكلت بفعل السلطة القائمة منذ عهد الدخول الاول للعثمانيين عام ١٥١٧ وحتى خروج الفرنسيين، اذ رسم صورة بالغة الدقة، عميقة في تفاصيلها، مغروروقة ملامحها، فلم يترك حدثا الا وقد وضع له نصا، وحين يرصد حدثا فانه يضع تشكيله بطريقة جدية، اذ يبدأ بالجذور، ثم الحدث، ثم اثاره الحاضرة و المستقبلية، كما فعل مع الكثير من الاحداث في زمن الحملة الفرنسية وتنبأ بنتائجها بعد خروجهم في زمن حكم محمد علي بعد ١٨٠٥.

و من عمق الصدمة ايضا، فان الجبرتي استطاع ان يضع افكارا و رؤى تنطبق على النماذج السياسية و الاقتصادية الاصلح للمجتمع، فهو بحق يستحق ان يوضع في عداد المصلحين الذين دعوا الى اصلاح جسد الامة وترميم رفاتها.

إن الاندماج الحضاري،أو الصدام الحضاري بين الأنا والآخر،كان دوما يأخذ مجالات متباينة في الفهم والتطبيق،فالعربي نظر إلى الآخر الغربي دوما بنظرة العدو المرفوض،والذي لا يمكن الاندماج به،وان العلاقة التي كونتها العملية التاريخية،من خلال الموروث الديني،قائمة على رفض الآخر حسب الفهم الغربي لها،وبالتالي كان الآخر الغربي ينظر إلى العربي دوما نظرة استهجان،وان كانت العقبة الأكبر بين الأنا والآخر هي اللغة،فان الجهل بالآخر يصبح العدو الأول للاندماج الحضاري.

وبالرغم من النظرات المتباينة فيما بين الأنا والآخر،إلا أن هذه النظرة قائمة على الجهل بالآخر،فالأنا هو امتداد للآخر،والعكس صحيح،ولايمكن أن تقوم علاقة حضارية بين الطرفين إلا بسبر أغوار الأنا للآخر.إن نظرة الأنا–العربي–للآخر،كانت دوما تنبعث من الواقع والظروف التي يعشها الأنا،وهنا تصبح العلاقة قائمة على انعكاس الذات بِ (آنوية مفرطة) تقود إلى اندماج كلي حتى تذوب الأنا في الأخر.

وايا كان واقع و عمق هذا التأثير، فقد كان الاحتلال الفرنسي حدثا حاسما في تاريخ مصر الحديث، وذلك بقدر ما ان الفرنسيين قد وجهوا ضربة قاضية لنظام حكم كانت قد تقطعت انفاسه في ظل حكم مراد بك و ابراهيم بك الثنائي، وكانت هزيمة المماليك جد ساحقة بحيث ان اية عودة الى الماضي كانت مستبعدة بعد عام ١٨٠١، ولم يكن بالإمكان تصور عودة مملوكية، فالمماليك الذين انهكتهم الحرب ضد الفرنسيين، و طالهم الخراب من جراء ضياع ممتلكاتهم، ودبت الفرقة العميقة بين صوفهم، كانوا عاجزين عن استعادة النظام الذي عرفته مصر قبل ١٧٩٨ .

اما العثمانيون فلم يكن بوسعهم ان يكرسوا لاستعادة سلطتهم في مصر الامكانات الضرورية لذلك، ولم يكن من الوارد ان تحدث عودة خالصة وبسيطة الى وضع فترة الغزو العثماني عام ١٥١٧، ولم يجر تصوير وتطبيق نظام حكم احدث في الولايات العثمانية الاخرى الا بعد ذلك بوقت طويل، في عصر الاصلاح (التنظيمات)، ومثل هذه العودة كانت مستحيلة في عام ١٧٨٦ وفي ١٨٠١–١٨٠٥ كانت الظروف اقل

مؤاتاة لذلك بكثير، مع ظهور العنصر المربك الذي مثله وجود جيش بريطاني، والذي لم يتخلص منه المصريون نهائيا الا في عام ١٨٠٧ .

و الواقع ان القوى المختلفة المائلة قد حيدت بعضها البعض، وفي وضع مأزوم، كان بوسع تدخل سكان القاهرة ان يكون عاملا حاسما، اذ كانت مصر مؤهلة لان تكون من نصيب من يتوصل من بين المنافسين عليها الى كسب الاهالي، الجماهير الشعبية التي قدمت كتائب المتظاهرين والعلماء الذين يملكون الاضفاء الضروري للشرعية الدينية على السلطة، و الحال ان محمد علي كان يملك القدرة على فهم ذلك وعلى استثمار مجمل الخبرة المتراكمة خلال العقود الاخيرة للقرن الثامن عشر و لسنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث، وكان العلماء قد لعبوا بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٩٨ دورا سياسيا متزايدا، وقد علمتهم تجربة المشاركة في الدواوين ان يشاركوا في السلطة، كما قادوا الحركات الشعبية بحظوظ متباينة، وكانت الجماهير الشعبية قد اخذت تتحرك قبل عام ١٧٩٨ وفي ظل الاحتلال، خاضت تجربة الكفاح الاليمة.

المصادر و المراجع

الوثائق :

١. المنشورات و الاوامر اليومية الصادرة باللغتين العربية و الفرنسية المطبوعة و التي اصدرتها الحملة الفرنسية للمصريين و غيرهم خلال ١٧٩٨-١٨٠١ و المحفوظة في دار الكتب و الوثائق القومية في الحافظة المرقمة : ٢٠٦، ٢١١ .

❖ المنشورات و الاوامر اليومية مزدوجة اللغة، المحفوظة في المكتبة المركزية، جامعة القاهرة، في الحافظة المرقمة : ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨ حسب الترقيم الاتي :

٢. وثيقة ١٥، ١٣ مسيدور سنة ٦ من اقامة الجمهور الفرنساوي أي ١٧ محرم سنة ١٢١٣ من الهجرة أي ٢ يوليو ١٧٩٨.

٣. وثيقة رقم ١٦، حافظة ٢٠٦، ١٣ مسيدور سنة ٦ من اقامة الجمهور الفرنساوي أي ١٧ محرم سنة ١٢١٣ ٢ يوليو ١٧٩٨

٤. وثيقة ٥، ١٢ ربيع اول سنة ١٢١٥ من الهجرة ترميدور سنة ٨ من اقامة الجمهورية الفرنسية.

٥. وثيقة ٦، ١٢ رجب سنة ١٢١٥ من الهجرة، ١٥ فريمير سنة ٩ من اقامة جمهور الفرنساوي .

٦. وثيقة ٧، ٧ برومير سنة ٩ من اقامة الجمهور الفرنساوي.

٧. وثيقة ٤، ١٧ شعبان سنة ١٢١٥ من الهجرة نيموز سنة ٩ من اقامة جمهور الفرنساوي

٨. وثيقة انسحاب القوات الفرنسية من مصر، الثلاثاء ١٨ صفر سنة ١٢١٦ من الهجرة ١٠ مسيدور سنة ٩ من اقامة جمهور الفرنساوي ٢٩ يونيو ١٨٠١.

❖ الوثائق باللغة الفرنسية، والمحفوظة في دار الكتب و الوثائق القومية بالقاهرة :

9. Archives De L'Armee D'Orient Conservees A vincees Serie B6(Vincennes B6).

10. Cartoon 1 A 76 : Documents , Correspondences , Classes par order chromologique , Dugua (108–110) , Memou (121–125) , Belliard (132–136).

11. Vincennes , MR , 525 , Letters du General Morand , Il September 1798 , malus , 1892 , 70. L.J. Bricard , 1891 , 314 , G Wiet , 1941 , 171.

12. Vincennes , MR , 525 , Letters de general Morand , Il Septembere 1798 .

13. Vincennes , B6 , Dupuy a Deville , 11 aout :MR , 529 , Luagier , 21 aout 1798.

14. Vincennes , B6 , 15 aout 1799 .

15. Vincennes , B 6 110 , Dugua a Bonaparte , 20 , 23 Juin 1799 .

16. Vincennes , B6 60 , Order du Menu ,7 Decembre 1800 .

المخطوطات :

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن

١٧. عجائب الاثار في التراجم والأخبار، مخطوطة محفوظة في دار الكتب والوثائق القومية، تحت رقم ٢٢٨٧/تاريخ، القاهرة .

١٨. مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، مخطوطة محفوظة في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الامارات العربية المتحدة، برقم : ٥٢٤١٣١ .

المصادر العربية المعاصرة :

❖ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن

١٩. مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق : حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، ط ١، لجنة البيان العربي، (القاهرة : ١٩٦٩) . في مجلد واحد .

٢٠. مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرزاق عيسى و عماد احمد هلال، ط١، العربي للنشر والتوزيع، (القاهرة : ١٩٩٨) في مجلدين .

٢١. مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق : احمد زكي عطية و اخرون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية،(القاهرة : ١٩٦١)، في جزئين . =

٢٢. عجائب الاثار في التراجم والاخبار، الطبعة الاولى للكتاب، (الجزء الثالث) طبع سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م،مطبعة جريدة مصر بالاسكندرية.

٢٣. نسخة طبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٧هـ، في ٤ اجزاء .

٢٤. نسخة طبعت بهامش كتاب(الكامل) لابن الاثير، في اثني عشر جزءا، المطبعة الازهرية، (القاهرة : ١٣٠١هـ).

٢٥. نسخة المطبعة الشرقية، (القاهرة : ١٣٢٢هـ)، اربعة اجزاء .

٢٦. طبعة دار الجيل، بيروت، (د/ ت).

٢٧. طبعة محققة، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠٠٩) .

28. Al-Jabarti's Chronicle of the First seven Months of the French Occupation of Egypt , (Tarikh Mudat Al-Faransis Bi-Misr , Edited By : S.Moreh , Brill L (Leden:1975 وهي نسـخة وحيـدة محفوظـة في ليـدن و قـد حصـل عليهـا الباحث من مكتبة الجامعة الامريكية في القاهرة .

❖ الترك، نيقولا .

٢٩. ذكر تملك جمهور الفرنسـاوية الأقطـار المصـرية والـبلاد الشـامية،تحقيق: ياسين سويد، الفارابي،(بيروت:١٩٩٠).

❖ جحاف، لطف الله بن احمد .

٣٠. نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية علـى مصـر، تحقيـق : سـيد مصـطفى سالم، (القاهرة : ١٩٧٤) .

❖ الخشاب، اسماعيل .

٣١. التاريخ المسلسل في حـوادث الزمـان ووقـايع الـديوان ١٨٠٠-١٨٠١، تحقيق محمد عفيفـي و اندريـه ريمـون، المعهـد العلمـي الفرنسـي للاثـار الشـرقية بالقاهرة، (القاهرة : ٢٠٠٣) .

٣٢. اخبار اهل القرن الثاني عشر، تحقيق : عبد العزيز جمال الدين و عماد ابو غازي، العربي للنشر و التوزيع، (القاهرة : ١٩٩٠) .

٣٣. خلاصة مايراد من أخبار الأمير مراد،تحقيق:حمزة عبد العزيز بدر،دانيال كريسيليوس،العربي،(القاهرة:١٩٩٢).

❖ الدراندلي، عزت حسن افندي .

٣٤. الحملة الفرنسية على مصر، مخطوطة ضيا نامة، تحقيق : جمال سعيد عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩٩) .

المراجع الحديثة العربية و المعربة :

❖ ابراهيم، ناصر احمد .

٣٥. مقاومة تحت السطح، المباشرون الاقباط و الحملة الفرنسية، ضمن كتاب : مائتا عام على الحملة الفرنسية.

❖ أبزاخ،فيصل حبطوش خوت.

٣٦. أعلام الشراكسة، مؤسسة خوست للإعلان، عمان، (عمان : ٢٠٠٧) .

❖ ابن اياس،محمد بن احمد الحنفي .

٣٧. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق : محمد مصطفى، مطبعة لجنة التأليف و النشر، (القاهرة:١٩٦٠)، ج٤.

❖ ابو الفضل، محمد عبد الفتاح .

٣٨. الصحوة المصرية في عهد محمد علي، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ١٩٩٩) .

❖ أنيس، محمد .

٣٩. التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، دار النهضة العربية، (القاهرة:١٩٧٢)٠

٤٠. التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة ٠

❖ بركات، حليم .

٤١. الجتمع العربي المعاصر، ط ١٠، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت : ٢٠٠٨)،

❖ بركات، علي .

٤٢. رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، ط١،الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:١٩٩٧).

❖ البستاني، صلاح الدين .

٤٣. صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨-١٨٠١، ط١، دار العرب، (القاهرة : ١٩٧١) .

❖ جب، بوون، هاملتون و هارولد .

٤٤. المجتمع الاسلامي و الغرب، ترجمة : احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف بمصر، (القاهرة : ١٩٧١)، ج٢.

❖ جبور، جان .

٤٥. النظرة الى الاخر في الخطاب الغربي، ط ١، دار النهار، (بيروت : ٢٠٠١)،

❖ حامد، رؤوف عباس .

٤٦. ثقافة النخبة و ثقافة العامة في مصر في العصر العثماني، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (القاهرة : ٢٠٠٨).

❖ الحموي، ياقوت بن عبد الله البغدادي.

٤٧. معجم البلدان، دار صادر، (بيروت : ١٩٧٧)، ج٣.

❖ حنفي، حسن .

٤٨. مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر و التوزيع، (القاهرة : ١٩٩١)،

❖ الخوند، مسعود .

٤٩. المعجم التاريخي للبلدان و الدول، ط١، مؤسسة الخدمات الطباعية، (الكلس : ١٩٨٥) .

❖ درويش، احمد .

٥٠. الاستشراق الفرنسي والأدب العربي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة:١٩٩٧).

❖ الدسوقي، عاصم .

٥١. الفرنسيون في مصر و استثارة العقل، ورقة ضمن كتاب : مائتا عام على الحملة الفرنسية،ط١، مكتبة الدار العربية، (القاهرة : ٢٠٠٨) .

❖ دوس، مديحة .

٥٢. المنشورات والاوامر الصادرة باللغتين العربية والفرنسية (١٧٩٨-١٨٠١)، دراسة ضمن كتاب (مائتا عام على الحملة الفرنسية رؤية مصرية)،ط١، مكتبة الدار العربية للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٨) .

❖ ديورانت، ول .

٥٣. قصة الحضارة (عصر نابليون)، ترجمة : عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار الجيل، (بيروت:٢٠٠٢)، المجلد ١١، ١٥ .

❖ ذهني، الهام محمود علي .

٥٤. مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر و السابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩١)، ص ٣٠ .

❖ الرافعي، عبد الرحمن .

٥٥. تاريخ الحركة القومية و تطور نظام الحكم في مصر،(د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:٢٠٠٠)، ج ٢ .

❖ ريمون، اندريه .

٥٦. الحرفيون و التجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة : احمد ابراهيم و باتسي جمال الدين، ط١، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٥)، ج٢.

٥٧. القاهرة،بحث في كتاب الشرق الأوسط الحديث،ألبرت حوراني،ط١،دار طلاس،(دمشق:١٩٩٦)، ج٢ .

❖ زاهر، محمد اسماعيل .

٥٨. ازمة الوعي العربي بين الحملة الفرنسية و الحملة الامريكية، مركز البحوث العربية و الافريقية، كتب عربية، (بيروت : ٢٠٠٦).

❖ زيدان، جرجي .

٥٩. تاريخ اداب اللغة العربية، (القاهرة:١٩١٤)، ج٤.

❖ سترومبرج، رونالد .

٦٠. تاريخ الفكر الاوربي الحديث ١٦٠١-١٩٧٧م، ترجمة : احمد الشيباني، ط٣، دار القارىء العربي، (القاهرة : ١٩٩٤).

❖ سركيس، يوسف اليان .

٦١. معجم المطبوعات العربية و المعربة، (القاهرة:١٩٢٨)، ج١.

❖ السروجي، محمد محمود .

٦٢. عجائب الاثار و مظهر التقديس، دراسة مقارنة، الجمعية التاريخية المصرية، (القاهرة:١٩٧٢).

❖ سعيد، ادوارد .

٦٣. الاستشراق المعرفة السلطة الانشاء، ترجمة : كمال ابو ديب، ط١، مؤسسة الابحاث العربية، (بيروت : ١٩٨١).

❖ السمعاني، ابي سعيد عبد الكريم بن منصور .

٦٤. الانساب، دار الكتب العلمية، (بيروت:١٩٩٨)، ج٣.

❖ سوليه، روبير .

٦٥. علماء بونابرت في مصر، ترجمة : محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠١٠).

٦٦. مصر ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٩٩).

❖ شاكر، محمود محمد .

٦٧. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة:١٩٩٧).

❖ شكري، محمد فؤاد .

٦٨. مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، مطبعة الجامعة، (القاهرة : ١٩٥٨) .

❖ الشلق، احمد زكريا .

٦٩. من الحوليات الى التاريخ العلمي، نهظة الكتابة التاريخية في مصر، ط١، دار الكتب و الوثائق القومية، (القاهرة : ٢٠١١) .

❖ شيبوب، خليل .

٧٠. عبد الرحمن الجبرتي، ط٢، دار المعارف، (القاهرة:١٩٥٤) .

❖ شيخو، لويس.

٧١. الاداب العربية في القرن التاسع عشر، ط٢، (بيروت:١٩٢٤) .

❖ الصاوي، احمد حسين .

٧٢. فجر الصحافة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٧٥).

❖ طرابيشي، جورج .

٧٣. معجم الفلاسفة، ط١،دار الطليعة للطباعة والنشر،(بيروت:١٩٨٧).

❖ الطوخي، نبيل السيد .

٧٤. صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٧) .

❖ عبد الحافظ، مجدي .

٧٥. جمال الدين الافغاني و اشكاليات العصر، المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة:١٩٩٧) .

❖ عبد الغفار، حسين .

٧٦. الدولة الحديثة في مصر، دار المعارف، (القاهرة:١٩٧٧)، ج ١.

❖ عبد الغني، مصطفى .

٧٧. الجبرتي و الغرب رؤية حضارية مقارنة، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:١٩٩٥) .

❖ عبد الكريم، احمد عزت .

٧٨. دراسات في تاريخ العرب الحديث، (القاهرة : ١٩٧٠).

❖ عبد الوهاب، حسن .

٧٩. تاريخ المساجد الاثرية في القاهرة،دار الكتب المصرية، (القاهرة:١٩٤٦).

❖ عبدة، ابراهيم .

٨٠. تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨-١٩٤٢، المطبعة الاميرية، (القاهرة : ١٩٤٢) .

❖ العدوي، ابراهيم احمد .

٨١. الصراع الفكري بين اجيال العصور الوسطى و العصر الحديث كما صوره الجبرتي، الجمعية المصرية التاريخية،(القاهرة:١٩٧٤) .

❖ العشماوي، محمد سعيد .

٨٢. مصر والحملة الفرنسية،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهر:١٩٩٩).

❖ عكاوي، رحاب .

٨٣. الجبرتي مؤرخ الديار المصرية، دار الفكر العربي، (بيروت : ٢٠٠٣) .

❖ فارجيت، جي .

٨٤. محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة : محمد رفعت عواد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ٢٠٠٥) .

❖ فرج، عليه علي .

٨٥. التعليم في مصر بين الجهود الاهلية و الحكومية، دراسة في تاريخ التعليم، دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية : ١٩٧٩) .

❖ قباني، رنا .
٨٦. اساطير اوروبا عن الشرق : لفق تسد، ط٤، دار طلاس، (دمشق:١٩٩٤)
.
❖ كلو، اندريه .
٨٧. سليمان القانوني، ترجمة : البشير بن سلامة، ط١، دار الجيل، (بيروت:١٩٩١).
❖ لبيب، الطاهر .
٨٨. صورة الاخر، العربي ناظرا و منظورا اليه، ط ١ مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت : ١٩٩٩).
❖ لورنس، هنري
٨٩. الحملة الفرنسية في مصر،بونابرت والإسلام،ط١،دار سينا للنشر،(القاهرة:١٩٩٥).
❖ مبارك، علي باشا .
٩٠. الخطط التوفيقية، الجديدة لمصر و القاهرة ومدنها وبلادها القديمة و الشهيرة،(د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة:٢٠٠٨)، ج٤.
٩١. نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، (القاهرة : ١٨٨١)، ص ١٤.
❖ المقداد، محمود .
٩٢. تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، (الكويت : ١٩٩٢).
❖ المهتار، طلال.
٩٣. اثار حملة بونابرت على مصر، (بيروت:١٩٦٢) .
❖ مواريه، جوزيف ماري .

٩٤. مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر،ترجمة:كاميليا صبحي،المجلس الأعلى للثقافة،(بيروت:١٩٨٤).

❖ نوار، عبد العزيز سليمان .

٩٥. تاريخ العرب المعاصر مصر و العراق، دار النهضة للطباعة و النشر،(بيروت:١٩٧٣) .

❖ نوار، عبد العزيز سليمان .

٩٦. عبد الرحمن الجبرتي و علماء زمانه، ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، (القاهرة:١٩٧٦)

❖ هازار، بول .

٩٧. الفكر الاوربي في القرن الثامن عشر من منتسكيو الى ليسنج، ترجمة : محمد غلاب، جامعة الدول العربية، (القاهرة : ١٩٥٧) .

❖ هريدي، صلاح احمد .

٩٨. الجاليات الاوربية في الاسكندرية في العصر العثماني دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية ٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م، (الاسكندرية : ١٩٨٨) .

❖ هوبزباوم، اريك .

٩٩. عصر الثورة اوربا ١٧٨٩-١٨٤٨، ترجمة : فايز الصباغ، ط٢، مؤسسة ترجمان، (بيروت : ٢٠٠٨).

❖ هيرولد، ج. كريستوفر.

١٠٠. بونابرت في مصر، ترجمة : فؤاد اندراوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة : ١٩٨٨).

❖ الوصيف،فرج محمد .

١٠١. مصر بين حملتي لويس وبونابرت،ط١،دار الكلمة للنشر والتوزيع،(القاهرة:١٩٩٨).

❖ اليغيري، دانتي .

١٠٢. الكوميديا الالهية، ترجمة : حسن عثمان، دار المعارف، (القاهرة : ١٩٦٩) .

❖ يفوت، سالم .

١٠٣. حفريات الاستشراق،ط١،المركز الثقافي العربي،(بيروت:١٩٨٩)،ص٢٣.

❖ يوسف، احمد .

١٠٤. بونابرت في الشرق الاسلامي (القاهر المقهور)، ترجمة : امل الصبان، ط١،المجلس الاعلى للثقافة، (القاهرة : ٢٠٠٥).

❖ يوسف، مجدي .

١٠٥. من التداخل الى التفاعل الحضاري، كتب عربية، بيروت .

البحوث و الدراسات العربية :

❖ "أثار حملة بونابرت" .

١٠٦. مجلة الرسالة، (القاهرة)، ع٢٦٢، السنة السادسة، م٢، تموز ١٩٣٨ .

❖ انيس، محمد .

١٠٧. "الجبرتي بين مظهر التقديس و عجائب الاثار" مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٨، الجزء١، (مايو:١٩٥٦).

❖ حسن، محمد عبد الغني .

١٠٨. "ملاحظات الجبرتي المؤرخ على حوادث عصره"،مجلة الثقافة،دمشق،العدد ٧١٣،السنة الرابعة عشرة –أغسطس ١٩٥٢.

❖ الحصري، ساطع .

١٠٩. "الحملة الفرنسية و النهضة المصرية"، مجلة الثقافة، (القاهرة)، ع ٤٥٠، السنة التاسعة، رمضان ١٣٦٦ هـ، آب ١٩٧٤.

❖ الزبيدي، محمد حسين .

١١٠. "مذهب الجبرتي في كتابة التاريخ من خلال كتابه عجائب الاثار في التراجم و الاخبار" مجلة المؤرخ العربي، ١٩٧٧، العدد ١.

❖ زيادة، خالد .

١١١. "بدايات التغريب العمراني" مجلة الفكر العربي، بيروت، ع٢٩، السنة الرابعة، تشرين الاول، ١٩٨٢ .

❖ الشيال، جمال الدين .

١١٢. "متى و كيف عرفت مصر كتاب الامير لميكافيللي" مجلة الكاتب المصري، القاهرة، ع١٣، السنة الثانية، م ٤، ١٩٤٦ .

❖ عبد الحافظ، مجدي .

١١٣. " الوعي السياسي في مصر مابين عام الحجة و تولية محمد علي"، مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، عدد ٥٧، فبراير ١٩٩٢

❖ المجلة التاريخية المصرية.

١١٤. سجل مبايعات الباب سنة ١١٦٢ سلسلة ٢٣٩، المادة ٤٧٣، القاهرة، ١٩٦٠/١٩٦٢، المجلد ٩-١٠.

❖ "وثائق تاريخية عن الحركة الدستورية في مصر من اواخر القرن الثامن عشر" .

١١٥. مجلة الطليعة،(القاهرة)، ع٧، السنة الخامسة، تموز ١٩٦٩.

الرسائل و الاطاريح العربية :

❖ الحنفي، يسرى محمد عبد الهادي .

١١٦. اثر الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام في شبه الجزيرة العربية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة ام القرى، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠١.

❖ عبد، عباس علاوي .

١١٧. عبد الرحمن الجبرتي ومنهجه في كتابة التاريخ، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الاداب، جامعة الكوفة ٢٠٠٧.

❖ عيسى، احمد عبد العزيز علي.

١١٨. الصراع على البيوتات المملوكية في مصر (١٢١٣-١٧٩٨)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الاسكندرية، كلية الاداب، ٢٠٠١.

المصادر الفرنسية :

❖ Bonaperte , Napoleon .

119. Compagens D'Egypte Et De Syrie 1798-1801 , Memoires Poarserviva L'Histoire D Napoleon , Comou , (Paris:1843),Vol.1 .

❖ Chabrol .

120. Essai Sur Les Moeurs des Habitans Modernes de L'Egypte , D.E.2 Edition , T.XVIII.Etat Modern.

❖ Cherfils , Christian .

121. Bonaparte Et L'Islam D'apres Les Document Francais Arabs , A.Pedone , (Paris : 1914).

❖ Corre , Jean Marle .

122. Voyagurs Et Ecrivains Francaisen Egypte , (Le Cairo:1922)

123. Correspondences Et Relation De J. FIEVEE Avec Bonaparte (1802-1813) , (Paris:1836).

❖ Fourier , Joseph .

124. Perface Historique ,Description de L' Egypte , Imprimer Imperial , (Paris : 1809) , Vol.1.P.1.

❖ Geoffroy , Etienne .

125. Letters D'Egypte 1798-1801 , Imperime en france , (paris:2000).

❖ Kleber en Egypte 1798-1800 .

126. Kleber et Bonaparte , Etude Historique , Presentation et notes par : Henry Laurens , Institut Francais D'archeologie Orintale . (caire :1988).

❖ La Situation Interinalede Canal de Suez .

127. Edition Giards The Repour Le Doctor Old Edudes Historyues, Juridigres , (Paris:1968).

❖ Laurens , Henry .

128. Les Origines Intellecuetles de L'Expidition D'Egypte , L'Orientlisme Islamisant En France , (Paris : 1987).

❖ Thiry , Jean .

129. Bonaparte En Egypte December 1797–24 Aout 1799 , Berger – Lerraut , (Paris :1973).

❖ Turc , Nicolas .

130. Chronique D'egypte 1798-1801 , Editee ET Tradyite Par : Gaston Wiet , Imprie De L'Institut Francais D'archeologie Orientale , (Le Caire : 1950) .

❖ Volney , Constantin Francois .

131. Voyage En Egypte Et Syrie , Bossange , (Paris:1821) , Vol.2.

Correspondences de Napoleon , H. Plon, J. Dumaine,(Paris: 1868) .

المصادر الانكليزية :

❖ Abo-Lughod , Ibrahim .

132. Arab rediscovery of Europe , Princeton university press, (Princeton:1963).

❖ Al-jabarti .

133. 'Aj'ib Al-Athar Fi 'Al-taragim Wa Al-Akhbar , Edited And Translated By: Thomas Phlipp and Moshe Perlman , First Publish , Franz Steiner Vevlag , (Stuttgart :1994) , Vol.III .

❖ Bjorneboe , Lars .

134. In Search Of The True Political Of The "Ulama" , AAthus University Press , (United Kingdom : 2007) .

❖ Cole , Juan .

135. Napoleon's Egypt : Invading the Middle East , First Publish , AUC , (Cairo : 2008).

❖ Cuno , Kenneth M.

136. The Pasha's Peasants land , Society and Economy in Lower Egypt 1740-1868 , First Publish , AUC , (Cairo:1994) .

❖ Goldcshmidt, Arthur Jr.

137. Biographical Dictionary of Modern Egypt , AUC , (Cairo:2000) .

❖ Gran , Peter .

138. Islamic Roots Of The Capitalism Egypt 1760-1840 , First Publish , AUC , (Cairo:1999).

❖ Holt , P.M.

139. Studies In The History Of The Near east , First Publish , Frank Cass , (London : 1973).

❖ Kaegi , Walter Emil, Jr.

140. "Initial Byzantine Reactions to the Arab Conquest", Church History, Vol. 38, No. 2 (Jun., 1969).

- Lane .Edward W.

141. Manners and Customs of Modern Egyptian , Pub.1 , Lirresd Franc , (Cairo:1836) .

- Lawson , Fred H.

142. The Social Origins of Egyptian Expansionism During The Mujammad 'Ali Period , first published , AUC , (Cairo:1999).

- Meinardus , Otto F, A .

143. Monks and Monasteries of The Egyptian Deserts , AUC , (Cairo : 1989).

- O'Mara , Barry Edward.

144. Napoleon At St, Helena . Scribner and Welford , (New York : 1889) , Vol.1.

- Strathern , Paul.

145. Napoleon Egypt A Bontam Book , (New York : 2008) , P.18.

- Toynbee , A.J.

146. Civilization On Trial , (New York : 1949) .

- Trimingham , J.S.

147. Islam In Ethiopia ,(Oxford:1952).

- Tucker , Judith , E.

148. Women In Nineteenth Century Egypt , AUC , (Cairo:1986).

❖ Winter , Michael .

149. Egyptian Society Under Ottoman Rule,1517–1798 , Rutledge , First Published , (New York:1992) .

البحوث و الدراسات الاجنبية :

❖ Al–Sayyid , Afaf Lutfi (Marsot) .

150. "The Political And Economic Foundation Of The "Ulama In 18Th Century " , JESHO , Vol.16 , No.13 , Dec.1973 .

❖ Ayalon . David .

151. The Historian al–Jabartī and His Background),**BSOAS**, University of London, Vol. 23, No. 2 (1960).

152. " Notes On The Transformation Of The Mamluk Society In Egypt Under The Ottomans" JESHO , Vol.3 , No.2 , (Aug:1960) .

❖ Di–Capua , Yova .

153. "Jabarti Of The 20Th Century" The National Epic Of "Abd Al–Rahman Al–Jabarti And Other Egyptian Historians " , IJMES .

❖ Elliott Colla.

154. " "Non, non! Si, si!": Commemorating the French Occupation of Egypt (1798–1801)",JBE,1999, Vol. 9.

❖ Hanna, Sami A.

155. "The Egyptian Mind and the Idea of Democracy" , IJMES , Vol. 1, No. 3 (Jul., 1970).

❖ Heyworth . Dunne's.

156. "Arabic Literature In Egypt In The Eighteenth Century " , BSOAS , Vol. IX , No.3, 1938 .

157. "Rifa'eh Badawi Raf'I At–tahtawi:The Egyptian Revives" , BSOAS , Vol.IX , 1938 .

❖ Holt , P. M.

158. "Al–Jabarti's Introduction to the History of the Ottoman Egypt" , BSOAS , vol.25.No.1/3.1962.

❖ Lewis , Bernard .

159. "Some reflections On The Decline Of The Ottoman Empire " , SI , 1918 .Vol.IX .

❖ Livingston , John .

160. "Ali Bey Al–Kabir And The Jews" , JMWS , Vol.7 , No.2 , May 1971.

161. "The Rise Of Shaykh Al-Balad "Ali Bey Al-Kabir m A Study In The Accuracy Of The Chronicle Of Al-Jabarti" , **BSOAS** , Vol.33 , No.2 , 1970 .

❖ Mary Ann Fay.

162. "From Concubines to Capitalists: Women, Property, and Power in Eighteenth-Century Cairo", **JWH**,1998, Vol. 10 No. 3 (Autumn.

❖ Moreh , S.

163. "Reputed Autograph of Abd Al-Rahman Al-Jabarti and Related problems" , BSOAS , Vol.28 . No. 3 , 1956 .

164. Aja'b Al-Athar Fi 'Al-taragim Wa Al-Akhbar , Wi.Vol.37,Issue.2 , 1997 .

❖ Mukhtar , Mohamed Haji .

165. "Arabic Sources On Somalia" ASA , Vol.14,1987.

❖ Poonwala , Ismail K.

166. "The Evellution Of Al-Gabarti's Historical Thinking As Reflected In Muzhir And 'Aga'ib" , Arabica , Brill , 1968 . T.15 , Fasc. 39 .

❖ Reichmuth , Stefan.

167. "Murtada Az-zbaidi In biographical and autobiographical Accounts Glimpses of Islamic Scholarship in the 18th Century" **WI** , Vol.39,Issue .1 . (May:1999).

❖ Stoddart , T.L.

168. "An Account Of the " Consilium Written By Leibnitz : Under The Auspices Of the Elector of Mayenc and Presented to Louis XIV " Foreign and Commonwealth office collection , University Of Manchester (England : 1850).

❖ Zolondek , Leon .

169. Ash-Sha□b in Arabic Political Literature of the 19th Century , **WI** , Vol. 10, Issue 1/2 (1965) .

الرسائل و الاطاريح الاجنبية :

❖ Peter , Erin A .

170. The Napoleonic Egyptian Scientific Expedition , Master thesis , Seton Hall University , South Orange, NJ , 2009.

❖ Verdery , Richard N.

171. 'Abd Al-Rahman Al-jabarti As A source For Mohammed Ali Early Years In Egypt 1801-1821 , Master Thesis , Unpublished , Princeton University , 1967 , P.34.

الصحف الفرنسية المعاصرة :

١٧٢. لا ديكاد ايجبسين، المطبعة الإهلية، القاهرة، السنة السابعة للجمهورية الفرنسية، الاعداد ١ - ١٠٠.

١٧٣. كوربيه دليجبيت، العدد ٢٣، ٩ نيفور، السنة السابعة للجمهورية الفرنسية، ٢٧ ديسمبر ١٧٩٨

174. Le Courrier De L'Egypte , No.109 . Du Germinal Au IX (13 Sep. 1798).

175. Le Courrier De L'Egypte , No.110 . Du Germinal Au IX (14 Sep. 1798).

176. Le Courrier de l'Egypte , No.2. 29 , aout , 1798.

177. Le Courrier de l'Egypte , No.1.29 aout 1798.

178. Le Courrer de l'Egypte , No.1.30 aout 1798.

179. Le Courrier de l'Egypte , No.1 29 ,1798.

180. Le Courrier de l'Egypte . no.1 , 29 aout , 1798.

181. Le Courrier de l'Egypte . no.9 , 27 septmpere , 1798.

182. Le Courrier de l'Egypte . No.24 , 11 Janvier 1799 .

183. Le Courrier de l'Egypte , No.8 , 27 Septembre 1798.

الموسوعات العربية :

❖ الكيالي، عبد الوهاب .

١٨٤. موسوعة السياسة، ط ١، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، (بيروت : ١٩٧٩)، ج ١.

الموسوعات الاجنبية :

❖ Encyclopedia of Islam : NEW EDITION, (LEIDEN E. J. BRILL–1986) .

❖ Ayalon, David.

185. al-DJabrti, vol.VII

❖ Briner , W.M.

186. "IBN IYAS" EI2 , Vol.III

❖ GIBB, H. A. R.

187. AL-'ATTAR, vol . I.

❖ Shaw , Stanford J.

188. "Al-Bakri" , Vol.I

❖ Ulendorff, E.

189. ,DJabart, vol.VII.

شبكة المعلومات الدولية : (الانترنيت)

١٩٠. مراسلات نابليون، م ٢، الرسالة رقم ٣٨٧٢، ٧ ديسمبر (كانون الاول) ١٧٩٨، نص الرسالة متاح على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) : www.Napoleon.com

١٩١. مراسلات نابليون، م ٢، الرسالة رقم ٢٧٥٣، ٣ اغسطس (اب) ١٧٩٨، نص الرسالة متاح على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) www.Napoleon.com

كشاف بالأسماء الواردة في الرسالة

قائمة بالمصطلحات العربية و التركية و الفرنسية

المصطلح	المعنى
أبعدية	(الجمع ابعديات) في الاصل قطعة ارض زراعية غير داخلة في المساحة الزراعية واستخدمت فيما بعد بمعنى ضيعة
أثرية	الحق المتوارث للفلاح في زراعة الارض مقابل دفع ضريبة الارض الزراعية
ارباب الاشاير	مصطلح يطلق على رجال الطرق الصوفية
إرسالية	المنحة المالية السنوية المقدمة من مصر الى الحافظة الخاصة بالسلطان العثماني
أشراف	مفردها (شريف) المنتسب الى الرسول عليه الصلاة و السلام
اغا	(الجمع اغوات) في الاستعمال الشائع، رئيس عسكري او رئيس خدم القصر
أغات الرسالة	هو الاغا أي الرئيس المسؤول عن المجموعة المكلفة بإبلاغ رسائل الادارة في الداخل والخارج
أفندي	الجمع افندية، لقب تركي، والكلمة مأخوذة اصلا من الكلمة اليونانية ايفانتيس بمعنى سيد
أقسام	مفرده قسم، وحدة ادارية فرعية لواحدة من المديريات الاربعة عشر التي انشأها محمد علي ويرأسها "كاشف".
إقطاع	(الجمع اقطاعات) هبة من العقارات الحضرية او الارض الزراعية او أي صورة اخرى من صور الثروة التي يتم حيازتها كمزرعة

ضرائبية في مقابل خدمات عسكرية[في العادة] تقدم للحكومة

أقليم	ناحية او منطقة ادارية
اكترت	أي استأجر الحجاج الفلاحون او اتفقوا مع العرب على حمايتهم وتوصيلهم الى بلادهم
اكر الفداوية	أي الاكر المعلقة على ابواب المساجد
الالدشات	الاتباع، أي اتباع القليونجية
الالدشات	من التركية (يولداش) : يول أي الطريق، داش، أي اداة المشاركة، واليولداش هو الرفيق في الطريق، وتطلق على الزعماء و اعضاء الحزب الواحد، وجمعها في العامية المصرية (الاديش) والالدشات القلينجية فرقة من المشاة سلاحهم السيوف
الامة	مجتمع المسلمين
انفار	المفرد نفر، العمال
انكشارية	فرقة متميزة من جنود المشاة الاتراك
اوباش الناس	عامة الناس او رعاع الناس
اوقاف	المفرد وقف : الارض او أي صورة اخرى من صور الاملاك ترصد ملكيتها للاعمال الخيرية او تصبح وقفا على افراد عائلة ما
ايالت	وحدة ادارية او قسم في الدولة العثمانية، والاصل في العربية : ايالة بمعنى ولاية
باشليك	منطقة يحكمها باشا
باشمعاون	رئيس المساعدين او رئيس السكرتارية ويستعمل كذلك للدلالة

على الياور بمعنى النائب او المرافق

بدعة	امر مستحدث يعتبر شرعا كفرا في الاسلام
براني	ضريبة استثنائية
برسيم	النبات المعروف
برطلوا	برطلة : وتعني الرشوة، وبرطلوا أي قدموا الرشاوي
البركارات	خزائن الملابس
البطالين	أي الذين لاعمل لهم
بلاد الابارة و الجراكسة	الابازة هم المماليك المجلوبون من بلاد القوقاز وهي المنطقة الممتدة من البحر الاسود الى بحر قزوين، والجراكسة هم المماليك المجلوبون من بلاد جركس على الشاطئ الشرقي للبحر الاسود وتقع غربي القوقاز
بور	ارض غير مزروعة او غير صالحة للزراعة
بيرات	ترخيص او امتياز يباع بواسطة القنصليات تمنح للتاجر بمقتضاه حقوق تجارية داخل وخارج نطاق اقليم الدولة
بيراتلي	التاجر الذي حصل على بيرات
بينباشي	رتبة عسكرية تعادل رتبة المقدم
بيوك باشي	فارسية وتعني رئيس السعاة
تذكرة مختومة	شهادة ممهورة بخاتم رسمي
ترعة	قناة الري المعروفة
التزام	جمع التزامات، مزرعة ضرائبية ريفية

تصرف: استخدام الارض الزراعية

تمسكات: أي المستندات التي تثبت ملكية الاشياء

الجبخانة: تركية : جبه، تعني الدرع، خانة تعني المكان، أي المكان الذي تودع به الاسلحة و الذخائر

الجربجية: مفردها جوربجي : فارسية، وعتني ضابط انكشارية وهم رؤساء المشاة، وكان الجبوربجي يركب حصانا، ويلبس جبة حمراء من الجوخ، وخفا اصفر، والجبربجي يشرف على امور الكتيبة وله حق تأديب الجند في الجرائم الصغيرة

جسر: حاجز او سد على مجرى مائي

الجعالات: أي العطايا

الجعيدية: هم الفتوات ويطلق عليهم الزعر و العياق و الشطار

جورنال: الجمع جورنالات بمعنى تقرير

الجوكار: هي شارة الثورة الفرنسية المثلثة الالوان، والجبرتي وصفها بنصه بوضوح، انظر الوصف : الجبرتي، عجائب، ج ٣ / ص ٢.

جوكار: شارة الثورة الفرنسية المثلثة الالوان

الحرافيش: جمع حرفوش، وتعني الشخص السيء من العامة

حشرات الحسينية: أي عامة ابناء الحسينية

حشيشة من الحرير الملون: تعني شريط من الحرير الملون

الخانجي: أي المشرف على الخان او صاحبه، والخان يعني المكان او الفندق،

وجي اداة النسب الى الصنعة في اللغة التركية

الخانكة	دار للصوفية، أنشأ الملك الناصر بن قلاوون خانقاه وبنى بجوارها مسجدا و حماما وعمر قصور و بيوتا واقبل الناس على البناء و السكن حول الخانقاه وصارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس وهي الان قاعدة مركز الخانكة محافظة القليوبية
خشداشين	أي المشتركين في سيد واحد، ويدينون له بالولاء، وتعني الزملاء في خدمة سيد وهم في مرتبة واحدة
خولي	المراقب او المشرف
الخوندات	فارسية الاصل، ومفردها خوند، واستعملت في العربية لقبا بمعنى السيد او السيدة
دايرة	ضيعة
الدرك	أي مقر رجال الامن المنوط بهم حماية المنطقة
دره باي	المعنى الحرفي سيد الوادي وهو الامير الاقطاعي الذي اسس امارة صغيرة في المناطق الريفية من الاناضول
دفتر ترابيع المساحة	سجل لعمليات مسح الاراضي الزراعية
دفتردار	مدير الادارة المالية
ديوان	مجلس او وزارة
ديوان افندي	رئيس مجلس الوزارة
رخصة	وثيقة محررة او تصريح مكتوب
رزقة	الاراضي التي توهب لاغراض خيرية، وقف خيري

روزنامة	مكتب للمحاسبة و الاشراف المالي المسئول عن حسابات الايرادات و المصروفات الشهرية و السنوية
روزنامجي	رئيس الروزنامة المسؤول عن تقدير وجمع الضرائب
الرومي	أي الذي ينتسب الى الدولة العثمانية
ريال فرانسة	عملة كانت سائدة في القرن الثامن عشر وقد كان الريال الفرانسة موضوعا لمضاربة خطيرة وكان سعره في ارتفاع دائم فقد كان سعر صرفه في ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م مائة نصف فضة ووصل عام ١٢٧١هـ/ ١٨١٦ م ٣٦٠ نصف فضة(انظر : نصف فضة)
زعر الحارات البرانية	أي فتوات الحارات التي خارج الحسينية
زمام	الارض الزراعية او مساحات الاراضي التابعة لقرية ما
سر شسمة	ضابط في الجيش العثماني مهمته تدريب القوات غير النظامية، ضابط برتبة رائد
سر عسكر	قائد الجيوش
سردار	أي قائد الجند
سنجق	منطقة ادارية، قسم فرعي في ولاية
سنجق باي	حاكم السنجق
شاهبندر التجار	رئيس طائفة التجار في مصر
شاويش	حارس
شتوى	المحاصيل التي تزرع في الشتاء وتحصد في مطلع الربيع
شراقي	الارض غير المروية التي لا تصل اليها مياه النيل

شوربشي	ضابط برتبة مقدم او فصيلة من فرقة الانكشارية
شيخ	رجل كبير السن في القرية، واحد من صغار الاعيان، احد قادة الطرق الصوفية او القائم على زاوية (منشأة تابعة لاحدى الطرق الصوفية)
شيفليك	الجمع شفالك : مزرعة او ضيعة تمنح لاعضاء الاسرة المالكة في مصر
صاري عسكر	تعني القائد العام للعسكر، والمقصود بها بونابرت قائد عام الجيوش الفرنسية في مصر
صيفي	المحاصيل الزراعية الصيفية
طيلسان	فارسية (تالسان او تالشان) وهو نوع من الاوسمة يلبس على الكتف او يحيط بالبدن، خال من الخياطة و التفصيل، ويعرف بالعامية المصرية بالشال
عالم	الجمع علماء : احد رجال الدين الذين تضفى عليهم وظيفتهم كدارسين ومعلمين واساتذة الشرعية الاسلامية هيبة و سلطة
العامة	الجماهير
العسس	أي التجسس او تفقد احوال الرعايا ليلا
غروقة	صورة من صور رهن الاراضي الزراعية
الغلايين	مفردها غليون واصلها اسباني **Galeon** وبالفرنسية **Galion** والانجليزية **Galleon** وبالايطالية **Galeone** وقد برز هذا النوع كمركب حربي كبير في اواخر القرن الخامس عشر الى اوائل القرن السابع عشر، واستمر معروفا بعد ذلك، واصبح يشكل

	احدى قطع الاساطيل العثمانية و الاوربية في البحر الابيض المتوسط
فايظ	الربح او العائد الذي يتم الحصول عليه من الالتزام ويعتبر نصيب الملتزم
فتوى	راي قاطع حول مسائل الشريعة الاسلامية يصدره "المفتي"
فراجة	العباءة
فردة	هي بصفة عامة ضريبة الرؤوس على المسلمين
فرمان	مرسوم او امر او قرار امبراطوري
فقراء	مصطلح صوفي عادة كان يطلق على الصوفية والمقصود به هنا هذا المعنى
القرابانا	في الفرنسية و الايطالية(Carabine) وتعني بندقية من طراز قديم واسعة الفوهة كان يحملها المشاة و الفرسان
قلقات	مفردها : قلق، وتعني في التركية دار الحراسة او مكان اقامة الحرس
القلينجية	نسبة الى القليوني أي البحارة الذين يعملون على الغلايين
قنطرة	القنطرة المعروفة او السد
كاشف(الجمع كشاف)	الوكيل المحلي للحكومة في الاقليم
كتخذا او كخيا	وكيل او نائب ويكون مصاحبا في العادة لرئيسه
كرنتيلة	أي الحجر الصحي
الكرنكة	أي محتمين خلف المتاريس

كشف	تقرير او بيان
كفر	قرية صغيرة
كلالة	ضريبة جماعية تفرض على قرية بأكملها
كلفة	ضريبة اضافية او برانية او مظلمة، كانت تفرضها الادارة او العسكر او البكوات المماليك على القرى و البلدان دون موعد محدد كل فترة و اخرى
الكواللرية	تعني الفرسان وهم طائفة دينية تعرف باسم فرسان القديس يوحنا الاورشليمي، كانوا يقطنون اولا جزيرة رودس ثم انتقلوا الى جزيرة مالطا، وقد اصبح حكمها بيدهم حتى استولى عليها نابليون وقضى على حكمهم
الكيمان	أي الاتربة و الرمال المرتفعة التي يطلق على مفردها كوم وجمعها كيمان
مباشر	ملاحظ او مشرف
مجلس عموم/مجلس عالي	جمعية عمومية تجتمع سنويا، وتتكون من كبار الاعيان و الشخصيات المهمة، مثل الشيوخ واعضاء من هيئة العلماء والتجار
مرد بوش	فرنسية : ارفعوا سلاحكم في حالة استعداد وهي ما تعرف بالعربية كتفن سلاحْ لان البندقية تكون مسنودة على الكتف
مساتير الناس	أي الاثرياء القادرين على اعباء الحياة
المسكوف	روسيا
مسموح المشايخ	ارض زراعية معفاة من الضرائب و ممنوحة لأعضاء هيئة العلماء

	او لشيوخ القرية
مك	حاكم
المكوسات	أي الضرائب
ملتزم	من يسند اليه الالتزام، او فلاح يزرع ارضا خراجية
المناخلية	عطفة غير نافذة، بداخل الحارة
نبوت	جمعها نبابيت عصا غليظة، هرواة
نصف فضة	عملة فضية، سكت في العصر العثماني وكانت تعرف كذلك باسم البارة وكان القرش يساوي ٤٠ نصف فضة
نفوط	أي المشاعل الموقدة بالزيت او النفط
النقاير	مفردها نُقيرةُ نوع من السفن الحربية الصغيرة، وكانت تستعمل وقت الحرب في نقل الازواد و الذخائر
نقيب الاشراف	مسئول حضري كانت وظيفته ان يعمل كمسجل لاولئك الذين يقولون بانتسابهم الى النبي وهو كبير الاعيان كذلك
وجاق	الجمع وجاقات : فرقة عسكرية عثمانية
الوقدة	أشد الحر و المقصود بها اشعال النار دلالة على بدء الاحتفال بالمولد النبوي
يلكات	تركية من 'يلْ' بمعنى الريح، واليلك لباس بلا اكمام يلبس على الصدر فيدفع عنه الهواء فهو الصدار او الصديري

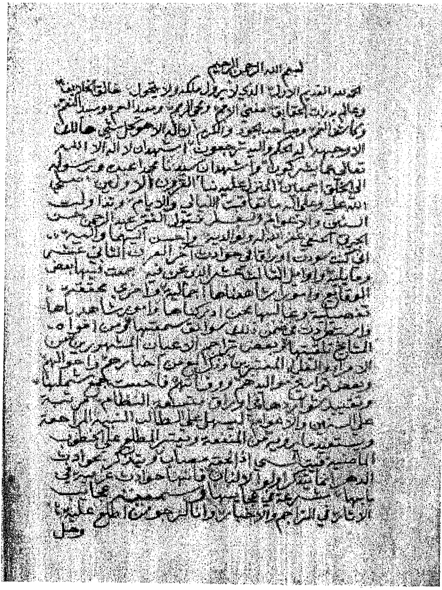
الاشهر الواردة في الرسالة و ما يقابلها في التقاويم

الشهر الفرنسي	الشهر الميلادي	الهجري	المعمول بها في العراق
فانديمير	٢٢ سبتمبر - ٢١ اكتوبر	المحرم	آب
بروميير	١٢ اكتوبر - ٢١ نوفمبر	صفر	أيلول
فريمير	٢١ نوفمبر - ٢٠ ديسمبر	ربيع الاول	تشرين الاول
نيفور	٢١ ديسمبر - ١٩ يناير	ربيع الثاني	تشرين الثاني
بلوفيز	٢٠ او ٢١ او ٢٣ يناير - ١٩ او ٢٠ او ٢١ فبراير	جمادي الاولى	كانون الاول
فانتوز	١٩ فبراير - ٢٠ مارس	جمادي الثاني	كانون الثاني
جرمينال	٢١ مارس - ١٩ ابريل	رجب	شباط
فلوريـال	٢٠ ابريل - ١٩ مايو	شعبان	آذار
بريريـال	٢٠ مايو - ١٨ يونيو	رمضان	نيسان
ميسيدور	٢٠ يونيو - ١٩ يوليو	شوال	آيار
ترميدور	٢٠ يوليو - ١٨ اغسطس	ذو القعدة	حزيران
فروكتيدور	١٨ اغسطس - ١٦سبتمبر	ذو الحجة	تموز
٦ ايام تكميلية = من ١٧ سبتمبر الى ٢١ سبتمبر			

المختصرات

الرمز	المدلول
ASA.	AFRICAN STUDIES ASSOCIATION. Vol. 14.
AUC	AMERCIAN UNIVERSTY IN CAIRO
BSOAS.	BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES.
E.I.2.	THE ENCYCLOPEDIA OF ISLAM.
IJMES	INTERNATIONAL JOURNAL OF MIDDLE EAST STUDIES.
JAH.	THE JOURNAL OF AFRICAN HISTORY.
JBE	THE JOURNALS OF BONAPARTE IN EGYPT.
JESHO.	JOURNAL OF THE ECONOMIC AND SOCIAL HISTORY OF THE ORIENT.
JMES.	MIDDLE EASTERN STUDIES.
JWH.	JOURNAL OF WOMEN'S HISTORY.
SI.	STVDIA ISLAMICA.
WI	DIE WELT DES ISLAMS.
WLT.	WORLD LITERATURE TODAY.

الصفحة ٢٠ من مخطوطة عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي
المحفوظة في المجمع العلمي العراقي في بغداد


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله القديم الأول الذي لا يزول ملكه ولا يتحول خالق الخلائق

وهذا آخر ما يسره الله لي من تدوين

هذه النسخة شاء الله جل جلاله حسن

الخاتمة والحمد لله تبارك وتعالى ★

في البدء والختام والصلاة والسلام

على سيدنا محمد خير الأنبياء وختام

وعلى آله وأصحابه الأئمة الأعلام

تاريخه [illegible] العقير

الفقير إلى رحمة ربه القدير

عبد الرحمن بن [illegible]

الحنفي غفر الله

له ولوالديه

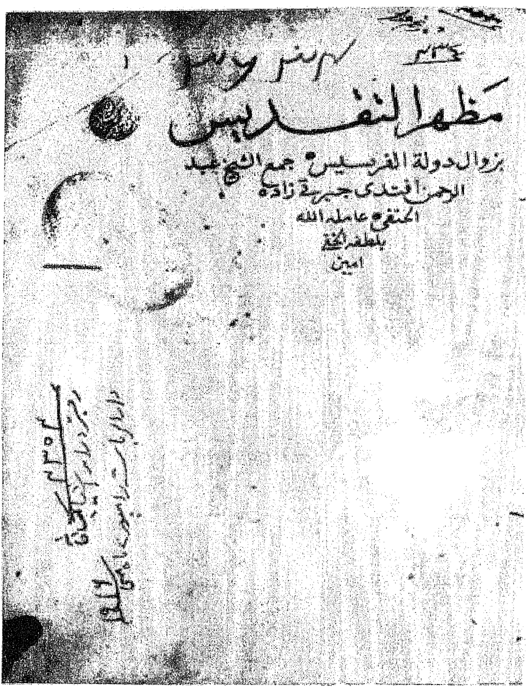
ولمن [illegible]

الشعبة الفنية

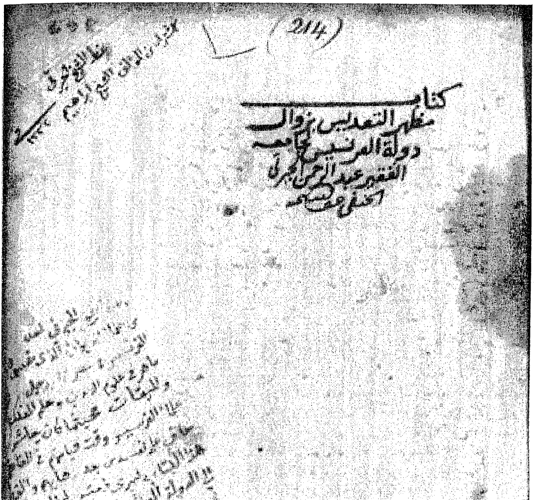
في المجمع العلمي العراقي

قسم التصوير [illegible]

صفحة الغلاف من مخطوطة مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي الموجودة في دار الكتب والوثائق القومية-القاهرة.



صفحة الغلاف من مخطوطة مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي
الموجودة في المجمع العلمي العراقي-بغداد



نسخة أصلية من الأوامر التي أصدرها نابليون لجنوده قبيل وصولهم مصر

المصدر:دار الكتب والوثائق القومية،مصر.مجموعة وثائق الحملة الفرنسية على مصر.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

LIBERTÉ. ÉGALITÉ.

ARMÉE.

ÉTAT-MAJOR GÉNÉRAL.

ORDRE DU GÉNÉRAL EN CHEF

BONAPARTE.

Au Quartier-général, à bord de l'Orient, le 3 Messidor an 6 de la République Française, une et Indivisible.

ARTICLE PREMIER.

TOUT individu de l'armée qui aura pillé ou violé, sera fusillé.

ART. II.

Tout individu de l'armée, qui, de son chef, mettra des contributions sur les villes, villages, sur les individus, ou commettra des extorsions de quelque genre que ce soit, sera fusillé.

ART. III.

Lorsque des individus d'une division auront commis du désordre dans une contrée, la division entière en sera responsable; si les coupables sont connus, le général de division les fera fusiller; s'ils sont inconnus, le général de division mettra à l'ordre que l'on ait à lui faire connaître les coupables, et, s'ils restent inconnus, il sera retenu, sur le prêt de la division, la somme nécessaire pour indemniser les habitans de la perte qu'ils auront soufferte.

ART. IV.

Lorsque des individus d'un corps auront commis du désordre dans une contrée, le corps entier en sera responsable; si le chef a connaissance des coupables, il les dénoncera au Général de division qui les fera fusiller; s'ils sont inconnus, le chef fera battre à l'ordre pour qu'on les lui fasse connaître, et s'ils continuent à être inconnus, il sera retenu, sur le prêt du corps, la somme nécessaire pour indemniser les habitans de la perte qu'ils auront soufferte.

ART. V.

Aucun individu de l'armée n'est autorisé à faire des réquisitions ni lever des contributions qu'en vertu d'une instruction du commissaire ordonnateur en chef, en conséquence d'un ordre du général en chef.

ART. VI.

Dans les cas d'urgence, comme il arrive souvent à la guerre, si le général en chef et le commissaire ordonnateur en chef se trouvaient éloignés d'une division, le général de division pourra autoriser le commissaire des guerres à faire les réquisitions d'urgence.

Le général de division enverra sur le champ copie au général en chef de l'autorisation qu'il aura donnée; et le commissaire des guerres enverra une copie au commissaire ordonnateur en chef, des objets qu'il aura requis.

ART. VII.

Il ne pourra être requis que des choses nécessaires aux soldats, aux hôpitaux, aux transports et à l'artillerie.

ART. VIII.

Une fois la réquisition frappée, les objets requis doivent être remis aux agens des différentes administrations, qui doivent en donner des reçus, et en tenir compte à ceux à qui ils les distribueront, afin d'avoir leur comptabilité en matière en règle. Ainsi, dans aucun cas, les officiers et soldats ne doivent recevoir directement des objets requis.

ART. IX.

Tout l'argent et matières d'or et d'argent provenant des réquisitions, des contributions et de tout autre événement, doit, sous douze heures, se trouver dans la caisse du payeur de la division; et dans le cas que celui-ci soit éloigné, il sera versé dans la caisse du quartier-maître du corps.

ART. X.

Dans les places où il y aura un commandant, aucune réquisition ne pourra être faite, sans qu'auparavant le commissaire des guerres n'ait fait connaître au commandant de la place, en vertu de quel ordre cette réquisition est frappée; le commandant de la place devra sur le champ en instruire l'état-major général.

ART. XI.

Ceux qui contreviendraient aux articles V, VI, VII, VIII, IX et X, seront destitués et condamnés à deux ans de fers.

ART. XII.

Le général en chef ordonne au général chef de l'état-major, aux généraux de division, au commissaire ordonnateur en chef de tenir la main à l'exécution du présent ordre; son intention n'étant pas que les fonds de l'armée deviennent le profit de quelques individus, ils doivent tourner à l'avantage de tous.

Signé, le Général en chef,
BONAPARTE.

Par ordre du Général en chef,
Le Général de division, chef de l'État-Général de l'armée,
ALEXANDRE BERTHIER.

De l'Imprimerie de l'Armée navale, à bord de l'Orient.

النسخة الأصلية من خطاب نابليون إلى المصريين

المصدر: دار الكتب والوثائق القومية، مصر. مجموعة وثائق الحملة الفرنسية على مصر.



بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه

النسخة الأصلية من خطاب نابليون إلى المصريين

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لاولد له ولاشريك في ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوي المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابارته امير الجيوش الفرانساويه يعّرف أهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار في حق الملة الفرانساويه ويظلموا تجارها بانواع البلص والتعدي فحضر الان ساعة عقوبتهم.

وحسرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الابازا والكرجستان يفسدوا في الإقليم الاحسن الذي يوجد في كرة الارض كلها فاما رب العالمين القادر على كل شي قد حتم على انقضاء دولتهم.

يا ايها المصريين قد يقولوا لكم انني مانزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ماقدمت اليكم الا لكيما اخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبدالله سبحانه وتعالى واحترم نبيه محمد والقران العظيم.

وقولوا لهم ايضا ان جميع الناس متساويين عند الله وان الشي الذي يفرقهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضايل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضايل والمعرفة التي تميزهم عن الاخرين وتستوجب انهم يتملكوا وحدهم كلما يحلوا به حيات الدنيا.

حيثما يوجد ارض خصبة فهي مختصة للمماليك والجواري الاجمل والخيل الاحسن والمساكن الاشهى فهذا كله لهم خاصا.

ان كانت الارض المصرية التزام للمماليك فليورون الحجت التي كتبها لهم الله فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لايستثنى

احد من اهالي مصر عن الـدخول في المناصـب السـامية وعـن اكتسـاب المراتـب العاليـة فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها.

سابقا في الاراضي المصرية كان المدن المعظمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر وما ازال ذلك كله الا الطمع وظلم المماليك.

ايها القضات والمشايخ والايمة ويا ايها الشورباجية واعيان البلد قولوا لامـتكم ان الفرانساويه هم ايضا مسلمين خالصين واثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرا وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث دايما النصارا على محاربة الاسلام ثـم قصـدوا جزيـرة مالطـه وطردوا منها الكواللييرية الذين يزعمون ان الله تعالى يطلب مـنهم مقاتلـة المسـلمين ومـع ذلك الفرانساوية في كل وقت من الاوقات صـاروا المحبين الاخلصـين لحضـرة السـلطان العثمانلي واعدا اعدايه ادام الله ملكه وبالمقلوب المماليك امتنعوا من اطاعة السلطان غـير ممتثلين لامره فما طاعوا اصلا الا لطمع انفسهم.

طوبى ثم الطوبى لاهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تاخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى ايضا للذين يقعدوا في مساكنهم غير مايلين لاحد من الفريقين المحاربين فاذا يعرفونا بالاكثر يتسارعوا الينا بكل قلب.

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم في الحرب علينا فما يجدوا طريق للخلاص ولايبقى منهم اثر.

المادة الاولى

جميع القرى الواقعة في دايـرة قريبـة بثلثه سـاعات عـن المواضـع الـتي يمـر بهـا العسـكر الفرانساوي فواجب عليها انها ترسل للسر عسكر بعض وكلا مـن عنـدها لكيمـا يعرفـوا المشار اليه انهم طاعوا وانهم نصبوا السنجاق الفرانساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر.

المادة الثانية

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرانساوي تنحرق بالنار.

المادة الثالثة

كل قرية التي تطيع العسكر الفرانساوي الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوي وايضا نصب سنجاق السلطان العثمانلي محبنا دام بقاه.

المادة الرابعة

المشايخ في كل بلد ليختموا حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك بتاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع ادنا شي منها.

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضات والايمه انهم يلازموا وظايفهم وعلى كل واحد من اهل البلد انه يبقى في مسكنه مطمأن وكذلك تكون الصلات قايمة في الجوامع على العادة والمصريين باجمعهم لشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولت المماليك قايلين بصوت عالي ادام الله اجلال السلطان العثمانلي ادام الله اجلال العسكر الفرانساوي لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية.

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من اقامة الجمهور الفرانساوي

يعني في اواخر شهر محرم ١٢١٣ سنة هجرية.

نص الخطاب كما موجود في عجائب الآثار

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الاالله لا ولد له ولا شريك له في ملكه،من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية،السر عسكر أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدي،فحضر الان ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذي لايوجد في كرة الارض كلها،فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم.يا أيها المصريون،قد قيل لكم انني مانزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلاتصدقوه،وقولوا للمفترين انني ماقدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم،وقولوا ايضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط،وبين الماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء احسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة،فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم،ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم.ولكن بعونه تعالى من الان فصاعداً لاييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية،فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها،وسابقا كان في الاراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك.ايها المشايخ والقضاة والائمة والجربجية واعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك انهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام،ثم قصدوا جزيرة مالطة

وطـردوا منهـا الكواللريـة الـذين كـانوا يزعمـون ان الله تعـالى يطلـب مـنهم مقاتلـة المسلمين،ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الاوقات صـاروا محبين مخلصـين لحضـرة السلطان العثماني وأعداء اعدائه أدام اللع ملكه،ومع ذلك ان المماليك امتنعوا من اطاعـة السلطان غير ممتثلين لامره فما اطاعوا اصلا الا لطمع انفسـهم،طوبى ثـم طـوبى لاهـالي مصر الذين يتفقون معنا بـلا تـأخير فيصـلح حـالهم وتعلـو مراتبهم،طـوبى ايضـا للـذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالاكثر تسارعوا الينا بكل قلب،لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليـك في محاربتنـا فلايجـدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولايبقى منهم أثر.

المادة الاولى- جميع القرى الواقعة في دائرة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها ان ترسل للسر عسكر مـن عنـدها وكـلاء كيمـا يعـرف المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو ابيض وكحلي واحمر.

المادة الثانية- كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة- كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي ايضا تنصـب صـنجاق السـلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة- المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيـوت والامـلاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع ادنى شيء منها.

المادة الخامسة- الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والائمـة انهـم يلازمـون وظائفهم وعلى كل احد من اهالي البلـدان ان يبقـى في مسـكنه مطمئنـا وكـذلك تكـون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة،والمصريون بـاجمعهم ينبغـي ان يشـكروا الله سـبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عالي ادام الله اجلال السلطان العثمـاني،ادام الله اجلال العسكر الفرنساوي،لعن الله المماليك واصلح حال الامة المصرية.

تحريرا بمعسكر اسكندرية في ١٣ شـهر سـيدور سـنة ١٢١٣ مـن اقامـة الجمهـور الفرنساوي،يعني في اخر شهر محرم سنة هجرية اهـ بحروفه.

¹ Le dyouân était composé cette année des neuf membres suivans :

Le *seyd Khalyl el-Bekry* السيد خليل البكرى, chef des chéryfs, ou descendans de Mahomet,

Le *cheykh A'bd-allah el-Cherqâouy* الشيخ عبد الله الشرقاوى,

Le *cheykh Soleymân el-Fayoumy* الشيخ سليمان الفيومى,

Le *cheykh Mohammed el-Emyr* الشيخ محمد الامير.

Le *cheykh Mohammed el-Mohdy* الشيخ محمد المهدى,

Le *seyd A'ly el-Rachydy* السيد على الرشيدى,

A'bd er-Rahman el-Gabarty عبد الرحمن الجبرتى,

Le *cheykh Moustafâ el-Sâouy* الشيخ مصطفى الصاوى,

Le *cheykh Mousa el-Sersy* الشيخ موسى السرسى.

نموذج من تواقيع محاضر الديوان،ورد فيه اسم الجبرتي

مخطط عائلة الجبرتي

منذ ٩٠١-١٢٤٠هـ/ ١٤٩٥-١٨٢٥م

(عبد الرحمن)

انتقل إلى مصر وأسس رواق الجبرتية في الأزهر ١-محرم-٩٠١هـ/ ٢٠-سبتمبر-أيلول-١٤٩٥م

↓

(محمد)

↓

(علي)

تزوج من زينب بنت تزوج من زينب بنت القاضي عبد الرحيم الجويني

↓

حسن (ت١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م)
تزوج من مريم بنت العمدة محمد بن عمر المنزلي الأنصاري.

عبد الرحمن
(ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)
توفي في حياة أخيه.

↓

(إبراهيم)

تزوج من ستيتة بنت عبد الوهاب أفندي الدجلي سنة ١١٠٨هـ/ ١٦٩٦م،كانت أمه مريم وصية عليه من قبل جدته زينب.

↓

حسن(١١١٠-١١٨٧هـ/ ١٦٩٨-١٧٧٤م)

تزوج بنت الأمير المملوكي علي أغا باش اختيار متفرقة الذي كان يحكم قلاع الطور والسويس والمويلح بالطوري، ثم تزوج من بنت رمضان جلبي بن يوسف المعروف بالخشاب(صفية خاتون)،

↓

عبد الرحمن الجبرتي(المؤرخ)

١١٦٧-١٢٤٠ او ١٢٤١هـ/١٧٥٣-١٨٢٥ او ١٨٢٦م

مجمع التحريرات المتعلقة

إلى ما جرى باعلام

ومحاكمة سليمان الحلبي ٥٢٨٨

قاتل ساري عسكر

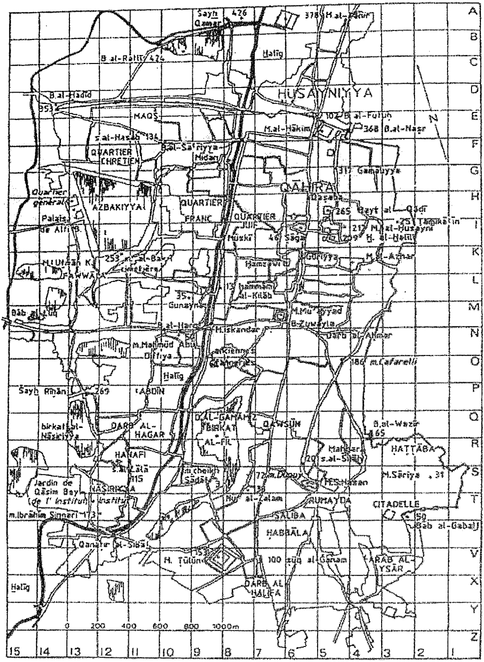
ألعام كلهبر

بمصر القاهرة

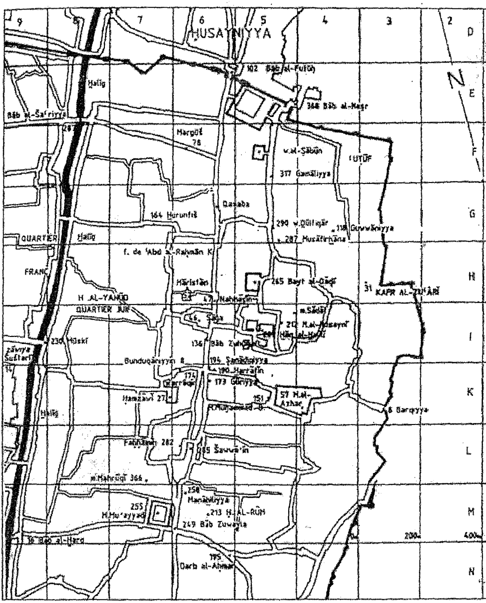
بمطبعـــه الجمهور الـــفرنساوي

في سنة ٨ من اقامة الجمهور

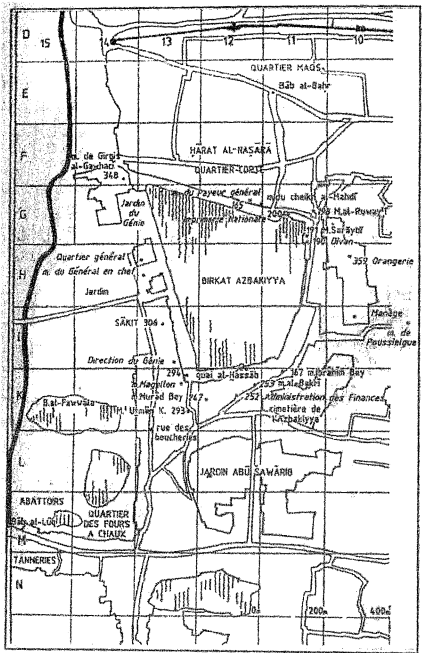
صورة الصفحة الأولى من الكتاب المتضمن للترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان الحلبي وهو من الكتب القليلة التي ترجمت في عهد الحملة وطبعت بمطبعتها بالقاهرة .



الخريطة (١) القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر



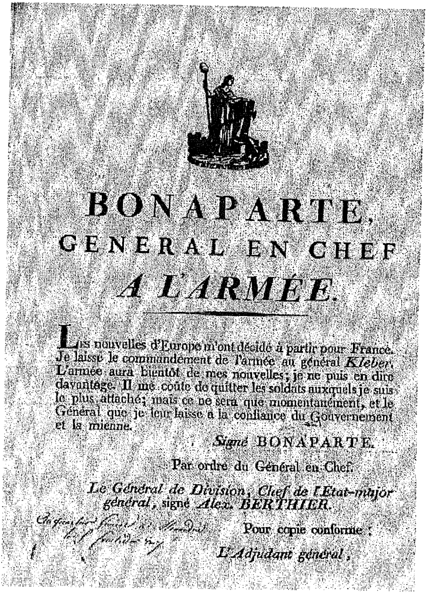
الخريطة (٢) المنطقة المركزية للقاهرة



الخريطة (٣) منطقة الأزبكية

نماذج من الاوامر و المنشورات التابعة للحملة الفرنسية احادية اللغة و ثنائية اللغة :

نسخة من امر نابليون الى الجيش الفرنسي



BONAPARTE,
GENERAL EN CHEF
A L'ARMÉE.

Les nouvelles d'Europe m'ont décidé à partir pour France. Je laisse le commandement de l'armée au général *Kleber*. L'armée aura bientôt de mes nouvelles; je ne puis en dire davantage. Il me coûte de quitter les soldats auxquels je suis le plus attaché; mais ce ne sera que momentanément, et le Général que je leur laisse a la confiance du Gouvernement et la mienne.

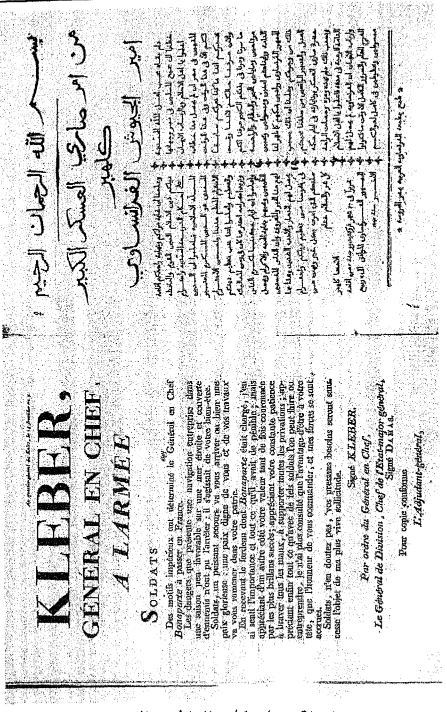
Signé BONAPARTE.

Par ordre du Général en Chef.

Le Général de Division, Chef de l'Etat-major général, signé *Alex.* **BERTHIER.**

Pour copie conforme :

L'Adjudant général,



Au quartier-général du Kaire, le 13 fructidor an 7.

KLEBER,
GÉNÉRAL EN CHEF,
A L'ARMÉE

SOLDATS,

Des motifs impérieux ont déterminé le Général en Chef *Bonaparte* à passer en France.

Les dangers que présente une navigation entreprise dans une saison peu favorable sur une mer étroite et couverte d'ennemis n'ont pu l'arrêter : il s'agissait de votre bien-être.

Soldats, un puissant secours va vous arriver ou bien une paix glorieuse ; une paix digne de vous et de vos travaux va vous ramener dans votre patrie.

En recevant le fardeau dont *Bonaparte* était chargé, j'en ai senti l'importance et tout ce qu'il avait de pénible ; mais appréciant d'un autre côté votre valeur tant de fois couronnée par les plus brillans succès ; appréciant votre constante patience à braver tous les maux, à supporter toutes les privations ; appréciant enfin tout ce qu'avec de tels soldats l'on peut faire ou entreprendre, je n'ai plus consulté que l'avantage d'être à votre tête, que l'honneur de vous commander, et mes forces se sont accrues.

Soldats, n'en doutez pas, vos pressans besoins seront sans cesse l'objet de ma plus vive sollicitude.

Signé KLEBER.

Par ordre du Général en Chef,

Le Général de Division, Chef de l'Etat-major général,
Signé DAMAS.

Pour copie conforme

L'Adjudant-général,

بسم الله الرحمن الرحيم

من امر صاري العسكر الكبير
كلهبر
امير الجيوش الفرنساوية

نسخة من امر كليبر الى الجيش الفرنسي

نسخة من امر الجنرال جاك مينو

Tous les employés invalides qui n'ont point été payés de tout ce qui leur était dû, enverront le plutôt possible au chef de l'État-major général de l'armée un état exact et [illegible] règle de ce qui leur revient, afin que le Général en Chef puisse en ordonner le paiement.

Extrait d'un Jugement rendu par la Cour martiale maritime permanente de la place d'Alexandrie.

La Cour martiale maritime permanente de la place d'Alexandrie a, dans sa séance du 21 frimaire dernier, condamné, par commutation de peine, à trois mois de prison, le nommé Joseph Taipherinee canonnier à la première compagnie d'artillerie de la marine, pour cause d'insubordination.

Extrait des Jugemens rendus par [illegible] Cour martiale maritime du deuxième arrondissement.

La Cour martiale maritime du deuxième arrondissement séante au Kaire, le premier nivôse [illegible] 9, condamné par commutation de peine, et à dater du jour de leur arrestation, à quatre mois de prison, le nommé Thomas Chazart, marin; à trois mois de prison les nommés Philippe Projetti, marin, et Pierre Pugaril, aide-timonnier; et à deux mois les nommés Michel Dumont et Joseph Mouraille, marins, pour cause de désertion.

Le nommé Antoine Lamuche, chasseur de la première compagnie du troisième bataillon de la 4.me demi-brigade légère, âgé de dix-huit ans, taille de cinq pieds deux pouces, cheveux et sourcils châtains, front grand, yeux gris, nez gros et de travers, bouche moyenne, menton rond, visage rond, déserté le [illegible] brumaire dernier, sera arrêté par-tout où on le trouvera, et conduit [illegible] son corps en garnison au Kaire.

Le Général de Division, Chef de l'État-major général de l'Armée

Signé Lagrange.

Pour copie conforme au registre d'ordres:

L'Adjudant général Sous-Chef de l'État-major général,

Réné

A V I S.

Il a été perdu, le premier nivôse, plusieurs papiers et certificats appartenant [illegible] citoyen Paul Canal, chef d'hospice, actuellement [illegible] invalides: on invite ceux qui les auraient trouvés à vouloir bien les remettre au bureau de l'État-major général, place Ezbékyéh.

AU KAIRE, DE L'IMP. [illegible]

LIBERTÉ. ÉGALITÉ.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Au quartier-général du Kaire, le 9 nivôse [illegible] 9 de la République Française, une et indivisible.

Ordre du jour, du 9 nivôse an 9.

Menou Général en Chef, ordonne l'insertion à l'ordre du jour, de la lettre suivante, qui lui [illegible] été adressée par le Divan des cheykhs et ulémas du Kaire.

Le Grand Divan du Kaire, au Général en Chef Abd-Oullah J. Menou, Commandant l'Armée Française; que Dieu accorde ses grâces aux peuples, par le moyen de ses actions.

Priant Dieu pour vous, Général, nous vous informons que le citoyen Fourier commissaire du divan, chef de l'administration de la justice de l'Égypte, nous a communiqué votre intention au sujet de ceux qui, soi-disant saints, parcourent les rues tous nuds, sans avoir la moindre honte de montrer leur nudité; le citoyen commissaire nous [illegible] fait la demande de votre part [illegible] notre religion tolère cela: nous lui avons répondu que, bien loin de le tolérer, Dieu l'a défendu dans son grand Koran, ainsi que son respectable prophète (que la plus parfaite paix et salut soient avec lui!). Cela est tellement défendu par notre religion, que [illegible] quelqu'un jette un regard sur une nudité il est maudit, et celui qui découvre les parties de son corps qui doivent être cachées, l'est aussi, ainsi que le dit le législateur de l'incorruptible loi. C'est pourquoi la religion mahométane commande que la décence et les bonnes actions soient parfaitement observées; elle défend les vices, ordonne de faire le bien; elle défend encore de commettre les actions prohibées [illegible] et commande expressément qu'on empêche qu'elles soient commises: sur cela toutes les sectes sont d'accord et tous les docteurs de la loi musulmane sont d'un commun sentiment. En conséquence, il convient à ceux qui ont le commandement (que Dieu leur multiplie ses récompenses!) de faire observer la loi, dont l'observation est illustre, et d'obliger le peuple à diriger ses actions sur cette même loi. Vous, Général, qui commandez, vous voudrez bien faire parvenir vos ordres, afin qu'il soit défendu au peuple de se rassembler autour des hommes qui commettent ces indécences contraires à la loi de Dieu, et qui doivent être réprimandés rigoureusement [illegible] de crainte qu'ils ne retombent dans la désobéissance envers Dieu. En donnant

Tous les hommes sortant de la marine pour être incorporés dans les différens corps de l'armée de terre, seront entièrement soldés de tout l'arriéré qui peut leur être dû. Les sommes à employer pour cet objet seront prises sur les fonds de la marine.

Signé MENOU.

La Général de Division, Chef de l'État-major général de l'Armée,
Signé LAGRANGE.

Pour copie conforme au registre d'ordre :

L'Adjudant général Sous-Chef de l'État-major général,

AU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE.

LIBERTÉ. ÉGALITÉ.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Au quartier-général du Kaire, le 8 nivose an 9 de la République Française, une et indivisible.

Ordre du jour du 7 nivose an 9. Rien de nouveau.

Ordre du jour, du 8 nivôse an 9.

MENOU,

GÉNÉRAL EN CHEF

A TOUS LES CHEYKHS EL-BELED DE L'EGYPTE.

LE GÉNÉRAL EN CHEF, très-satisfait de la conduite des cheykhs el-beled de toutes les parties de l'Egypte, qui s'empressent de payer le droit annuel qui leur a été imposé, et voulant d'ailleurs leur donner un nouveau témoignage de la générosité française, leur accorde un mois de plus pour l'entier paiement du droit ; de manière que les amendes, pour ceux qui seront en retard, ne commenceront qu'à dater du 1.er pluviôse prochain, ce qui répond au 6 ramadhan 1215 de l'Hégire.

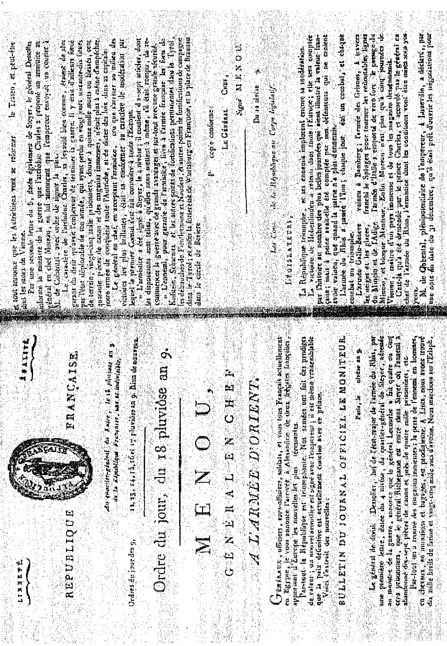
Les généraux commandant les divisions et les provinces, ou tous autres chefs militaires, ainsi que le directeur général et comptable, sont chargés, chacun en ce qui le concerne, de l'exécution du présent ordre, qui sera imprimé dans les deux langues, publié, affiché, et envoyé dans toutes les parties de l'Egypte.

Signé MENOU.

LE GÉNÉRAL EN CHEF ayant reçu des réclamations des différens corps pour l'habillement et équipement des recrues qui ont été incorporés, ordonne ce qui suit :

A partir du premier nivôse, les recrues seront compris, ainsi que les autres individus de l'armée dans les états d'après lesquels doivent être payés aux différens corps l'habillement et équipement conformément à l'ordre du 6 nivôse ; et en attendant que les draps puissent être pris dans les magasins de la République, les corps seront tenus de fournir les autres parties de l'habillement.

Signé MENOU.



LIBERTÉ. ÉGALITÉ.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Au quartier-général du Kaire, le 18 pluviose an 9 de la République Française, une et indivisible.

Ordres du jour des 9, 12, 13, 14, 15, 16 et 17 pluviôse an 9. Rien de nouveau.

Ordre du jour, du 18 pluviôse an 9.

MENOU,

GÉNÉRAL EN CHEF

A L'ARMÉE D'ORIENT.

GÉNÉRAUX, officiers, sous-officiers, soldats, et vous tous Français actuellement en Égypte, je vous annonce l'arrivée à Alexandrie de deux frégates françaises, apportant d'Europe les nouvelles les plus intéressantes.

Par-tout la République est triomphante. Nos armées ont fait des prodiges de valeur; un nouvel armistice est signé avec l'empereur; il est même vraisemblable que la paix définitive est actuellement conclue avec ce prince.

Voici l'extrait des nouvelles :

BULLETIN DU JOURNAL OFFICIEL LE MONITEUR.

Paris, le nivôse an 9.

Le général de division Dessolles, chef de l'état-major de l'armée du Rhin, par une première lettre, datée du 4 nivôse, du quartier-général de Steyer, adressée au ministre de la guerre, annonce que le général Lecourbe a fait quatre ou cinq cens prisonniers, que le général Richepanse est entré dans Steyer où l'ennemi a abandonné dix-sept pièces de canon et près de quatre mille prisonniers, etc.

Par-tout on a trouvé des magasins immenses; la perte de l'ennemi en hommes, en chevaux, en munitions et bagages, est prodigieuse. A Lintz, nous avons trouvé dix mille barils de farine et vingt-cinq mille sacs d'avoine. Nous marchons sur l'Erlaph, et tout annonce que les Autrichiens vont se reformer le Trasen, et peut-être sous les murs de Vienne.

Par une seconde lettre du 5, datée également de Steyer, le général Dessolles informe le ministre de la guerre que l'archiduc Charles a proposé un armistice au général en chef Moreau, en lui annonçant que l'empereur envoyoit un courier à M. de Cobentzel, avec ordre de signer la paix.

Le caractère de l'archiduc Charles, sa loyauté bien connue, étaient de sûrs garans du desir qu'avoit l'empereur de terminer la guerre. Il y étoit d'ailleurs forcé par l'état déplorable de son armée, qui ayant perdu en vingt jours soixante-dix lieues de terrein, vingt-cinq mille prisonniers, douze à quinze mille morts ou blessés, cent quarante pièces de canon et des magasins immenses, n'étoit plus à même d'empêcher notre armée de conquérir toute l'Autriche, et de dicter des loix dans sa capitale.

Le général en chef, en acceptant l'armistice, a cru que s'arrêter au milieu des victoires les plus brillantes, étoit se conformer au caractère de modération par lequel le premier Consul s'est fait connoître à toute l'Europe.

« L'armistice a été signé à Steyer, le 4 nivôse; il contient dix-sept articles, dont les dispositions sont telles, qu'elles nous mettent à même, s'il étoit rompu, de recommencer la guerre avec de grands avantages et sur-tout avec une grande sécurité.

« L'ennemi, pour garantie de l'armistice, livre à l'armée française les forts de Kufstein, Scharnitz et les autres points de fortifications permanentes dans le Tyrol, les débouchés de Finstermünz et Nauders, et autres points de fortifications de campagne dans le Tyrol; et enfin la forteresse de Wurtsburg en Franconie, et la place de Braunau dans le cercle de Bavière. »

P. copie conforme :

LE GÉNÉRAL EN CHEF,

Signé MENOU.

Du 12 nivôse an 9.

Les Consuls de la République au Corps législatif.

LÉGISLATEURS,

La République triomphe, et ses ennemis implorent encore sa modération.

La victoire de Hohenlinden a retenti dans toute l'Europe; elle sera comptée par l'histoire au nombre des plus belles journées qui aient illustré la valeur française; mais à peine avait-elle été comptée par nos défenseurs qui ne croient avoir vaincu, que quand la patrie n'a plus d'ennemis.

L'armée du Rhin a passé l'Inn; chaque jour a été un combat, et chaque combat un triomphe.

L'armée Gallo-Batave a vaincu à Bamberg; l'armée des Grisons, à travers les neiges et les glaces, a franchi le Splugen pour tourner les redoutables lignes du Mincio et de l'Adige. L'armée d'Italie a emporté de vive force le passage du Mincio, et bloque Mantoue. Enfin Moreau n'est plus qu'à cinq journées de Vienne, maître d'un pays immense et de tous les magasins des ennemis.

C'est-là qu'a été demandé par le prince Charles, et accordé par le général en chef de l'armée du Rhin, l'armistice dont les conditions vont être mises sous vos yeux.

M. de Cobentzel, plénipotentiaire de l'empereur, à Luneville, a déclaré, par une note en date du 31 décembre, qu'il étoit prêt d'ouvrir les négociations pour

نسخة من الاوامر و المنشورات الصادرة باللغة الفرنسية

نسخة من امر الجنرال مينو الى الجيش الفرنسي



Bibliotheca Alexandrina
1241457

الرواد والمرجع الأصدق للكتاب الجامعي الأ

دار زهران للنشر والتوزيع

تلفاكس: 0096265331289 ص.ب: 1170 عمان - الرمز البريدي: 11941 الأردن
E-mail: zahran.publishers@gmail.com www.zahranpublishers.com

ZAHRAN زهران للنشر PUBLISHERS